الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الجزء الحادي عشر
سورة الأعراف

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الحادي عشر

تتمة سورة الأعراف

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net

mktba.net > رابط بديل

٧

تتمة

سُورَةُ الأعرَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ
عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ
ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ
أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ
﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ
ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ
عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ
ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ
غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

هناك آجال شخصية بين محتومة ومعلقة، وهنا آجال جماعية، فهل هي كماهيه آجال الأعمار بقسميها؟ ولا نجد أمة بكاملها تنقضي بموتٍ لأجل محتوم أو معلق على أية حال!.

أم هي آجال في كيانها دون كونها كالأمم الرسالية الخمس حيث يُقضى على شرعة كلٍّ بمجيء الأخرى، ثم الأمة الإسلامية أجلها القيامة الكبرى إذ لا أمة رسالية بعدها، وقد يتأيد أجل الكيان بآيات يونس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾(١) (٢).

(١) سورة يونس، الآيات: ٤٧-٤٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٧ فيه عدة روايات تشابه ما نقلناه عن الدر المنثور في تفسير الآية أنها تشمل آجال الأعمار، وفيه عن كتاب التوحيد بسند متصل عن ابن حيان التميمي عن أبيه: وكان علي عليه السلام يفنى الكتاب يوم صفين ومعاوية مستقبله على فرس له يتأكل تحته تأكلاً وعلي عليه السلام على فرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المرتجز وبيده حربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو متقلد سيفه ذا الفقار، فقال رجل من أصحابه: احترس يا أمير المؤمنين فإنا نخشى أن يغتالك هذا فقال علي عليه السلام: لئن قلت ذلك أنه غير مأمون على دينه وأنه لأشقى القاسطين وألعن الخارجين على الأئمة المهتدين، ولكن كفى بالأجل حارساً، ليس أحد من الناس إلّا ومعه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلوا بينه =

ذلك، بعد ما يتأيد بما احتُفت به من آياتٍ تخاطب بني آدم ككلّ: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ...﴾(١) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ...﴾ ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إذاً فكلُّ الأمم الرسالية الخمس مؤجلة بأجل محتوم دون تعلّق، حيث ينقضي دورها الرسالي بأمة رسالية أخرى تليها، ومجيء الأجل هنا هو مجيء قضاء، لا نفسه، حتى ينافي لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وهنالك أجل ثالث هو أجل كلِّ الأمم عن بكرتهم كما في يونس ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢) و﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ هنا تعني كلَّ الأمم، ولكنه احتمال بعيد عن ساحة الدلالة القرآنية.

ثم ومجيء الأجل في هذه الآجال لا يعني هنا واقعها إذ لا معنى - إذاً - لاستقدامها وقد قُضيت، بل هو مجيء تقدير الآجال فلا مؤخر لها إذا ولا مقدّم عما عجلت أم أجّلت لها من آجال، أم إنه واقع الأجل بفارق أنه في ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ مستحيل ذاتياً، وفي يستأخرون وقوعياً، فقد عُني - إذاً - تلحيق ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بـ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في الإحالة مهما اختلفت فيها ذاتياً وسواها، حيث القصد هنا أصل الاستحالة لا وكيفيتها.

ذلك، وترى كيف ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ مهما هم ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؟ ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ حيث يرون عندئذٍ ألّا مجال لتأخير لأنه أجل محتوم، ثم ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد تعني - مع ما عنت - أن ليس لهم تقدم الأجل المحتوم مهما حاولوا، اللّهم إلّا المعلق ولكنه أيضاً غير بعيد عن مشيئة الله.

= وبين ما يصيبه وكذلك إذا حان أجلي انبعث أشقاها فخضب هذه من هذا - وأشار بيده إلى لحيته ورأسه - عهداً معهوداً ووعداً غير مكذوب.

أقول: فالمفروض على المكلفين التحرز عن بواعث الموت إلّا فيما أمر الله بالجهاد، ثم ليس عليهم الحفاظ على أنفسهم أكثر من ذلك التحرز حيث الأجل ضمان رباني.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.

وقد تعني «كل أمة» كلَّ الأمم رسالية وسواها بكياناتها الجماعية قيادية روحية أو زمنية أمّاهيه من كيانات جماعية.

أو تعني ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ - مع ما عنت - أجل الموت المحتوم قبل القيامة، والأمة - إذاً - هي أمة الموت، فإن لكلٍّ آنٍ أمواتاً بين كلٍّ الأحياء، فـ ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الأجل المحتوم لا فردياً ولا جماعياً[١] وما علينا أن نتحرز عن الآجال المحتومة فإنه غير مستطاع لنا إذ نجهلها، فإنما لنا وعلينا التحرز عن أسباب الموت - غير المحبورة - حيث الأجل المحتوم مجهول بين الآجال المعلقة.

ففي مسارح القتال المفروضة علينا أو الراجحة لنا ليس التعرض للموت محظوراً، بل هو محبور قضية الأمر، وفي سائر المسارح هو محظور حيث نجهل محتوم الأجل عن معلّقة[٢].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٨١ عن أبي الدرداء قال تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ فقلنا: من وصل رحمه أنسئ في أجله؟ فقال: إنه ليس بزائد في عمره قال الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة فيدعون الله له من بعده فيبلغه ذلك فذلك الذي يلحقه دعاءهم في قبره فذلك زيادة العمر.

أقول: يعني ﷺ من زيادة العمر المنفية بصلة الرحم وما أشبه، الزيادة على الأجل المحتوم، وما ألطفه زيادة حكمية وهو في قبره حتى يصله دعاء الصالحين من ذريته، فلا ينافي «ليس بزائد في عمره» دفع الآجال المعلقة بمبرات، فطالما الزيادة الواقعية في العمر مسلوبة فالزيادة الحكمية وكذلك دفع الآجال المعلقة، هما قائمان، فالمبرات مانعة عن النقص في الأعمار دون زيادة عليها وكما قال الله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

فالمعني من النسأ في العمر هو النسأ عن الأجل المعلق لا المحتوم وكما في المصدر أخرج أحمد عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: من سرّه النسأ في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه.

وفيه أخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: من ولي من أمر أمتي شيئاً فحسنت سريرته رزق الهيبة من قلوبهم وإذا بسط يده لهم بالمعروف رزق المحبة منهم وإذا وفر عليهم أموالهم وفر الله عليه ماله وإذا أنصف الضعيف من القوي قوى الله سلطانه وإذا عدل مد في عمره.

(٢) راجع إلى حاشية (١) ص ١١٢.

فالمفروض علينا الفرار من الموت، فراراً «من قضاء الله إلى قدر الله عزّ وجلّ»[١]، فإنه قاض بالموت إذا تعرضنا لأسبابه المحتومة، ولكنه مقدر للموت المحتوم أضيق من قضائه فنستسلم لقدره كما أمر، ونفرّ من قضائه كما أمر، اللّهم إلّا في معترضات الموت المأمور بها كجبهات الحرب، بل وفيها أيضاً ليس لنا الإقدام على الموت، بل ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[٢] ثم إذا حضر الموت على حذركم فلكم الحسنى إذ كان بأمر الله.

ذلك، فإذا توافق القضاء والقدر للموت فلا فرار كما قُدِّر للإمام علي عليه السلام قبله حيث قدم إلى مضجعه إلى المحراب، وقُدِّر للإمام الحسن المجتبي وللإمام الرضا وغيرهما من أئمة الدين قدر الموت بقضاء السم.

فإنما جهلُنا بتوافق القضاء والقدر أو علمنا باختلافهما يفرض علينا

---

(١) المصدر عن التوحيد بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مايل إلى حائط آخر فقيل: يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله؟ قال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله عزّ وجلّ، وفيه بإسناده إلى عمرو بن جميع عن جعفر بن محمد قال حدثني أبي عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: دخل الحسين بن علي عليه السلام على معاوية فقال له: ما حمل أباك على أن قتل أهل البصرة ثم دار عشياً في طرفهم في ثوبين؟ فقال عليه السلام: حمله على ذلك علمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال: صدقت.

وفيه وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام لما أراد قتال الخوارج: لو احترزت يا أمير المؤمنين فقال:

أي يومين من الموت أخر ... يوم ما قدر أو يوم قدر
يوم لم يقدر لا أخشى الردى ... و إذا قدر لم يغن الحذر

وفي كتاب المناقب لابن شهر آشوب: وكان مكتوباً على درع علي عليه السلام:
وكان مكتوباً على علم أمير المؤمنين عليه السلام:

الحرب إن باشرتها ... فلا يكن منك الفشل
واصبر على أهوالها ... لا موت إلّا بالأجل

وفيه عن الحسن بن علي عليه السلام كلام طويل وفيه: إن علياً عليه السلام في المحيى والممات والمبعث عاش بقدر ومات بأجل.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧١.

الفرار من القضاء إلى القدر، فأما إذا علمنا التوافق بينهما، أم أمرنا بالتعرض لقضائه كمسرح القتال وما أشبه فلا.

فقد «قدر لكم أعماراً سترها عنكم»[1] «فما ينجو من الموت من خافه، ولا يُعطى البقاء من أحبه» (٣٨) حيث «خلق الآجال فأطالها وقصَّرها، وقدمها وأخرها» (٨٩) «وإن الفار لغير مزيد في عُمره، ولا محجوز بينه وبين يومه» (١٢٢).

ف «إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا، مع كلِّ جريمة شَرَق، وفي كلِّ أكلة غَصَصٌ، لا تنالون منها نعمة إلّا بفراق أخرى، ولا يُعمَّر معمَّر منكم يوماً من عُمرُه إلّا بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكلِه إلّا بنفاد ما قبلها من رزقه» (١٤٣) و«إن مع كلِّ إنسان ملكين يحفظانه، فإذا جاء القدر خلّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّة حصينة» (٢٠١ ح).

وحصيلة البحث عن آية الأجل، أن الأجل هنا بين محتوم ومعلق، وهما بين أجل الموت عن أصل الحياة، أو انتقال إلى شرعة أخرى، أم انتقال كيان حيوي آخر روحياً أم مادياً من أمة إلى آخرين.

ثم «لا يستأخرون ولا يستقدمون» هما بين مجيء وقت الأجل إعلاماً، أم واقعاً في وقته، أم على أشرافه.

ف ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في آجال الأمم الرسالية، هما قضية أنهم مخبرون بأن أجلهم سوف ينقضي بما قضاه الله، فليس لهم فيه تطّلبٌ لتأخر إلى أمد، أم تقدم على أمد، لأنه مشاقة الله في قضائه المحتوم حسب الحكمة العالية.

فلا يعني مجيء الأجل هنا واقعه إلّا في ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ حيث لا مجال - إذاً - لـ ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإن استقدام الزمن الماضي مستحيل.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٢ / ٢ / ١٤١.

وهكذا نمشي ونمضي بنور الله على ضوء القضية الدلالية لآلية فاصحة واضحة، بين محتملات الأجل والأمة ولا يستأخرون ولا يستقدمون، ما ناسبت الواقع غير المستحيل، والدلالة الصالحة.

ذلك، والأجل المقدر عند الله مجهول عن كلِّ الخليقة حتى المعصومين وكما قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس كلّ امرئ لاق ما يفرُّ منه في فراره، والأجل مساق النفس، والهرب منه موافاته، كم اطّردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلّا إخفاءه هيهات! علم مخزون...»[١].

و«إن مع كلِّ إنسان ملَكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإن الأجل جنة حصينة»[٢].

أجل، وكما أن أجل القيامة من العلم المخزون المكتوم قضيةَ الابتلاء الشامل، فكذلك أجل الموت فإنه لا يعلمه لوقته ومكانه الخاص إلّا الله، ولم يكن ليعلم الإمام أمير المؤمنين إلّا كيف يقتل، وأما متى وأين فقد كان مجهولاً لديه بنفس القضية الحكيمة الشاملة، أم كان يعلم بتوافق أجلي المقدر والمحتوم فأقدم على ما أقدم.

ذلك، وعلى أن الآجال محددة بإذن الله وعلمه، ولكنه من ناحية أخرى لا يمنع من التحسر على بلوغ آجال الأجلاء الذين هم هداة الناس دون بديل عنهم.

وهنا من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله وتجهيزه: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأبناء وأخبار السماء، خُصصت حتى صرت مسْلياً عمن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء، ولولا أنك أمرت بالصبر

(١) (الخطبة ١٤٩).
(٢) (الحكمة ١٩٠).

ونهيت عن الجزع لأنفذن عليك ماء الشُّؤن، ولكان الداء مماطلاً، والكَمَد محالِفاً وقلاً لك، ولكنه ما لا يملك رده، ولا يُستطاع دفعه، بأبي أنت وأمي، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك»[(١)].

ذلك، وآجال الرسل هي مقدرة مقررة لا تَستقدم ولا تُستأخر، قضية الحكمة العالية الربانية في الحفاظ على وحيه الرسالي لإتمامه في أيامه، ولا سيما خاتم المرسلين محمد ﷺ فقد «كتب آجالكم، وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلِّ شيء، وعمر فيكم نبيه أزماناً حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه، وأنهى إليكم على لسانه محابَّه من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره، فألقى إليكم المعذرة، واتخذ عليكم الحجة، وقدم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يدي عذاب شديد. . .»[(٢)].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥﴾:

ذلك، حيث ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾[(٣)] - ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤﴾[(٤)] ففي هاتين «هدى» حيث تشملان آدم وهو أول الرسل، وهنا ﴿رُسُلٞ﴾ إذ ما أتى آدم نفسه رسول، نصوص ثلاثة تتحدث عن مسرح الرسالات الربانية على مدار

(١) (الكلام ٢٢٦).
(٢) (الخطبة ٨٥)
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٤) سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

الزمن الرسالي للمكلفين، فالتمسك بآية «بني آدم» زعماً أنهم - فقط - الأمة الإسلامية، فـ ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ بشارة لرسالات بعد الرسالة الإسلامية؟ إنه تمسك هباء وخواء - بعيد عن بني آدم - اللّهم إلّا أن تخرج بقية الأمم الرسالية عن بني آدم ومنهم هؤلاء المدعون استمرارية الرسالة لما بعد الرسالة الإسلامية.

كلّا! فإنه خطاب يعم كلَّ بني آدم على مدار الزمن الرسالي دونما استثناء، منذ آدم حتى خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

فـ ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ . . .﴾ تأكيد لإتيان الرسل بصورة الشرطية، تدليلاً على أن ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بشارة ونذارة عامة تحلق على كلِّ بني آدم المكلفين دونما استثناء.

وهنا ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ كما ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي . . .﴾[1].

حيث تعني ﴿مِّنكُمْ﴾ المجانسة بين الرسل والمرسل إليهم، لا أنهم المنتخبون من قبلهم، فهكذا أيضاً «أولو الأمر منكم» دون فارق.

ولأن «ما» تُخفف عن تردد «إن» الشرطية، ثم الشرطية غير متمحضة في واقع التردد، بل هي تُعلِّق أمراً على آخر حاصلاً أم سوف يحصل، أم حصل قبل أو لن يحصل، لذلك كله فلا تناحر بين «إن» الشرطية والتأكيد المستفاد من التأكيدية الثقيلة في «يأتين»، ولأن القص هو تتبع الأثر، وهو القصُّ التأريخي بمعنى عرض النخبة اللامعة، إذاً فـ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يعني تتبع الآثار الربانية فطرية وعقلية وشرعية أماهيه من آفاقية وأنفسية، وقص التاريخ الرسالي لأنه سلسلة موصولة مع الزمن الرسالي.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

ذلك وقد «اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدَّل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واحتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكِّروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم الآيات المقدرة، من سقف مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تُحييهم، وآجال تُفنيهم، وأوصاب تَهرمهم، واحداث تتابعَ عليهم، ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزَل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصِّر بهم قلةُ عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابقٍ سمي له من بعده، أو غابر عرَّفه من قبله -.

على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله ﷺ لإنجاز عدته، وتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورةً سماتهُ، كريماً ميلادُه. .»[1].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

والخلود - كما مرَّ مراراً ويمر - هو البقاء مدة طائلة، دون غائلة الأبدية اللانهائية التي افتريت على الله بتعليلات عليلة، وهل العقوبة اللانهائية هي جزاءٌ وفاق للعصيان المحدود لزمن محدود بأثر محدود؟: -

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

فممن افترى على الله كذباً وكذب بآياته هؤلاء الذين يؤبّدون المكذبين

(١) (الخطبة ١).

بآيات الله المستكبرين عنها، أبد اللّانهاية، فهم - إذاً - معهم فيما يزعمون، اللّهم إلّا القاصرين منهم التابعين للقائلين به الغائلين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قبل الموت، لمكان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ...﴾ فما هو ذلك الكتاب؟ إنه بطبيعة الحال كتاب الأعمال لسبق ذكر الأجل، مما يؤيد أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ تشمل أمم الموت مؤمنين وكافرين، فكما ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾[١] كذلك ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٢] وكذلك كتاب الأعمال وما كتب الله عليهم بها من العقاب في كتابه حسب كتاب الأعمال، وقد عبّر - مراراً - عن مثبتة الأعمال في سجلاتها بالكتاب: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣]، ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٤] فالكتابان - إذاً - هما معنيّان بفارق أن نيل نصيب كتاب الأجل يختص بالدنيا بنفسه، ثم نصيب كتاب العمل يشمل النشآت الثلاث والمعني منها هنا نصيب الدنيا بآثار الأعمال السيئة.

صحيح أن هنا عملاً دون حساب وهناك حساب دون عمل، ولكن «نصيب من الكتاب» هو خليفة حاضرة لا مرد عنها مما لا بدَّ منها، فإن للأعمال آثاراً في الحياة الدنيا كمالَها في الأخرى مهما كان كمالُها في الأخرى.

ثم ومن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما كتبه الله من أعمار وأرزاق للعباد، فكما للصالحين نصيبٌ كذلك للطالحين، إذ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٥].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

فكما ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رزقاً في الحياة الدنيا وأجلاً فيها فإن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[١] كذلك ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي كتبوه بأعمالهم، فهم عائشون بين الكتابين ولا يظلمون فتيلاً.

ذلك، وأن لهم أنصبة من الكتاب أولاها في الأولى، وأخراها في الأخرى، وأوسطها بينهما حيث ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢]، ومن الوسطى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ وهم الرسل الملائكية الغلاظ الشداد: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[٣].

والتوفي هو الأخذ وافياً دون تفلُّت لشيء من كيان الإنسان، المفروض حشره للحساب نفساً وبدناً: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾[٤].

ومن مقالهم معهم ﴿قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهم آلهة مع الله، دلونا عليهم لنراهم ما هم ومن هم؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ ضلالاً عن كيان الألوهية، لا عن كونها كسائر الكائنات حيث تحشر حاسرة عما تلبّست من كبرياء الألوهية: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٨٦ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾[٥] - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٨.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٠.
(٤) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.
(٥) سورة النحل، الآيتان: ٨٦، ٨٧.

يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾﴾[1].

ذلك، وقد تعني ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ إلى ما عنت، ضلالاً عند الموت، ثم «إذا رأى» رؤية عند الحشر، وعلى أية حال ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

هنا ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ...﴾ دون فصل عن «يتوفونهم» - بقالتهم المؤنبة إياهم - دليل أن ﴿ٱلنَّارِۖ﴾ هنا هي البرزخية، ثم ﴿إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ قد تلمح أنها نار الآخرة، حيث الجمع لأهل النار في النار ليس إلّا فيها، وأما النار البرزخية فهم يدخلونها تباعاً حتى قيامة الإماتة الصعقة، فقد لا يكون للأحياء عندها برزخ؟!.

ولكن الجمع في البرزخ كائن في آخر الأمر، فالأموات قبل القيامة الأولى أخذوا مواقعهم فيه، ثم الذين يلونهم في القيامة الأولى يدخلون فيما هم داخلون وهنا ﴿ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾.

وأما الصعقة الشاملة ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[2] في القيامة الأولى، فلا تنافي حياة برزخية بعدها فيها يثابون أو يعذبون.

وقد تعم ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ إلى مدخل البرزخ مدخل القيامة الكبرى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا. . .﴾ فـ ﴿ادْخُلُواْ﴾ للبرزخ أمر حاضر دون فصل، وللأخرى أمر حاذر للمستقبل ببرزخ الفصل.

ثم ﴿الْجِنِّ﴾ الداخلون مع «الإنس» في النار هم شياطين من الجن وفسقة يستحقون النار البرزخية، مما يدل على أن الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم لا يشمل كلَّ شياطين الجن، فقد يشمل مع الشيطان الأوّل الشياطين الأول من صناديدهم كما هو قضية ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾(١) فهنا شياطين منظرون مع الشيطان الأول، وهم - بطبيعة الحال - أضرابه من رؤساء الشيطنة، أم يشمل كلّ شياطين الجن لمكان ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾(٢) فدون الصالحين منهم هم قدد الشيطنة، المنظَرون مع هذا الشيطان.

وعلى أية حال فهناك مُنظَرون من الشياطين هم كلهم أم بعضهم دون فسقه الجن، فإنهم كما الإنس غير منظرين.

وترى كيف ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ وأمم النار أصدقاء مرافقون موافقون في أسباب النار واستحقاقاتها؟.

إن الملاعنة هناك هي قضية ظهور الملكوت، فـ ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(٣) ثم الموادة بينهم كانت قشرية على الأهواء الطائشة، وقد مضت وأدبرت، ثم ظهرت فاسدة كاسدة فقضت بما قضت، فكلُّ تعاون بين هؤلاء الأخلاء في الفسوق تكون هناك مادة العداء الظاهرة، وقد كانت مستورة أم متغافلاً عنها: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥.
(٢) سورة الجن، الآية: ١١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١] - ﴿يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾[٢].

أجل و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[٣] ثالوث من التخاصم بسالوس الإضلال والضلال والإدغال، فقد يخاصم المضلّلون مضلّليهم وعكساً، كما يخاصم كلٌّ منهم قرينه في الضلال والتضليل، واللعنة الأممية هي ضابطة اللعنة الثابتة «أمة» بمن فيها من المضلِّلين والمضلَّلين والقُرناء في كلٍّ منهما، فكل لاحقة تلعن أختها السابقة عليها، ولأنها لحقتها في ضلالها، إذ كانت تقلدها وتتبع آثارها، ولعنت أختها اللاحقة بها، سواء أكانت أختها مضلّلة لها أم مضلّلة بها، حيث الأخوة في الكفر لا تعرف دركة دون أخرى ولا زمناً دون آخر.

ثم «أمة» هنا هي أمة الموت، وقد تعنيها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ولكنها أمة الضلالة، وتقابل أمة الهدى.

ولماذا ﴿ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ دون «دخلوا - أو حضروا»؟ حيث القصد إلى تداركهم فيها بحساب واستحقاق، وإدراكهم بعضهم بعضاً ظاهراً وباطناً، وعندئذ:

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ حيث اللاحقة هي تابعة السابقة، أم - كأوضح - أخراهم في الضلالة التابعة لأولاهم فيها وهم أئمة الجور[٤]، فالفريقان - إذاً - هما المتعايشان إن في زمن واحد أم عديد، فهما على أية حال المضلَّلون باتِّباعهم للمضلّلين، سواء أكان في تعايش زمني، أم في تقليد أخراهم لأولاهم دون تعايش حيث يضلّلون بآثارهم.

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.
(٣) سورة ص، الآية: ٦٤.
(٤) تفسير البرهان ٢: ١٤ - الطبرسي قال الصادق عليه السلام في الآية يعني أئمة الجور.

وبصيغة أخرى قد تعني «أخراهم» وجاه «أولاهم» كل أخرى لكلٍّ أولى، في سلسلة متواصلة بحقول الإضلال والضلال، أم «أخراهم» هم المضلَّلون و«أولاهم» المضلِّلون فإنهم الأولى في حقل الضلال وأولئك هم الأخرى، مع كون كلٍّ من الأخرى هي أيضاً أولى لمن يضلِّله.

إذاً فالقصد من ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ هو قيلة كلّ أمة مضلَّلة لكل أمة مضلِّلة، والأمة هنا كما بينا هي أمة الموت في الكفار الذين هم أهل النار.

ذلك، ولأن الضلال منه حاضر في تعايش الضُّلَّال والمضلِّلين، ومنه غير حاضر بمضلِّليه لمكان ضلالهم الغابر، العابر مر الزمن، فقد يشمل الإضلالُ كلّهما، فإن «من سن سنَّة سيئَة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم» مهما كان الإضلال الحي أقوى وأغوى من الإضلال الميت.

إذاً فـ ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ تشمل كلَّ مضلَّل و﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ تشمل كلّ مضلِّل حياً وميتاً ما دام في ضلاله تأثير الإضلال بأي أثر باق باغ في حقل الضلال، إذاً فليست ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ هي المتأخرة موتاً إذ قد يكون هي المتقدمة إضلالاً.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لضلالهم أنفسهم وإضلالهم إياناً ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ فإنكم كما هم ضللتم وأضللتم، فإن في الدخول إلى ربَع الضلالة إضلالا للبسطاء، ثم ﴿لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ضِعفكم عن ضِعفهم، فإن لكلٍّ عذاباً قدر سعيه في الضلال والإضلال.

ذلك، فلا تعني ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ تماثل الضعفين عِدة وعُدّة، بل هو التماثل لبُعْدي الضلالة مهما اختلفت العِدة والعُدة، فقد يقوّى ضعف الأولين ويضعّفَ ضعف الآخرين، حسب القوة والضعف في الضلالة والإضلال، وكما أن كلًّا من الفريقين دركات في كلا الضلال والإضلال،

ثم والضعف في العَدد كما العُدد لا ينحصر في اثنين حيث قد يتجاوزهما إلى أضعاف حسب أضعاف الاستحقاقات(١).

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

وترى الفضل المنفي في بُعد العذاب هو الفضل في عِدَّة العذاب وعُدَّته، أن الفريقين يتساويان فيهما؟ وهذا غير وارد في كلٍّ فريق بين أفراده فضلاً عن الفريقين مع بعضهما البعض! فقد يعني فضل الضِعف في العَدد، لا والعُدَد.

وعلى أية حال ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فعلى قدر مكاسب السوء نُجازى وتُجازون.

وقد يعني ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ مدى الضّعف مضلِّلين ومضلَّلين، فلذلك ليس ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ إلّا جهلاً بمدى «لكلّ ضعف» وهذا الجهل عذاب فوق العذاب.

ثم وقد تكون ﴿فَذُوقُوا۟...﴾ من كلام الله دون كلام أولاهم، كضابطة عامة تعم أولاهم وأخراهم أن ذوق العذاب على أية حال ليس إلّا بمكاسب السوء قدرها، من مضلِّل كان أم مضلَّل، على قدر ضلاله وإضلاله أم تقبله للضلال ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

إذاً فهي نقدٌ على ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أم هو كلامهم

---

(١) قال الأزهري «الضعف» في كلام العرب المثل إلى ما زاد وليس بمقصور على المثلين وجائز في كلام العرب أن تقول: هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله، لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة كما ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [سبأ: ٣٧] إذ ليست تعني ضعف المستحق، بل هو كثرة الثواب حسب كثرة الطاعات وأقل الضعف لهم عشرة أضعاف فـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وكذلك الأمر حيث أجابوا أنفسهم بأنفسهم. وحصيلة الضعف هنا وهناك أن لكلٍّ كثرة العذاب عَدداً وعُدداً حسب عَديد العصيان وعُدده، وليس يعني ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ إلّا فضلاً من الله يختص بالمضلّلين لأنهم أتباع، فهو العدل المحكّم بين الفريقين، وقد يربو المضلَّل على المضلِّل في ضِعف العذاب قدر ضِعف العصيان، وإنما الفضل يختص بكتلة الإيمان، أن يزدادوا ثواباً عمّا يستحقون، وأما الكفار فلا زيادة في عذابهم ولا نقصان عن المستحق بقسطاس مستقيم.

ولأن «الضعف» لا يختص بالمثلين كما ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[1] وأقل الضعف هو عشرة لمكان مَنْ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهذا لأدنى المؤمنين، وهنا جَزاءُ الضِّعْفِ لأفاضلهم.

إذاً فمطالبة ضعف العذاب للمضلّلين - فقط - لأنهم أضلوا، خاوية عن العدل المُرام يوم الحساب، والجواب كلمة واحدة ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ من العذاب وهو كثرته قدر المستحق، فقد يكون ضعف المضلَّل أضعف من ضعف المضلّل، وآخر يعاكسه، وضعف كلّ ليس إلّا بميزان العدل، ثم لا ضِعف كما يشتهون ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أن لكلٍّ ضعفاً كما ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ قدر الضِّعف لكلٍّ حيث الأعمال معروفة عند الله، مجهولة عند من سواه.

فهنا لِكُلٍّ ضِعْفٌ تعني عذاباً لضلاله وعذاباً لإضلاله، وكلٌّ ضعف إنما هو قدر المستحق عَدداً وعُدداً ولا يظلمون فتيلاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)﴾:

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

هنا ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قد تعني أبواب سماء الرحمة الرحيمية دنيوية وأخروية وبينهما ومن الأولى ألّا تفتح لهم أبواباً لتصعد أعمالهم وأدعيتهم إليها، حيث ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(١) كما لا تفتح عليهم بركاتها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢)، ومن الأخرى عدم صعودهم إلى الجنة المأوى عند سدرة المنتهى، كما أن مما بينهما عدم صعود أرواحهم لدى الموت إلى سماء الرحمة(٣).

ذلك، وأما أقفال السماوات فالشرك بالله، ومفاتيحها قول ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، إذاً فأبواب سماء الرحمة مادية ومعنوية لا تفتح لهم في أية نشأة من النشآت الثلاث.

إذاً فللسماء أبواب: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾(٤)، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٣) الدر المنثور ٣: ٨٣ - أخرج أحمد والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان وربّ راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر.

وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قبض روح الكافر: فإذا أوتي بروحه إلى السماء الدنيا أغلقت منه أبواب السماء وذلك قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] يقول الله: ردوها عليه فمنها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

يَعْرُجُونَ﴾[(١)] ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾[(٢)].

و﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ تمثيل بما يستحيل حيث يحيل دخولهم الجنة، فهل هو الجمل الإبل؟ فضلاً عن جمل أصحاب الجمل[(٣)] ولا صلة لذلك الجمل بسم الخياط، ولا أن أصحاب الجمل من ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لا سيما وهم بمثل طلحة والزبير كانوا من أصحاب رسول الله ﷺ الصالحين عند نزول الآية، فكيف تنزل آية كفرهم الذي يحيل دخولهم الجنة؟!.

وهنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جمعاً محلى باللام تحلق على كافة الآيات الأنفسية والآفاقية: رسولية ورسالية، وهو الكفر المطلق المطبق، البعيد عنه الذين يكذّبون ببعض ويصدّقون ببعض، فلهم بعض الإيمان، فقد يأتي يوم هم يخرجون فيه من النار إلى الجنة قضية إيمان، بعد ما ذاقوا وبال أمرهم في تكذيب.

فهذه الآية تبين مصير المؤبدين في النار الذين ينخمدون - بعد ما ذاقوا وبال أمرهم - مع انخماد النار، فلا نار - إذاً - ولا أهل نار.

ثم ﴿الْجَمَلُ﴾ أمام ﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ تناسب القلس الغليظ الذي يجريه الجمل، ولأنه حبال جمعت وجملت فأصبحت حبلاً واحداً يصلح لجرِّ الجمل، وأين جمل من جمل؟.

فهنا ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ تعم كلَّ تفتُّح لبركات السماء معنوياً ومادياً في النشآت الثلاث، كما تعم التفتح لصعود أعمالهم إليها يوم الدنيا، وصعود أرواحهم فيها بعد الموت، وصعود أنفسهم يوم القيامة الكبرى، حيث تفتح أبواب

---

(١) سورة الحجر، الآية: ١٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٥.

(٣) نور الثقلين ٢: ٣٠ تفسير العياشي عن منصور بن يونس عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية نزلت في طلحة والزبير والجمل جملهم.

جنة الخلد عند سدرة المنتهى لأهليها، وكذلك نزول بركات من السماء مادية ومعنوية عليهم في هذه النشآت، فهذه الأبواب كلّها مغلقة على هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ كما أغلقوا على أنفسهم أبواب الهدى، جزاءً وفاقاً.

أجل تفتح لهؤلاء الأنكاد أبواب الزحمة بديلة عن أبواب الرحمة، حيث السماء تشملهما مادياً ومعنوياً، ولا تعني ﴿بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(١) لأهل الرحمة في المادية منها ما تصل إلى غير الصالحين من رحماتها، فإنها تبدل عندهم بزحمات حيث يبدلون نعمة الله نعمة ونقمة، إضافة إلى رحمات خاصة أخرى مادية لهؤلاء دون أولاء.

ذلك، وأبواب السماء في صعود الأعمال والأدعية ونزول الفرقان والرحمة على أهليها، هذه هي أبواب سماء الرحمة الروحية، المتحللة عن العلو المادي، فـ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾(٢) لا تعني إلى مكان عالٍ إلّا جنة المأوى، أم إلى رضوان من الله الذي لا مكان له، كما ونزول الرحمة المعنوية يعني فيما يعنيه نزولاً روحياً دون مكان عال.

والأجمل هنا في ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ الجمع بين جمل الجمل والجمل الذي يُجر به الجمل، فلو أمكن ولوج الجمل ابتداءً بحبله الجمل في سمِّ الخياط لأمكن دخول هؤلاء الجنة، ومما يُناسب ذلك الجمع أن الخيط الغليظ الذي يصعب ولوجه في سم الخياط يربط برقيق سهل الولوج فيلج به صعبه، وفي ولوج الجمل الإبل بجمله الفتل الغيظ استحالتان اثنتان، مما يجعل الممثل به تضاعف الاستحالة، وعلّ من الوجه في صيغة ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ هنا دون الإبل، جمعها لجملي: الجمل وحبل الجمل، دون الإبل جمعاً بين الاستحالتين،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

فدونك قف أمام ذلك المشهد الرائع الشهيد، مشهد الجمل بحبله تجاه سم الخياط، فلو انفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير بجمله القطير، فقد تنفتح الجنة لأولئك المكذبين بآيات الله المستكبرين، ولكن:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

هناك لهم ﴿مِهَادٌ﴾ مهدوها في الحياة الدنيا، حيث الآخرة بحذافيرها هي مثال الدنيا المخلّفة - بما وعد الله - هي عنها، فـ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ من تحتهم فراشاً ﴿مِهَادٌ﴾ أمهدة مفترشة ممهدة لهم بكلِّ ألوان العذاب التحتية، ثم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ جمع الغاشية فهي أغشية مشتملة، وهي العذابات الساترة لهم، المحيطة بهم من جوانبهم كلّها، فيكون استظلالهم بحرِّها كاستقرارهم على جمرها، فـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾[(١)].

فالغاشية هي التي تغشاهم مهاداً من تحتهم وسائر الغاشية من فوقهم: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، وعلى حدِّ المروي عن الرسول ﷺ: عند تلاوته هذه الآية: «هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته لا يُدرى ما فوقه أكثر أو ما تحته غير أنه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه الطبقات العليا ويضيِّق فيما بينهما حتى يكون بمنزلة الزج في القدح» فقد جعل لهم من النار أمهدة مفترشة تحتهم وأغشية مشتملة عليهم، فيكون استظلالهم بحرِّها كاستقرارهم على جمرها أعاذنا الله منها، فتلك هي ضفّة التكذيب والاستكبار، ثم إلى ضفّة التصديق والإقرار:

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١-٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٥.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾:

هنا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تحدِّد واجب الإيمان وعمل الصالحات دون إحراج ولا إعسار فيها، فـ ﴿أُولَئِكَ﴾ على درجاتهم بمساعيهم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ عطاء غير مجذوذ، دون واجب الاستغراق الظاهر من ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إزالة لليأس عن هؤلاء الذين لم يطبقوا كل الصالحات، فما لم يكن في الوسع من فعل المفروض أو ترك المرفوض فلا يطالب به المكلف، ثم وما قصر فيه وهو يسعه أن يطبقه فبوسعه أن يجبره فهو مطالب بجبره، اللّهم إلّا السيئات المكفرة بترك الكبائر، فـ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تبشير بواسع رحمة الله كضابطة ثم هناك مزيد فيما قصر من تكفير وتوبة وشفاعة أماهيه.

ذلك، ومتصوَّرات التكليف المستحيل والممكن والواجب كالتالية:

١ - التكليف بالمستحيل ذاتياً، ٢ - أو حالياً، ٣ - والتكليف المحرج نوعياً أم، ٤ - شخصياً، ٥ - والتكليف الشاق المعسر نوعياً أو، ٦ - شخصياً، ٧ - والتكليف الموسع شخصياً، ٨ - أو نوعياً.

فالأولان مستحيلان في محكمة العقل والعدل فضلاً عن التكليف الفضل، ثم المحرج بشقيه غير وارد في الشرع لمكان نفي الحرج بآياته كـ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] وكذلك الشاق الذي يكلف كافة قوات المكلف بنوعيه، إلّا قليلاً لمكان نفي العسر بآياته كـ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١] فيبقى الثامن وهو واسع التكليف الذي لا يكلف المكلف إلّا واسعاً في طاقته.

وكما أن واسع التكليف شرط في أصله لكافة المكلفين، كذلك هو في كلٍّ منهم، فإذا كانت الموانع لفعل المفروض أو الجواذب لفعل المرفوض، كانت أقوى من طاقة المكلف أم يُساويها، أم هي أقل منها بقليل لا يعبأ به، إذاً فهذا التكليف خارج عن وسع المكلف فلا يكلف به، اللّهم إلّا إذا عدم الوسع بسوء اختيار، وإذاً فليس التكليف الخارج عن وسعه إلّا بوسعه قضية سوء اختياره في ترك الوسع.

هذا، فقد يقدر التكليف بالطاقة الموسعة امام المكلف به وإلّا فلا تكليف إلّا فيما استُثني.

فالمفروض تركه أو فعله الذي هو بحاجة إلى عصمة ربانية خارج عن الفرض لمن دون المعصومين، كما حصل ليوسف عليه السلام في قصة امرأة العزيز، فـ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٢] - فلو لم يدركه عليه السلام برهان ربه وهو العصمة الربانية لهم بها على عصمته البشرية التي هي فوق العدالة العادية ودون العصمة الربانية، فإن وقع غير المعصوم في نفس المأزق الذي وقع فيه يوسف عليه السلام لكان في همِّه بها أم وفعله فيها معذوراً إذ لم يكن تركها في ذلك الظرف الحاسم العارم في وسع الطاقة غير المعصومة.

وهكذا الأمر في كلِّ طاقة قاصرة عن مكافأة أو مكافحة العصيان، إلّا إذا كانت قاصرة عن تقصير، كالذي يسافر إلى بلدة يعلم اضطراره فيها إلى اقتراف محرم أو ترك واجب، حيث اضطراره المقصر - إذاً - غير عاذر،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

فليس الاضطرار أو الإكراه أو سلب الطاقة عاذراً للمضطرين والمكرَهين ومسلوبي الطاقة إلّا إذا كانت هذه الحالات دون فعلهم القاصد وإرادتهم.

لذلك نجد آيات الاضطرار تعبر عنه بصيغة المجهول كـ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾[١] لا ﴿فَمَنِ ٱضْطَرَّ﴾ فالاضطرار المباغت هو الموضوع للعذر، دون أي اضطرار وإن كان باختيار.

ذلك، و﴿نَفْسًا﴾ هنا هي عبارة أخرى عن «روحاً» فلأن الله هو الذي خلق الأرواح بوسعها، فهو الذي يعرف وسعها، خلاف ما ظن قوم من الملحدين الغفلة الجهال أن الله لا يعرف النفوس، فقد يكلفها فوق وسعها، وكما تقولوه في ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٢] أن الجواب لم يحصل عما سُئِل، امتناعاً منه لفقد العلم به، فـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣] تبكيت وتقريع لم يقعا موقعهما، بل هو على سبيل المحاجزة والمدافعة عن الجواب، ولقد فصلنا البحث حول آية الروح، وأن فيها الإجابة عن كافة الأسؤلة حول الأرواح كلها، فراجع.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ إذ ما كانوا يستطيعون نزعه عنها وهو المستمر فيها نكال في الجنة، فقد «نزعناه» نزعاً لما كان يحدد الإيمان وعمل الصالحات، وهو في الجنة يكدر طيبة العيشة والعشرة مع الإخوان.

أجل ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[٤] وكما كانوا يتطلبونه هنا ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٧.
(٥) سورة الحشر، الآية: ١٠.

فقد يكون غِلُّ الصدور بما يخيّل إلى ذوات الصدور من تقصير لإخوان وهو قصور أم تقصير منا قاصر بحقهم فنطلب أن يزيل ذلك الغل وألّا يجعله في صدورنا، أو يكون غلاًّ بحق اعتداء بمثل حيث ظلمك أخ لك في الدين، فقد يرجح زوال ذلك الغل عن الصدور سماحاً عما حصل، ثم إذا لم يزل الغل في صدورنا فالله هو الذي يزيله عنها في الجنة تحقيقاً رفيقاً للتعايش السلمي في دار الكرامة والرحمة حتى لا تحول - كما في الأولى - زحمة.

أم إنه غلٌّ بحق لا يحق زواله لأنه بغض في الله، فالله قد يزيله في الآخرة حيث يزيل سببه بعقاب أم غفران بحق، فلأن غل المؤمن في صدر المؤمن عذاب، لذلك فليُنزع تخفيفاً خفيفاً عن صدور المؤمنين، ولكن بحق لا يزداده غلًّا بعد غله.

وقد تعني «نزعنا» إلى نزع في الأخرى نزعاً في الأولى كما في بعض الصالحين، وإذا لم ينزعه هنا فقد ينزعه هناك رحمة من الرحيم الرحمان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١).

وفالغلُّ هو العداء والضغن، لا يخلو عن لمم منه إلّا المخلَصون، ونزع الغل هو بطبيعة الحال قبل دخولهم الجنة وكما يُروى عن الرسول ﷺ قوله: «يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غلّ»(٢).

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٠١ - أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بلغني أن رسول الله ﷺ قال: . . . وأخرجه مثله ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن قتادة قال حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله كان في الدنيا.

ترى وإذا كان غل بحق فكيف يكون نزعه أيضاً حقاً وهو ضغط على صاحب الحق؟.

ذلك، لأن الله لا ينزع الغل المستحق إلّا بجزاء وفاق على المستحق عليه قبل الجنة أم بمعاملة تهاترية بين الإخوة المتغلغل بينهم الغل، ثم ينزع ذلك الغل نزعاً بعدلٍ ورحمة، فحين يُجازى المستحق عليه في غلٍّ أم تُجبر مادة الغل بسبب آخر فبقاؤه - إذاً - غلّ آخر دون مبرر، فنزعه - إذاً - رحمة بعد زحمة، ثم الغلُّ الخاطئ الذي لم يكن له أصل، إنه ينزع هناك رحمة للجانبين، إكراماً لهما قضية إيمانهما، فـ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

فقد نزع الله ما في صدورهم من الغل - أياً كان من حق أو باطل - بإنسائهم إياه، وإحداث أبدال له تشغل أماكنه من قلوبهم، وتشفع مواقعه من صدورهم، فلا يحقد بعضهم بعضاً ولا يحسد على علوِّ المنزلة فيها والبلوغ إلى مشارف رتبها، والغلُّ هو كلُّ ضيق من حسد أو غبطة أو عداوة أماهيه مما يغل ويغلق مفاتح القلوب إلى أهل الجنة.

أجل، ولأنهم - على أية حال - بشر، يعيشون بشراً، وقد يثور بينهم في العشرة الحيوية غيظ يكظمونه، أو يغور غل يغالبونه فيغلبونه ولكن تبقى في صدورهم منه آثار وآصار، أم يبقى دون كظم كضيم أم غَلَب هضيم، ثم الله إكراماً لهم وإراحة إياهم في ساحة الجنة ينزعه عنهم وكما يُروى عن الرسول ﷺ: «الغل على أبواب الجنة كمَبارِك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين»[2]، ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ الحق المبين والشرع

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٢) القرطبي في تفسيره أحكام القرآن، وفي الدر المنثور ٣: ٨٥ - أخرج ابن جرير عن أبي نضرة قال: يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقتص لبعضهم من بعض حتى يدخلوا الجنة =

المتين، وهدانا لنزع هذا الغلّ من صدورنا، ثم لهذه الجنة ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ إلى ما اهتدينا ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وقد هدانا حيث ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ جاء مجيئاً(١) بالحق، وجاءت بسبب الحق ومصاحبة الحق وغاية الحق ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إرثا عن أهل النار حيث تركوا أمكنتهم لنا، وارثاً تركه لنا بما قدمناه من صالحات.

فهناك توارث بين أهل الجنة والنار فـ «كلُّ أهل النار يرى منزله في الجنة يقول لو هدانا الله فيكون حسرة عليهم، وكلُّ أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: لولا أن هدانا الله»(٢).

أجل و«نودوا أن صحوا فلا تسقموا، وانعموا فلا تبأسوا، وشبوا فلا تهرموا، واخلدوا فلا تموتوا»(٣).

= يدخلونها ولا يطلب أحد أحداً بقلامة ظفر ظلمها إياه، ويحبس أهل النار دون النار حتى يقتص لبعضهم من بعض فيدخلون النار حين يدخلونها ولا يطلب أحد أحداً بقلامة ظفر إياه.

(١) مجمع البيان عن عاصم بن حمزة عن علي عليه السلام أنه ذكر أهل الجنة فقال: يحيون ويدخلون فإذا أساس بيوتهم من جندل اللؤلؤ وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة...

ولولا أن الله تعالى قدرها لهم لالتمعت أبصارهم لما يرون ويعانقون الأزواج ويقعدون على السرر ويقولون: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ونور الثقلين ٢: ٣١ في أصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: إذا كان يوم القيامة دعي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبأمير المؤمنين وبالأئمة من ولده عليهم السلام فينصبون للناس فإذا رأتهم شيعتهم قالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. يعني هدانا الله في ولاية أمير المؤمنين والأئمة من ولده عليهم السلام، وفيه عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة الغدير: معاشر الناس سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين وقولوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

(٢) المصدر ٣: ٨٥ - أخرج النسائي وابن أبي الدنيا وابن جرير في ذكر الموت وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ... وفي المجمع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: ما من أحد إلّا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما الكافر فيرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(٣) المصدر ٣: ٨٥ - أخرج جماعة عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال: نودوا...

ذلك، وفي رجعة أخرى إلى ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ نقول: إن الغل في صدور المؤمنين بعضهم على بعض ليس ليكون عداء لذوات المؤمنين، إنما هو غل - فيما هو حق - لأعمالهم الكليلة العليلة بالنسبة لبعضهم البعض، فحين تغل صدور لذوات الآخرين فحق أن ينزع ذلك الغل عن الصدور المغلّلة.

ثم الغل الصالح الذي يعني بغض مؤمن يستحق الغل لعمله، ذلك لا يفيد إلّا كمرتبة من مراتب النهي عن المنكر وهو ليس لينزع يوم الدنيا، ولكنه مع سائر الغل ينزع يوم الأخرى، تخليصاً لصاحب الغل عن غلّه، وتقليصاً لمورد الغل عن ذلك الغل بعذاب أم تكفير أمّا هو؟ من نزع لسبب الغل، ولكي يكونوا في الجنة إخواناً على سُرُرٍ متقابلين.

هذا ﴿وَقَالُواْ﴾ هؤلاء الأكارم بعد ما دخلوا الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾: الدخول والخلود في الجنة، ولهذا النزع للغلِّ من صدورنا، ولهذا الجري من تحتنا الأنهار، والجمع بينها لهذا المصير بذلك المسير حيث ﴿هَدَىٰنَا﴾ تعم هدى الأولى إلى الأخرى، فإن هدى الأولى هي التي تهدي إلى هُدى الأخرى الميراث العظيم ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بسبب الحق ومصاحبين الحق وحاملين الحق ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وذلك الميراث يعني أنهم سكنوا مساكنهم فيها وزيادة هي مساكن الآخرين الذين حرموا الجنة، فإن الله خلق لكلٍّ واحد من المكلفين مكاناً في الجنة ومكاناً في النار، فكلٌّ من فقد مكانه من الجنة إلى النار يرثه أهل الجنة مكانه إلى مكانه نفسه.

ذلك ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ تنظر إلى قلة الطاقة البشرية في سبيل الهدى أمام النزعات الشيطانية التي تتغلب عليها لولا أن هدانا الله.

مسرح عظيم من حوار الجنة والنار في مناداة، وبينهما رجال الأعراف،

فلنعرف من هم أولاء الأكارم وما هو ذلك الحوار المستقبل وكأنه حاضر في المشهد بكلٍّ مصارحه وملامحه؟

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

هنا مُناداة بين فريقي الجنة والنار وبعد ما وجد كلٌّ ما وعدهم الله بما يعدون، فقد يُنعم فريق الجنة بما وجده من الوعد، وجدنا حقاً ما وعدنا ربنا حقاً، حيث إن ﴿حَقّٗا﴾ ذو تعلقين اثنين، ثم يستجوبون فريق النار فلا مفلت لهم عن «نعم»[(١)]، ثم ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ من مذياع الحق بالحق وقد أصفق الفريقان أنه علي أمير المؤمنين عليه السلام[(٢)] ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

---

(١) المصدر عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف على قليب بدر من المشركين فقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فقال له الناس: أليسوا أمواتاً؟ فقال: إنهم يسمعون كما تسمعون.

(٢) في ملحقات إحقاق الحق ٣: ٣٩٢ - ٣٩٤ - أورده من حفاظ القوم ونقلة آثارهم عدة ونحن نشير إلى من وقفنا عليه، فمنهم ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (٩٥) روي عن أبي جعفر عليه السلام في ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾ [الأعراف: ٤٤] قال: هو علي عليه السلام ومثله الترمذي في مناقب مرتضوي (٦٠) عنه، والآلوسي في روح المعاني ٨: ١٠٧ عن ابن عباس مثله والشيخ سليمان القندوزي في ينابيع المودة (١٠١) روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بسنده عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام قال: أنا ذلك المؤذن، وروى الحاكم بسنده عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال علي عليه السلام: في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس، منها ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٤٤] يقول: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي.

وروي في المناقب عن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة عند انصرافه من النهروان وبلغه أن معاوية بن أبي سفيان يسبه ويقتل أصحابه فقام خطيباً - إلى أن قال -: وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة قال الله عز وجل: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٤٤] - يقول - ألا لعنة الله على القوم الظالمين - أنا ذلك المؤذن، وقال عز وجل: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [التوبة: ٣] وأنا ذلك الآذان. =

المستحقين النار، لا المعفو عنهم المستحقون الجنة، والظالمون هنا هم ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فعبارة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هنا قاصدة للعموم الموصوف بالثلاث الآتية مهما كانوا من المسلمين.

وترى كيف المؤذن هناك علي عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله وسلم فوقه محتداً وصلوحاً؟ علّه لأن له صلى الله عليه وآله وسلم المقام الأوّل وهو فوق الأذان، فلثانية بإذنه عن إذن الله أن يكون هو المؤذن، وكما كان مؤذن هذه الرسالة القدسية على هامشه صلى الله عليه وآله وسلم وكما في خطبة له عليه السلام: أنا المؤذن في الدنيا والآخرة فكما أنه المؤذن يوم الدنيا أذاناً رسالياً بعد الأذان الرسولي، كذلك هو المؤذن في الأخرى بإذن منه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو كان المؤذن هناك هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه لجيء باسمه المبارك، دون مجرد الوصف ﴿مُؤَذِّنٌۢ﴾ غير المعلوم صاحبه إلّا بسناد لمحات من القرآن كآيات الولاية ولا سيما آية شاهد منه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً...﴾[1] فإنها شاهدة لكون الإمام عليه السلام هو الشخصية الثانية بعد الأولى الرسولية، فليكن مؤذناً هناك كما هو المؤذن عنه صلى الله عليه وآله وسلم هنا.

و﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ استمرارية في ذلك الصدِّ طول حياتهم الجهنمية بما يملِكون أو يملّكون من قدرات وإمكانيات، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ بغياً عليها، ابتغاء

= وروي عن محمد بن الفضيل عن أحمد بن عمر الحلال عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: المؤذن أمير المؤمنين علي عليه السلام يؤذن أذاناً يسمع الخلائق والدليل على ذلك ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٣] قال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا ذلك الأذان.

وفيه (١٤: ٣٣٥ - ٣٣٦) مستدركا عما ذكر، ومنهم الحسكاني في شواهد التنزيل (١: ٢٠٢) وابن حسنويه في درر بحر المناقب (٨٥).

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

أنها عوج فلا تُسلك، وابتغاء أنفسهم إياها مسلكاً عوجاً، فسبيل الله هو شرعته ونهجه وهم يبتغون عنها المتحاول ويطلبون منها الفسح والمخارج ويوهمون بالشبهات أنها معوجة غير قويمة، ومضطربة غير مستقيمة!.

ولأن القرآن هو أفضل سبل الله فبغيه عوجاً هو أعضل صدٍّ عن سبيل الله، فكما أن من بغيه عوجاً الخوض في آياته لنفضها، كذلك القول:

إنه لا يفهم وليس بمتناول الأفهام، فإنه عوج في كتاب الدعوة أن يكون قاصرة الدلالة على مرادات الله تعالى.

كما منه تفسيره بالآراء أن تحمل عليه الآراء السادرة عن الصادرة عن مصادر الوحي والتنزيل.

فكلُّ مواجهة للقرآن خلاف ما يرام منه في حقل الدعوة المستقيمة الخالدة هو بغيه عوجاً.

وهنا ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في حقل تلك اللعنة التي يدخلون بها النار، هم الذين يحملون هذه الأوصاف الثلاثة أم بعضها، ابتداءً من ﴿يَصُدُّونَ﴾ وانتهاء إلى ﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ وكلٌّ من هذه دركات يستحق أصحاب دركات من العذاب حسبها ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ فهم - إذاً - في ثالوث منحوس من عمل مركوس مدسوس: صداً عن سبيل الله - وبغياً وابتغاء لها عوجاً - وكفراً بالآخرة.

وما أظلمه في ثالوثه حيث يجمع كلّ دركات الظلم والتضليل، فهم - إذاً - حملة مشاعل الضلالة، ورؤوس زوايا المتاهة والغواية.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ
أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ
أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ
رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾
أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ
وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟
عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ
فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

آيات أربع تُبيّن موقف الأعراف ورجاله، فلنتعرف إلى رجال الأعراف

وموقفهم المتميز على ضوء آيات الأعراف، تقريراً لمسيرهم، ولمصير مختلف الروايات في مثلثة التخالفات.

هنا نتلمح صُراحاً من مقاطع في هذه الآيات أن رجال الأعراف هم أعرف العرفاء بالله وأعبد العابدين لله، حيث يمثّلون أمر الله في فاصل الأعراف بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، تقريراً لمصير كلٍّ بمسيره، إذاعة من قبل الله في ذلك الموقف المجيد.

فـ ١ - ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ تعريف أول بأصحاب الأعراف، فإنها أعراف متعالية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، لا يحق أن يكون عليها إلّا الحاكمون عليهما المتكلمون بفصل القضاء فيهما من قبل الله، فكيف يكونون هم الأدنون المرجون لأمر الله؟

٢ - ثم ﴿رِجَالٌ﴾ لا تعني رجولة الجنس - فقط - بل هي مجمع كافة الرجولات في كافة حقول الفضائل والفواضل، ولو كانوا هم الأدنون المرجون لأمر الله، فالأكثرية المطلقة منهم نساء بطبيعة الحال الأنوثة، فكيف يُعبر عن هذه المجموعة التي أكثرها نساءٌ بـ ﴿رِجَالٌ﴾ دون «ناس» أما أشبه؟!.

٣ - ثم ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ تحلق معرفتهم بكلٍّ أهل الحشر، جماعياً كأصحاب الجنة وأصحاب النار، وشخصياً هو معرفة كلّ فرد فرد من الفريقين بدرجاتهم أم دركاتهم، وليست هذه المعرفة القمة الفائقة إلّا لأعرف العارفين بالله وأقرب المقربين إلى الله.

ففي حين أن الرسول ﷺ نفسه ما كان ليعرف المنافقين بسيماهم: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[1] كما و﴿عَفَا

(١) سورة محمد، الآية: ٣٠.

اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[(١)]! وهذه قضية الابتلاء في حياة التكليف! إذاً فكيف يمتاز رجال الأعراف - إن كانوا هم الأدنين - بهذه المعرفة التي تزيد على معرفة الرسول يوم الدنيا؟ إلّا أن يكون هو منهم كأفضلهم والباقون هم على هامشه.

أجل، وهذه المعرفة المتميزة عن نشأة التكليف أولاً، وعمن هم في المحشر من أصحاب الجنة وأصحاب النار، تبيّن بوضوح أن رجال الأعراف هم أعرف العارفين بالله، حتى اختصهم الله في ذلك الموقف الحاسم القاصم أن يكونوا مثله وآيته وإذاعته بين أهل الحشر كلهم.

والقول إن ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(٢)] تُحدِّد كلَّ الأبصار في ذلك اليوم، مردود بأنه حديد في إبصار أعمال كلّ حيث ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(٣)]، كما القول إن ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[(٤)] تعمم تلك المعرفة لأهل الحشر؟ فإن ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ تقرر فاعل المعرفة هذه ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أنه الأخذ الرباني بالنواصي والأقدام.

فليس هناك مجال لهذه المعرفة الشاملة كل أهل الجمع إلّا لأقرب المقربين إلى الله.

٤ - ثم ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ برهان قاطع لا مرد له على أنهم هم الأعلون في المحشر المعشر، حيث يحملون - هم - سلام الله إلى أهل الله، لمكان ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[(٥)] ولا يحمل سلام الرب الرحيم

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤١.
(٥) سورة يس، الآية: ٥٨.

إلى عباده الصالحين إلّا أصلح الصالحين الذين يمثلون أمره ويحملون القمة العليا من رسالته الربانية، ولو أنهم من المرجوين لأمر الله إذ خلطوا عملاً صالحاً وآخر شيئاً، كانت حالهم تشغلهم عمن سواهم!.

وأما ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فليست لتعني رجال الأعراف، حيث كونهم على الأعراف يعرفنا أنهم لـمّا يدخلوها، فلا مبرر - إذاً - لذلك التكرار، مع أن أقرب المرجعين المحتملين لضمير الجمع هم ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ كما ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآتية صارخة صارحة أنهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

كما وأن ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تدل على أنهم من الأذنين، فإنها دعاءٌ لأصلح الصالحين إلى من دونهم من سائر الصالحين.

وقد تعني ﴿مَعَ﴾ هنا معية المكان، ألا توقفنا ربّنا في هذا الموقف صرفاً لأبصارنا تلقاء أصحاب النار إلّا قدر واجب الحوار وتقرير المصير، ومعية الشفاعة منا لمن لا يستحقونها، ونحن غير مأذونين فيها، وأخيراً معيتهم في دخول النار تخذلاً وتذللاً لأنفسهم أمام الله كأنهم لا يستحقون الجنة فإنها قضية فضل الله ورحمته وليست قضية عدله.

٥ - ثم ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا...﴾ في ذلك التأنيب العجيب، ليست في ذلك الموقف الرهيب إلّا من ممثلين لأمر الله، المرسلين من قبل الله، في ذلك الحوار الحاسم وفي تقرير المصير.

٦ - وأخيراً ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ولا نجد أمراً لأصحاب الجنة بدخول الجنة في القرآن كلّه إلّا من قبل الله إذ ﴿يَا عِبَادِ... ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾[1] حيث يعني طليق الدخول في الجنة برزخاً وفي الآخرة.

ثم ليس إلّا من ملائكة الرحمة خطاباً للصالحين إذ يتوفونهم: ﴿سَلَامٌ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٩.

عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] وهو خاص بجنة البرزخ، ومن ثم ليس إلّا ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[٢] وقد تعني ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ ملائكة خصوصاً، أم هم رجال الأعراف، أم وهما معاً، فمن ثم خطاب وسيط بين المرحلتين هو ثاني الخطابين في المحتد، حيث يعني جنة الآخرة كما هنا:

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فمهما كان ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ الأخروية مشتركة بعد الله بين فريقي الخزنة، فـ ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ ميزة لرجال الأعراف بين كلِّ أهل الجنة.

إذاً فرجال الأعراف هم أعلى موقفاً ومحتداً من ملائكة الله، ومن كلِّ أهل الحشر دونما استثناء.

هذه تعريفات بهم في مواقفهم على الأعراف، ثم لا نجد ولا لمحة أنهم بحاجة إلى شفاعة أماهيه من مكفّرات، إنما هم: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ...﴾ بهذه المواصفات الست، المنقطعة النظير عن كلِّ بشير ونذير، اللّهم إلّا لأعرف العارفين بالله، وأعبد العابدين لله، وأقرب المقربين إلى الله، فهم الممثلون أمر الله في حوارهم هناك وفي تقرير المصير، والسّلام على أصحاب الجنة وأمرهم بدخولها، فهل هم - بعد - الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم؟ كلّا ثم كلّا.

ذلك، ولكن جواباً عن سؤال: فأين - إذاً - موقف ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[٣] و﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ...﴾[٤]؟.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

نقول: لأنهم - إذاً - ليسوا - بعد - لا من أصحاب النار ولا من أصحاب الجنة، فليكونوا في موقع من الأعراف دان، إذاً فأصحاب الأعراف اثنان هما رجال الأعراف وأصحابهم، فالأولون يذكرون في هذه الآيات أصلاء لأنهم يحملون أمر الله بحوار وسائر الأمر بين فريقي الجنة والنار، والآخرون هم على هامش أصحاب الجنة ينتظرون حيث هم مرجون لأمر الله فهم - إذاً - راجون، والشافعون لهم بعد كلِّ المكفرات هم رجال الأعراف.

فالأحاديث المفسرة لأصحاب الأعراف بأنهم الرفيق الأعلى[1] تعني

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣٢ في تفسير القمي قال الصادق عليه السلام: كلّ أمة يحاسبها إمام زمانها ويعرف الأئمة أولياءهم وأعداءهم بسيماهم وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا إلى الجنة بلا حساب ويعطوا أعداءهم كتابهم بشمالهم فيمروا إلى النار بلا حساب، وفيه عن معاني الأخبار خطبة لعلي عليه السلام وفيها يقول عليه السلام: ونحن أصحاب الأعراف أنا وعمي وأخي وابن عمي والله فالق الحب والنوى لا يلج النار لنا محب ولا يدخل النار لنا مبغض لقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ...﴾.
وفيه عن الكافي عن صفوان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء ابن الكوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ فقال: نحن على الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله عز وجل إلا بسبيل معرفتنا ونحن الأعراف يعرفنا الله عز وجل يوم القيامة على الصراط فلا يدخل الجنة إلّا من عرفنا وعرفناه ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه، وفيه عن كشف الغمة عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل فيه: فالأوصياء قوّام عليكم بين الجنة والنار، لا يدخل الجنة إلّا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه لأنهم عرفاء العباد عرفهم الله إياهم عند أخذ المواثيق عليهم بالطاعة لهم فوصفهم في كتابه فقال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ...﴾ وهم الشهداء على الناس والنبيون شهداؤهم بأخذهم لهم مواثيق العباد بالطاعة، وفي تفسير العياشي عن علي عليه السلام قال: أنا يعسوب المؤمنين وأنا أوّل السابقين وخليفة رسول رب العالمين وأنا قسيم الجنة والنار وأنا صاحب الأعراف، وفيه عن هشام عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ...﴾ ما يعني بقوله؟ قال: ألستم تعرفون عليكم عرفاً على قبائلكم لتعرفوا من فيها من صالح أو صالح؟ قلت: بلى، قال: فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلًّا بسيماهم وفيه عن زاذان عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي عليه السلام أكثر من عشر مرات: يا علي إنك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة =

الأولين، والمفسرة لهم بأنهم الفريق الأدنى[(١)] تعني الآخرين، والمفسرة لهم

= والنار، ولا يدخل الجنة إلّا من عرفكم وعرفتموه ولا يدخل النار إلّا من أنكركم وأنكرتموه، وفيه مثله عن سعد بن طريف عن أبي جعفر عليه السلام وعن الثمالي عنه عليه السلام وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: ولأهل التواضع سيماء يعرفه أهل السماء من الملائكة وأهل الأرض من العارفين قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وفي إحقاق الحق (٣: ٥٤٣) حول الآية ممن نقل نزولها في علي عليه السلام الهيثمي في الصواعق المحرقة (١٦٧) والقندوزي في ينابيع المودة (١٠٢) وفي (١٤: ٣٩٦ - ٣٩٨) ومنهم الثعلبي في الكشف والبيان (٣٥٣) وابن طلحة في مطالب السؤول في مناقب آل الرسول (١٧) والذهبي في ميزان الاعتدال (٢: ٣) والحسكاني في شواهد التنزيل (١: ١٩٨) والبدخشي في مفتاح النجا (٣٨) والشافعي في المناقب (١٥٦) والحضرمي في وسيلة المآل (١٢٢) والأمر تسري في أرجح المطالب (٨٤) والبدخشي في مفتاح النجا (مخطوط) عن علي كرم الله وجهه في الآية قال: نحن أصحاب الأعراف من عرفناه بسيماه أدخلناه الجنة.

(١) في الدر المنثور ٣: ٨٧ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: توضع الميزان يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون، أقول: أقل ما فيه أن حصر أصحاب الأعراف فيهم لا يناسب مواضع من هذه الآيات، ثم وزن السيئات ينافي ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] اللهم إلّا أن يختص بمن ليست له حسنات، وكذلك الحديث «السيئات خفة الميزان والحسنات ثقل الميزان» وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زرعة عمرو بن جرير قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحاب الأعراف فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم». وفيه أخرج البيهقي في البعث عن حذيفة أراه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ويؤمر بأهل النار إلى النار ثم يقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال لهم: «إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي». وفيه عن عبد الرحمن المزني قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحاب الأعراف فقال: «هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله ومنعهم من الجنة معصية آبائهم». أقول: معصية الآباء في القتل في سبيل الله هي من المكفّرات وكما قال الله: ﴿... وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ...﴾ [آل عِمرَان: ١٩٥]، وهذا إذا لم يكن القتال واجباً معيناً فإن فيه لا عصيان، وفي =

بأنهم الفريقان[1] تعنيهما تفسيراً للأولين وتأويلاً للآخرين، فقد تصدق هذه الثلاث إلّا ما فيها من شطرات لا تلائم القرآن.

= غير المعين يجبر العصيان بالشهادة. وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار حتى تذبل لحومهم وشحومهم حتى يفرغ الله من حساب الخلائق فإذا فرغ من حساب خلقه فلم يبق غيرهم تغمدهم منه برحمة فأدخلهم الجنة برحمته، ورواه مثله معنوياً أبو هريرة وعبد الله بن مالك الهلالي عن أبيه وابن عباس ومحمد بن المنكدر عن رجل من مزينة عنه ﷺ، وفيه أخرج البيهقي في البعث عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم فقال: «على الأعراف وليسوا في الجنة وليسوا مع أمة محمد ﷺ فسألناه وما الأعراف؟ قال: حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار» أقول: هذا خلاف الضرورة القرآنية في عدم التفرقة بين الجنة والناس وسائر المكلفين في الجزاء الوفاق، وعلى أية حال فهذه الأحاديث لا توافق القرآن في مواضيع عدة.

ومن طريق أصحابنا في نور الثقلين ٢ : ٣٤ عن أصول الكافي بسند متصل عن حمزة بن الطيار قال لي أبو عبد الله عليه السلام: الناس على ستة أقسام، قال قلت: تأذن لي أن أكتبها؟ قال: نعم قلت: ما أكتب، قال: اكتب: أصحاب الأعراف، قال قلت: وما أصحاب الأعراف؟ قال: «قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فإن أدخلهم النار فبذنوبهم وان أدخلهم الجنة فبرحمته».

أقول: قضية ذلك الاستواء تكفير الذنوب وإن بدخول النار ردحاً من الزمن ثم دخول الجنة بحسناتهم، اللهم إلّا أن تعني مكوث الأعراف غفر سيئاتهم دون عذاب. وفيه عن القمي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: أقبل علي فقال لي: ما تقول في أصحاب الأعراف؟ فقلت: ما هم إلّا مؤمنين أو كافرين، إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون وإن دخلوا النار فهم كافرون، فقال: والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين، ولو كانوا مؤمنين لدخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون ولكنهم قد استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم الآمال وإنهم لكما قال الله عزّ وجلّ، فقلت: أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار؟ فقال: أتركهم حيث تركهم الله، قلت: أفنرجئهم؟ قال: نعم أرجئهم كما أرجأهم الله، إن شاء أدخلهم الجنة برحمته وإن شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم ولم يظلمهم، فقلت: هل يدخل الجنة كافر؟ قال: لا، قلت: فهل يدخل النار إلّا كافر؟ قال: فقال: لا إلّا أن يشاء الله، يا زرارة إنني أقول ما شاء الله، وأنت لا تقول ما شاء الله، أما إنك إن كبرت رجعت وتحللت عنك عقدك.

(١) في المجمع قال أبو عبد الله عليه السلام: الأعراف كثبان بين الجنة والنار يوقف عليها كلّ نبي =

ذلك، وإلى تفصيل لكلٍّ مقاطع الآيات الأربع بشأن رجال الأعراف وأصحاب الجنة والنار:

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ بين الجنة والنار، أو بين أصحاب الجنة والنار وهو الأظهر قضية ذكرهم من ذي قبل أم هما معنيان معاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ علـه سور لـه بـاب: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ . . .﴾[1].

فـ ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ هي أعراف الحجاب بينهما، والحجاب هو السور المضروب بينهما، وهو بطبيعة الحال باطنه - وهو جانب أصحاب الجنة - فيه الرحمة، وظاهره - وهو جانب أصحاب النار - من قبله العذاب.

وهنا بجانبي السور الحجاب حوار بين أهل الجنة والنار، وحوار لرجال الأعراف مع الفريقين بتقرير المصير بعد بيان المسير.

﴿وَنَادَوْا۟﴾ رجال الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلاماً قبل دخول الجنة إذ ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾: أن يدخلوها.

= وكل خليفة مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده وقد سبق المحسنون إلى الجنة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا فيسلم عليهم المذنبون وذلك قوله: ونادى أصحاب الأعراف. . ثم أخبر سبحانه أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلهم الله بشفاعة النبي والإمام وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين - ثم ينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء رجالاً من أهل النار مقرعين لهم ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٨-٤٩] - يعني أهؤلاء المستضعفين كنتم تستضعفونهم وتحتقرونهم بفقرهم وتستطيلون بدنياكم عليهم ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله بذلك لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩] وروى القمي في تفسيره عنه عليه السلام ما يقرب منه عنه عليه السلام.

(١) سورة الحديد، الآيتان: ١٣، ١٤.

وترى كيف ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ دون «يوقنون» وهم ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ حسب النص؟

إنهم ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ حيث هم مسيرهم الجنة بعد عفو الله وغفره وبمنّه وحنانه، فـ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بشارة لهم من رب العزة ولمّا يدخلوها، أم ولمّا يعلموا أنهم من أصحابها، فلأنهم درجات حسب درجات إيمانهم وعمل الصالحات، فالحالة الهالة العامة لهم هي ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ رجاء تكفير سيئاتهم دون عذاب، وحتى إذا بشروا بالجنة وهم يعلمون، فهم - بعد - بين الخوف والرجاء، خوف من قصورات لهم وتقصيرات، وأنهم مهما كانوا صالحين دون تقصير فلا يستحقون الجنة بأعمالهم، اللهم إلّا برجاء الرحمة الربانية، إذا ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾.

ذلك وقد تأتي ﴿يَطۡمَعُونَ﴾ في مورد العلم تذللاً وتطامناً أمام رب العزة وكما قال إبراهيم:

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾(١) وكذلك الذين اتبعوه من النصارى المؤمنين بهذه الرسالة السامية: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾(٢).

وكذلك السحرة المؤمنون أفضل إيمان من أعضل كفر وأرذله: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣) وفي هذه الآية المرحومة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾(٤).

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٨٣، ٨٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٥١.
(٤) سورة السجدة، الآية: ١٦.

فالطمع الصالح لدخول الجنة هو للصالحين مهما كانوا من المعصومين كإبراهيم، فضلاً عن كلٍّ أصحاب الجنة حيث هم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قبل صدور الأمر الذي يحمله رجال الأعراف بـ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

هنا ﴿صُرِفَتْ﴾ دون «صرفوا» تلمح بانصرافهم تلقاء أصحاب النار دون صرف منهم باختيار، فإنما هو صرف رباني وأمرٌ من ساحة العزة أن يصرفوا أبصارهم تلقاء أصحاب النار لواجب تقرير المصير بواجب الحوار.

وهنا حيث يفاجؤون برؤية هؤلاء الظالمين ابتدروا بدعاء: ﴿رِجَالٌ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الذي ربانا بهذه التربية القمة العالية المرموقة: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ لا في الجنة ولا في النار، فالظالمون الذين لا يستحقون الجنة، لا تجعلهم فيها معنا، ولا تجعلنا معهم أولاء في النار، ولا تجعلنا مع المحكومين بالنار في شفاعة لهم، ولا تجعلنا معهم قبل دخول الجنة والنار، أكثر من قدر الحوار وتقرير المصير.

فالمعية بين رجال الأعراف وأصحاب النار في أية مرحلة - إلّا الحاسمة القاسمة بينهم - هي معية بعيدة عن الرحمة، مهما لم تكن فيها زحمة العذاب، فلو دخلنا النار بعذاب لهم ولنا دون عذاب، فحق لك يا رب إذ لا نستحق نحن الثواب مهما لا نستحق العقاب، فإلى المفاصلة التامة الطامة بيننا وبين الظالمين الذين لا يستحقون الجنة، وحتى إذا دخلوا الجنة باستحقاق بعد ذوق عذاب مستحق، متخلصين عن أعباء الظلامات، فقضية مختلف الدرجات ألا تجعلهم معنا في مقامنا في الجنة، مهما ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾[1]!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

ولكن فلنكن في مقامنا كما نستحق، وهم كما يستحقون في أماكن ومكانات، في الأصل وبمعرفة أصحاب الجنة.

فقد تطلبوا في ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سدّ هذه الأبواب السبعة من المعيات المعنيات من ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ذلك، وقد يلمح ضمير الجمع - الجائز الرجوع هنا إلى أصحاب الجنة لأنهم الأقربون مرجعاً، والرجوع إلى أصحاب الأعراف لأنهم الأقربون موقعاً، فإنهم محور الكلام هنا - يلمح بعناية أصحاب الجنة مع أصحاب النار، فلئن كان القصد إلى خصوص أصحاب الأعراف لذكروا كما يذكرون في التالي: ونادى أصحاب الأعراف، وذلك في تفسير الظاهر، ثم في التأويل يعني معهم الأدنون في الأعراف، فهذا الدعاء هو طبيعة الحال في الفِرَق الثلاث، مهما كان للآخرين رجاء باحتمال النجاة، وللأوسطين أرجى، ولأصحاب الأعراف فوق الرجاء، ولكلٍّ في هذا الدعاء موقع يناسبه، في نفسه وباختلاف دركات المعيات المعنية من ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ألا تجعلنا معهم، سواء فيما يجوز عدلاً أما لا يجوز.

فجعلهم كلّهم مع القوم الظالمين في عذاب النار أم في مقامات الجنة بعد ما ذاقوا عذاب النار فاستحقوا دخول الجنة كبعضهم، ذلك خلاف العدل، فالدعاء بالنسبة لمعيتهم يصبح كـ ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾(١) فإنه صِرفُ الالتجاء في الدعاء، وكما يلحّق هنا ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٢).

وأما جعلهم معهم في المحشر أكثر من تكملة الحساب والحوار، أم بقاء الترائي بعد الدخول في الجنة والنار، أم دخولهم مع أصحاب النار في

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١١٢.

النار دون أن يشاركوهم في عذابهم، أم دخول هؤلاء معهم في الجنة دون أن يشاركوهم في ثوابهم أماذا من خلاف الفضل، فليس من خلاف العدل.

والدعاء على أية حال لا يعني جواز عدم تحقق المدعو به لولا الدعاء كالحق في ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بل هو تعلق بالله وتذلل أمام الله، وأن حكمه حق على أية حال وإن كان في ظاهر الأمر غير حق حيث لا يلائمنا.

وذلك أدب الدعاء في كافة الأحوال، وحتى إذا كان الداعي في حال وقوع المدعو به فضلاً عما قبله.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

هذه الرسالة الغالية أن يكونوا مذيعين لفصل الحكم من رب العالمين، إنها منقبة لا تُسامى بسواها ولا تُساوى، ثم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ هي رسالتهم الأخيرة حيث أمروا بأمر الله أن يخاطبوا أصحاب الجنة بدخولها.

إذاً فمناداة أصحاب الجنة والنار هي قبل الدخول فيهما، وهي مواقف العالين من رجال الأعراف حسم الموقف، ثم هم يدخلون الجنة ومعهم قسم من الأدنيين الذين هم معهم ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾.

ذلك ومما يؤيد أصالة القصد الى أعالي رجال الأعراف دون الأداني، أن الآخرين غير محصورين في الرجال، بل ونساؤهم أكثر من رجالهم، وأما الأولون فهم بطبيعة الحال رجال كالمعصومين المحمديين عليهم السلام، وأما فاطمة الصديقة فقد تكون منهم كما في ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ. . .﴾(١)

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

أم هي غير مشاركة معهم لمكان أنوثتها، وعلى أية حال فخصوص القصد من رجال الأعراف الأدنين مرفوض.

كما ولا تعني «رجال» الملائكة إذ لا نساء فيهم، وهم يقابلون نساء من جنسهم، مهما عنت رجالاً من الجن على هامش رجال من الإنس كرسل منهم عالين، حاكمين على قبيلهم، أم لهم بين فريقي أصحاب الجنة وأصحاب النار من الجن.

ثم مكانهم المتميز ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ ومعرفتهم المتميزة أصحاب الجنة وأصحاب النار لحدٍّ يعرفون المستكبرين من أهل النار بينهم، لا فقط معرفة إجمالية بسيماهم المعروف لدى الكل حيث هنا ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾[1]، وهناك ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أي كلٍّ واحد من آحاد الفريقين، لا - فقط - كلاًّ من الفريقين، تثبت لهم معرفة قمة متميزة بسيما كل واحد منهم، حيطة معرفية بما عرفهم الله ليحكموا هناك بما يحكم الله.

هذا التميز وذلك هما مما يميّزهم عن كلٍّ أصحاب الجنة، فهم محمد ﷺ والمحمديون من عترته عليهم السلام، المتميّزون على كافة السابقين والمقربين وأصحاب اليمين.

فرجال الأعراف حيث يكلمون كلا الفريقين بما يكلمون هم الشهداء المخصوصون بالكرامة في مسرح ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾[2] فهم مأذونون بإذن خاص بكلٍّ إخلاص حتى يكلموا أهل الحشر أجمع بما يشاء الله ويرضى، أفهم بعد من الأدنين وليس للعوان بينهم وبين العالمين ذلك النصب المتميز يوم الدين.

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٨-٤١.
(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

كلّ ذلك، إضافة إلى أنا لا نتلمح أية فزعة وهول لهم في أعرافهم، في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، والهول شامل ذلك اليوم كلّ أهل الحشر ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[1] - ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[2]!.

إذاً فقد لا تشمل رجال الأعراف في ظاهر التفسير إلّا أقرب المقربين وأسبق السابقين، دون الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فلا هم - بالفعل - من أهل الجنة ولا أهل النار، - اللهم إلّا تأويلاً أنهم على هوامشهم - ثم ولا صراحة هنا ولا لمحة أن رجال الأعراف يتطلبون إلى الله السماح، فإنما هو الحكمية بين الفريقين والحكم بدخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار.

إذاً فعساكر البراهين القرآنية في آيات الأعراف وسواها تقرر موقفاً حاسماً لرجالها لا يناسب كل المعصومين فضلاً عن الأدنين من المؤمنين، فلا يُصغى إلى أحاديث الأدنين تفسيراً، إلّا تأويلاً.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ معرفة متميزة عن كلِّ أصحاب الجنة فضلاً عن أصحاب النار، و﴿رِجَالًا﴾ هنا هم رجال متميزون بسيماهم من أصحاب النار فـ ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أموالاً وأولاداً وسائر الجموع المحتشدة حصولاً على العزة والقوة، «و» لا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ بجمعكم على الله وعلى عباد الله ورسله.

﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ الأكارم من أصحاب الجنة ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠١-١٠٣.

كأنكم أنتم أصحاب الرحمة دونهم، أم هم وإياكم سواء في العذاب؟! كلّا، بل: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ أنتم الصلحاء ﴿ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

أجل هؤلاء رجال الأعراف، فمكانهم في المحشر ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ أعراف الحجاب والسور المضروب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، ومكانتهم أنهم رسل من الله في ذلك الموقف الحاسم. رسل شهود في معرفة كلّ بسيماهم، يشاهدون كلّ نفس خيرة وشريرة في مقامها الخاص من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، ورسل قضات في تعيين المقامات هناك، ثم هم خارجون عن القبيلين إذ لا محاسبة لهم لدخول الجنة، وهم المؤمّرون أن يأمروا أصحاب الجنة لدخول الجنة كما أن مؤذنهم يؤمر بذلك الأذان، رسالة ربانية عالية، مما تدل على أنهم هم الأعلون في تلك العرصات.

ذلك «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاء على عباده ولا يدخل الجنة إلّا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه»[1].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾:

حِوار بين أهل الجنة والنار في دار القرار، يوم التناد، يُخيّل فيها إلى أهل النار أن لأهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله كما كانت هناك إفاضة في دار الفرار، فإذا هم مفاجؤون بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تحريماً بحريم الاضطرار دون اختيار، إذ مضى يوم التكليف الاختيار، ولات حين فرار، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾:

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٤٢ / ٢٥٦ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

اتخذوا طاعتهم الحقة وهي الدين الحق ﴿لَهْوًا﴾ يلتهون به حيث يلهيهم عما يُعنى لهم ﴿وَلَعِبًا﴾ به يلعبون حيث كانوا به يستهزئون، فاتخذوا دينهم: الطاعة، مخلداً إلى أرض الشهوات، فلا يطيعون - إذاً - إلّا لهواً ولعباً ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بما انغروا بها حيث أبصروا إليها فأعمتهم ولم يبصروا بها لتبصّرهم ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نعاملهم معاملة الناسي إياهم على علمنا بهم، تحريماً عليهم ما يقدم للضيفان من النعم ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ عامدين لاهين لاعبين، وكـ ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فنحن نجحدهم كما جحدوا، وننساهم كما نسوا جزاءً وفاقاً.

ذلك كيف لا يشغلهم ما هم فيه من النار عن الماء وسائر رزق الله؟ حيث الماء يُخفّف عن حرِّ النار وسائر رزق الله يسدّ عن الجوع، والعطش والجوع هما مما لا ينسيان في أية ملابسات[1].

وفي تقدُّم ﴿ٱلْمَآءِ﴾ على ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ذكراً تقدم له على سائر رزق الله واقعاً حيوياً فللماء دور دائر في الحياة ليس لسائر رزق الله، وقد

(١) نور الثقلين ٢: ٣٦ في كتاب الاحتجاج عن عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال: حج هشام بن عبد الملك فدخل المسجد الحرام متكياً على يد سالم مولاه ومحمد بن علي بن الحسين صلوات الله عليهم جالس في المسجد فقال له سالم: يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي بن الحسين، فقال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم، قال: اذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: يحشر الناس على مثل قرصة النقي فيها أنهار منفجرة يأكلون ويشربون حتى يفرغ الناس من الحساب، قال: فرأى هشام أنه قد ظفر به فقال: الله أكبر اذهب إليه فقل له: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: هم في النار أشغل ولم يشتغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فسكت هشام لا يرجع كلاماً.

وفيه في تفسير العياشي عن أحدهما عليهما السلام قال: «إن أهل النار يموتون عطاشاً ويدخلون قبورهم عطاشاً ويدخلون جهنم عطاشاً فترفع لهم قراباتهم من الجنة فيقولون: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة سقي الماء»(٢).

ذلك، ولأن الغرور هو إظهار النصح واستبطان الغش وهما من فعل المختار، فتراه كيف ينسب إلى الحياة الدنيا وليست هي مختارة؟

والجواب أن الحياة الدنيا هي حياة الإنسان فيها دون نفسها، فالغرور - إذاً - هو من فعل الإنسان حيث ينظر إلى الدنيا فينغر بها، ولا ينظر بها فيبصّر، فالحياة الدنيا هي بطبيعها حياة الغرور: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٣).

ثم النسيان من الله هو تناسي العارف وكما هم تناسوا عارفين، فلقد تناسوا لقاء يومهم هذا عارفين، فالله يتناساهم عن رحمته عارفاً فلا يفيض عليهم منها إلّا عذاباً مهيناً.

و«دينهم» كما لمّحنا تعم الدين الحق فطرياً وعقلياً وشرعياً حيث اتخذوه لهواً يعرضون عنه، ولعباً يلعبون به ويستهزئون، والدين الباطل وهو الشهوة المطاعة، توغلاً في اللهو واللعب: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) الدر المنثور ٣: ٨٩٠ عن ابن عباس أنه سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: . . . ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

وهكذا ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾(١) فمهما كانت المشتهيات مشتركة بين قبيلي الإيمان والكفر يوم الدنيا فهي خاصة بالمؤمنين يوم الدين: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾(٢).

وحقاً أقول: «ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت، ولقد كاشفتك العِظات، وآذنتك على سواء، ولَهِي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، والنقص في قوتك، أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرَّك، ولرب ناصح لها عندك متَّهم، وصادق من خبرها مكذَّب، ولئن تعرَّفتها في الديار الخاوية، والربوع الخالية، لتجدنها من حسن تذكيرك، وبلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك، والشحيح بك، ولنعم دارُ من لم يرض بها داراً، ومحل من لم يوطِّنها محلاً، وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم»(٣).

فيا أيها الإنسان ما جرّأك على ذنبك، وما غرَّك بربك، وما آنسك بهلكة نفسك، أما من داءك بُلول، أم ليس من نومك يقَظَة، أما ترحم من نفسك ما ترحم به غيرك، فلربّما ترى الضاحي من حرّ الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يُمضُّ جسده فتبكي رحمة له، فما صبّرك على دائك، وجلّدك بُمصابك، وعزّاك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك، وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته، فتداوَ من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كبرى الغفلة في ناظرك بيقظة، وكن لله مطيعاً، وبذكره آنساً، وتمثل في حال توليّك عنه إقباله عليك يدعوك إلى عفوه، ويتغمدك بفضله، وأنت متولّ عنه إلى غيره -.

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) (الخطبة ٢١٤).

فتعالى من قوي ما أكرمه، وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته، وأنت في كنف ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضله، ولم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مَطرف عين في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته، وايمُ الله لو أن هذه الصفة كانت في متفقَين في القوة، متوازنَين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق ومساوئ الأعمال -.

إذاً فـ«كونوا» عن الدنيا نُزّاهاً، وإلى الآخرة وُلّاهاً، ولا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا، ولا تَشيموا بارقها، ولا تسمعوا ناطقها، ولا تجيبوا ناعقها، ولا تستضيئوا بإشراقها، ولا تُفتنوا بأعلاقها، فإن برقَها خالب، ونطقها كاذب، وأموالها محروبة، وأعلاقها مسلوبة، ألا وهي المتصدية العَنون، والجامحة الحرون، والمائنة الخؤون، والجَحود الكنود، والعَنود الصَّدود، والحَيود المَنود، حالها انتقال، ووطأتها زلزال، وعزها ذُل، وجدها هزل، وعُلوها سُفل، دار حَرْب وسَلْب، ونَهْب وعَطَب، أهلها على ساق وسياق، ولِحاق وفِراق، قد تحرت مذاهبها، وأعجزت مهاربها، وخابت مطالبُها، فأسلمتهم المعاقل، ولفظتهم المنازل، وأعيتهم المحاول، فمن ناج معقور، ولحم مجزور، وشلوٍ مذبوح، ودم مسفوح، وغاضّ على يديه، وصافق بكفيه، ومرتفقٍ بخديه، وزارٍ على رأيه، وراجع عن عزمه، وقد أدبرت الحيلة، وأقبلت الغِيلة، ولات حين مناص، هيهات هيهات قد فات ما فات، وذهب ما ذهب، ومضت الدنيا لحالِ بالِها ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾:

---

(١) (الخطبة ٢٣٣).

لقد تمت الحجة عليهم يوم الدنيا إذ ﴿جِئْنَٰهُم﴾ بجمعية صفات الهدى ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: قرآن ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ تفصيلاً لكلِّ شيء ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّا رباني يحلق على كلِّ شيء، حال كون الكتاب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم أولئك الذين حالتهم حالة الإيمان بالحق المرام وإن كانوا لمّا يؤمنوا حيث لم تصلهم دلائل الإيمان، فهم مؤمنون فطرياً وعقلياً، وهم ناظرون دلائل كامل الإيمان شرعياً، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)].

ذلك، وهنا ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ إضافة إلى ما فيها من مثلث التأكيدات بحرفي التأكيد وجمعية الصفات، نجد في مفعولية «هم» لـ«جئنا» تقديراً للجار، كأنه سبحانه جاء إليهم ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ والباء قد تعني كلا المعية والسببية: جئنا إليهم بسبب الكتاب، ومصاحبين الكتاب، ومثلها: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[(٢)] - و﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[(٣)].

فلقد كان في نزول القرآن مجيئاً لرب العالمين إلى كافة المكلفين حيث يدل بنفسه على الله بتوحيده وصفاته وأفعاله، وكأنه جاءهم بنفسه.

فلو أنه أراهم نفسه لم يزدهم معرفة على ما عرفهم إياه بكتابه، ولذلك أصبح شاهداً لنفسه رباً، ولرسوله رسالة، ولكلِّ ما أراده منهم دلالة باهرة جاهرة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾[(٤)] ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٨.
(٤) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥١، ٥٢.

بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[١]. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[٣].

ذلك، فقد يُزيل القرآن كلَّ حجاب بيننا وبين ربنا معرفياً إلّا المستحيل زواله وهو حجاب الذات وحقيقة الأفعال والصفات، فلم يبق في الدور إلّا ذلك المثلث الذي ليس ليزول على أية حال!.

ذلك، ثم ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ تفصيلاً يُزيل كافة الغشاوات عن وجه الحق المرام، فلا خفاء لما فصله، حيث فصله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بتفصيله، وعلم بالمكلفين، وعلم بتصاريف الكلام، وعلم بالحق المُرام وما يحتاجه الأنام ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤]!.

فهل يُفترى بعدُ على الله أنه أغمض في كتابه، وأعضل فيه لحدٍّ لا يفهم إلّا بالحديث، ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فـ «قوم يؤمنون» هم الذين يعرفون تفصيله، استنباطاً لمرادات الله، من منشورِ ولاية الله كما أمر الله، فإنه السبب الوحيد الوطيد، الوتيد على أعماق الفطر والعقول والقلوب، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

فكما أن معادن كتاب التكوين مختلفة الوصول إليها والحصول عليها حسب اختلاف المساعي، كذلك كتاب التدوين، فإن لكلٍّ من حقائقه المخزونة قدر سعيه ووعيه، دونما بخل وعضل في دلالة الكتاب نفسه على ما يرام.

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٦.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

فالبخيل - إذاً - هو الذي جعله مهجوراً فمحجوزاً، يتكلم ضدّه أنه ليس ليفهم إلّا بوسائل هي مغيّبة في زمن التكليف إلّا قليلاً!.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هؤلاء الكفار وينتظرون بعد كتاب مفصل على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون، ينتظرون حجة أخرى بعده وهو الحجة البالغة الربانية بنوره وهداه ورحمته، وفيه الكفاءة لمن يتحرى عن الهدى، فاتحاً منافذ إدراكه لتلقي الحق المُرام.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ إذ لم يبق انتظار بعد كامل حجته وشاملها إلّا تأويله، وليس العلم بتأويل القرآن شرطاً لبالغ حجته، فإن فيه الكفاءة التامة الطامة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

ذلك، والتأويل في الأصل هو الإرجاع إلى مبدأ أو منتهى خارجين عن نص المأوّل وظاهره، وللقرآن تأويلان اثنان، تأويل المبدأ وتأويل المعاد، وهو بين المبدأ والمعاد حجة بظاهره وباطنه في إشارات ولطائف وحقائق يمكن الحصول عليها بحجته الظاهرة الباهرة، فتأويل المبدأ هو المأخذ في أصل القرآن وفصله أحكاماً وإنباءات أخرى، وتأويل المعاد هو واقع الأنباء المسرودة فيه، والتأويل المنتظر هنا هو الآتي في البرزخ برزخاً وفي المعاد

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥١، ٥٢.

واقعاً مفصلاً دون إبقاء، أم وتأويل علمي مبدأً حيث يظهر بعد الموت ما يمكن أن يظهر، وكذلك تأويل الأعمال ظهوراً بحقائقها، ثم تأوّلا إلى جزائها الوفاق.

وفي رجعة أخرى إلى الآيتين ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ تجتث كافة الانتظارات من كافة المنتظرات في حقل الحجج الربانية بعد نزول الحجة البالغة القرآنية، اللّهم إلّا انتظار المستحيل بحقهم وهو ﴿تَأۡوِيلِهِۦ﴾ حيث ينقسم إلى مستحيل بحق الكلّ كالتأويل الخاص بالله، والمستحيل بحق غير الراسخين في العلم كمبادئ الأحكام، فإن العلم بها يخصهم، وهم المستنبطون منها السنة على هامش الكتاب.

ذلك، فكما من المنتظَرات المستحيلة الذاتية ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾(١) - والمستحيلة بحقهم ﴿أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾(٢) قبل أجلهم.

كذلك ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ حيث المنتظر لهم بين مستحيل ذاتي كالتأويل الخاص بالله حيث يحرم عن علمه الأقربون فضلاً عنهم، ومستحيل نسبي وقتي كالتأويل الخاص بأقرب المقربين في دور التكليف.

فانتظار معرفة التأويل مبدءاً ومعاداً كواقع الحجة الطليقة، بعد حجة القرآن البالغة، هو انتظار قاحل جاهل، فواقع التأويل للقرآن وعلمه قبل الموت، ليس واقعاً لهم أولاء إذ تمت الحجة البالغة الدامغة بالقرآن ف ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ. . .﴾؟.

ولم يأت التأويل في القرآن إلّا بمعنى الأول الرجوع لمتوسط الحق قرآناً وسواه، إلى مبدئه ومنتهاه، وكيف ينظرون تأويله وهم - بعد - لم يبلغوا إلى متوسط من تفهم ذلك الوسيط بين تأويليه؟!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

ثم للتأويل إجمال وتفصيل، فإجماله معروف من ظاهره الحاضر لمن ألقى السمع وهو شهيد، فقد يعرف من القرآن نفسه مبدءه وهو الله، ومعاده وهو يوم الله، وكما يعرف منه كافة الحقائق المقصودة في نشأة التكليف.

وتفصيله غير معروف إلّا لمن يحيط به علماً ومعرفة يقينية بعين اليقين وحقه، اللهم إلّا ما اختص به الله من معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وسائر العلم المخصوص بساحته القدسية المتعالية، وحجته البالغة الكافية هي وراء تأويله علمياً وعينياً، فإن دورهما آتٍ بعد الموت، اللهم إلّا للمعصومين قدر ما قدره الله.

وقد يكفي للتصديق بأمر، علم به، دون حيطة شاملة كما نعرف الله ولا نحيط به علماً ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

فـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ تنديد بهم شديد أنهم ناظرون واقع نبأ القرآن حتى يؤمنوا به وهو نبأ عظيم يدل على صدقه نفسه بكلٍّ بيناته الصادقة للذين يؤمنون.

و﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هنا لمن ينتظر التأويل هو نظرة الانتظار، ثم لمن لا ينتظر بشأنه أي شيء لا حاضراً ولا تأويلاً هو واقع الانتظار، حيث ينتظرهم تأويله مهما كانوا هم غير ناظريه، وذلك كالذي كان لآل فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾(٢) فنظر الانتظار لهم ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(٣) وواقعه الذي ينتظرهم وهو غير ناظرين له ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨.
(٣) سورة القصص، الآية: ٩.

ذلك، وتنديد آخر بتهديد ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ نسيان التناسي لأصله المفصل وتأويله المجمل حيث تعني ﴿نَسُوهُ﴾ كليهما، أم هو يوم التأويل لكافة المكلفين، ويوم القرآن بتأويله لأهله الخصوص، ومن الشاهد على طليق التأويل ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فقد نسوا من ذي قبل لقاء يومهم هذا، سواء أكانوا في زمن الشرعة القرآنية أم سواه من زمن الرسالات.

إذاً فـ ﴿نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ تعني نسيان يومهم هذا المدلول عليه بكافة البراهين الآفاقية والأنفسية، تكوينية وتشريعية، ولا سيما المدلول عليه بالقرآن العظيم الذي هو مهيمن على كتابات الوحي ورسالاته كلّها.

يقولون هذه القولة الخاسرة الحاسرة ثم يتساءلون عما قد ينجيهم من عذاب يومئذ: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ كما كنا نظن من ذي قبل أن «هؤلاء شفعاءنا عند الله - ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾»(١).

﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى حياة التكليف ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ عمل العقيدة الصالحة والعمل الصالح، فإن طليق العمل يشمل كلّ عمل بجانحة أم جارحة، والأولى أولى بكونها عملاً لأنها منشأ سائر العمل، ثم ولا يفيدهم عمل دون إيمان فكيف يترجونه في رجوعهم المستدعى؟!.

أجل ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ تعني غياراً كاملاً فيها، كافلاً للفلاح يوم التأويل: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(٢) ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [١] ، ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [٢] .

ولكنهم ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بما نسوا لقاء يومهم هذا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ على الله من شركاء وشفعاء وما أشبه من فرية على الله أو على رسل الله ورسالاته.

ذلك، وقد تدل هذه الآية بعشرات من أمثالها على واقع الاختيار للمكلفين، وإلّا فلماذا يتطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا، وإلى عدم التكليف يوم الدين، وإلّا لكانوا يجبرون ما فاتهم فيعملون غير الذي كانوا يعملون في الأخرى، دون تكلّف للارتجاع إلى الحياة الأولى.

ذلك، ومن تأويل المبدأ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [٣] ومن المرجع: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [٤] ثم لم يأت التأويل لذلك المعنى الشهير العليل، أنه تفسير لنص أو ظاهر مستقر بخلافه نقيضاً أو ضدّاً، لا في القرآن ولا في اللغة حيث هو من الأول الرجوع، ولا يرجع أي كائن في مثلث الزمان إلّا إلى مبدئه أو منتهاه حتى يتبيّن أصله وفصله دون خفاء.

ذلك هو التأويل، وأما التفصيل في «فصلناه» وهو ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنما هو التفصيل البيان التبيان دون أي خفاء ذاتي دلالي للقرآن في أبعاد العبارة والإشارة واللطائف، ولكلّ نصيب مما كسبوا في ميادين المعرفة القرآنية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [٥] .

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٧.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

أجل إنه تفصيل فيه تحصيل لكلٍّ المحاصيل المعنية بالقرآن دون أي خفاء مهما كان فيه من العناء، دون عزل ولا عضل لطائر الفكر الإنساني، الجائل في مجالات الذكر الحكيم.

ذلك، فليس فيه شك ولا ريب ولا عضال وصُدود ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] - ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا . . .﴾[٣].

فكما أن سائر الآيات المعجزات هي مفصلات غير مبهمات كـ ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[٤].

كذلك وبأحرى القرآن هو آيات مفصلات، مهما بانت مفصلات عن مفصلات بين الأرض والسماء، حيث المفصلات القرآنية خالدات تعيش مع الزمن دونما فتور أو قصور، وسائر الآيات فاترات عمن يعيشون بعدها، قاصرات الوصول إليهم، مستحيلات الوصول إليها بعد تقضّيها.

ذلك! و﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو نسيان القرآن، دراسة ومراسة وحراسة، ثم نسيان تأويل القرآن إيماناً أن له تأويلاً ككلّ، ثم نسيان تأويله الخاص بيوم القيامة، والكل معني بعناية الإطلاق.

وترى ﴿نَسُوهُ﴾ لا تشمل هؤلاء الذين ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[٥] فهل نسيت ﴿نَسُوهُ﴾ قسماً ممن نسوه لأنهم مسلمون؟ ومحور التنديد ليس إلّا ﴿نَسُوهُ﴾!.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

فكما ينّدد بالذين نسوا الله قدر ما نسوه، كذلك التنديد بالذين نسوا القرآن قدر ما نسوه، بل التنديد بهم أشد، والاستنكار عليهم آكد! حيث لا يرجى ممن آمن بالقرآن ذلك النسيان!.

فالناسون القرآن ككلّ، هم ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1] - ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾[2].

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٨.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا
تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ
قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ
ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا
يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

هنا تعريف بتأويل المبدأ للقرآن وإلى معاده وكما القرآن كله تعريف عريف بالمبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد والله على كلِّ شيء شهيد[1].

(١) الدر المنثور ٣: ٩٠ - أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه عن الحسن بن علي عليه السلام قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية أن يعصمه الله من كلّ سلطان ظالم ومن كلّ شيطان مريد ومن كلّ سبعٍ ضارٍ ومن كلّ لص عاد، آية الكرسي وثلاث آيات من =

و﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ تعريف به تعالى بكامل ربوبيته، رغم الزعم أنها مختصة بأصل الخلق دون التدبير، ولقد فصلنا القول حول خلق السماوات والأرض في ستة أيام بطيات آياتها ولا سيما في «فصلت والنازعات والبقرة» وهنا الاستواء على العرش هو الإحاطة على عرش القدرة والتدبير بعد خلقهما، وإن كان الله على كلِّ شيء قديراً ولكن فعلة فعلته القدرة والتدبير ليست إلّا بعد فعلية المقدور والمدبّر، وحاقة البحث عن العرش تجدها في عرش الحاقة وما أشبه كآية الكرسي وسواها.

وهنا ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يعني إغشاء الليل النهار قصداً إلى الظلمة الطارئة على الجو، يطلبه حثيثاً في هذه الدورة الدائبة الدائرة، فدور الليل تطلب النهار في هذا الفلك الدوار.

فالنهار هنا هو الجوّ - المظلم بطبيعة الحال - الذي طرأه الضوء، فإغشاء الليل النهار هو طريان الظلمة على جوّ النور، ومما تشبهها ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[1] فإن سلخ النهار من الليل هو سلخ الضوء من أفقه الخاص الذي هو مظلم لولا الضوء، فالليل والنهار هما عارضان على الجوّ، ولولا الجوّ فلا ليل ولا نهار، كما لولا الوجود فلا أزلية ولا حدوث، ثم الليل الظلمة مخلوق مع الجوّ ذاتياً والنهار النور مخلوق بعد الجوّ عرضياً، فسلخ النهار من الليل لمحة إلى عرضية النهار على الجوّ المظلم بطبيعة الحال، وإغشاء الليل النهار إشارة إلى زوال النهار بزوال الشمس، فـ ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ هو رجوع الجوّ إلى حالته الأصلية الطبيعية.

= الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ . . .﴾ [الأعراف: ٥٤] وعشراً من أول الصافات وثلاث آيات من الرحمن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ. . .﴾ [الأنعام: ١٣٠] وخاتمة سورة الحشر.

(١) سورة يس، الآية: ٣٧.

ثم و﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ لمحة صارحة لاختلاف الآفاق الأرضية، فهي - إذاً - مدوّرة غير مسطحة، وإلّا لم يكن معنى ولا واقع لـ ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أن يطلب الليل النهار حثيثاً تدريجياً سريعاً مجداً - حيث الحث هو الطلب بجد وسرعة - بل ليكن الأرض كلها ليلاً أم كلها نهاراً لو كانت مسطحة أو شبه مسطحة، وهذا الطلب ليس إلّا من حصائل حركة الأرض وكرويتها، أم وحركة الشمس.

ذلك، فلولا أن الظلمة أصل للجوّ المظلم، مخلوق معه دون غيار لم يكن لسلخ النهار منه معنى صالح، حيث السلخ ليس إلّا لقشر عارض، وأما ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ فإنه إغشاء، لذلك الجلد العارض بغشاء الظلمة الذاتية.

ثم ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ لا يصدق إلّا باختلاف الآفاق، وإلّا لم يكن يطلبه لا حثيثاً ولا غير حثيث لمكان المفارقة البائنة بينهما، إذاً فلتكن الأرض منحنية السطح كروية أو بيضوية أماهيه حتى يصدق ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: سريعاً.

ذلك، فهذه الآية المُغشية الليل النهار، ومعها آية التكوير: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾(١) وهكذا آيات الإيلاج بينهما كـ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾(٢) وآية السلخ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾(٣).

هذه كلها إشارات متقنة لكروية الأرض ودورانها، ولم تكن الظروف النازلة فيها القرآن تسمح للتصريح بذلك إذ كان يواجه بالتكذيب سناداً إلى الحس، والعلم حينذاك.

فهذه وأضرابها من الإشارات اللطيفة القرآنية المعبر عنها بالبطون،

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٦١.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٧.

كانت لا بدّ منها في ذلك الكتاب المحلق على كافة المكلفين منذ نزوله إلى يوم الدين.

فقد يعبر عن حركات الأرض بـ«الراجفة» و«الكفات» و«الذلول» تدليلاً واضحاً على أن الأرض محكومة بحركات متداخلة فهي «راجفة» وإنها مسرعة في الطيران متقبضة على سطحها وفضائها الكائنين فيها: أحياء وأمواتاً «كفاتاً» وأنها على حركاتها معدّلة لحد لا تحس ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[1] وما أشبه.

وهنا يقول الإمام علي عليه السلام: «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم.. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها».

ذلك، وأمامنا اليوم صورة رائعة للأرض بواسطة الأقمار الصناعية تبيّن لنا كيف يدخل الليل في النهار تدريجياً ويتكور عليه، وكلها أدلة علمية فلكية قرآنية على كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس.

ثم وخلق ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ حال كونها مسخرات ككل ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حيث سخرها للخلق انتفاعاً لهم منها، دون تدبير رباني لها بأصولها: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[2] وذلك يختلف اختلافاً ما عما سبقها في الآية نفسها:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾[3] فإن لنا تأثيرات في الفلك والأنهار دون الشمس والقمر والليل والنهار.

هذا، وكما أن ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ في ظاهر

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٣.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.

التكوين، كذلك - وبأحرى - شمس الرسالة القدسية وقمرها ونجومها في باطن التشريع، إذ يحمله حملته من الله وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي»(١).

وهكذا يخاطب النبي ﷺ في حقل الأمر ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٢) وكما هنا ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

---

(١) كما في ينابيع المودة (٢٠) من طريق الحاكم، وابن بطريق في العمدة من طريق مسند أحمد عن علي عليه السلام وأحمد بن حنبل في فضائله: ١٨٩ ح ٢٦٧ عنه عليه السلام والحاكم في المستدرك ٣: ١٤٩ عن ابن عباس وج ٢: ٤٤٨ بإسناده عن جابر وج ٣: ٤٥٧ بإسناده عن محمد بن المنكدر عن أبيه، وكذا الذهبي في تلخيص المستدرك، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٥: ٢٥ بإسناده عن إياس بن سلمة عن أبيه عنه ﷺ والسيوطي في إحياء الميت من طريق الحاكم عن ابن عباس ومن طريق ابن أبي شيبة ومسدد في مسنديهما، والترمذي في نوادر الأصول، وأبو يعلى والطبراني جميعاً عن سلمة، ورواه في الجامع الصغير ٥٨٧ عن سلمة بن الأكوع وفي ص ٧ من طريق الحفاظ: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة النخعي والمسدد في مسنديهما، والترمذي في نوادر الأصول، وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير، وابن عساكر بإسنادهم جميعاً عن إياس بن سلمة وعن جابر، وأخرجه من طريق الحاكم عن ابن عباس الحزاوي في مشارق الأنوار ٩٠ والنقشبندي في راموز الأحاديث ٢٣٨ والصنعاني في مشارق الأنوار ١٠٩ والحضرمي في رشفة الصادي ١٧ و٣٧ و٧٨ من طريق الحاكم عن ابن عباس وأحمد في المناقب عن علي عليه السلام، وفي وسيلة المآل ٥٩ عنه عليه السلام والسهمودي في الإشراف على فضل الإشراق ٤٠ والأمر تسري في أرجح المطالب ٣٢٩، والنبهاني في الشرف المؤبد ٢٩ عنه عليه السلام وفي جواهر البحار في فضائل النبي المختار ٣٦١ / ١، والنبهاني في الفتح الكبير ٣: ٢٦٧ سلمة، والحمويني في فرائد السمطين ٢: ٢٤١ و٢ و٥٢١ والطبري في ذخائر العقبى ١٧ والزرندي في نظم درر السمطين ٢٣٤ والقدوس الحنفي في سنن الهدى والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٧٤ والكافي في السيف اليماني المسلول ٦٤ والكازروني في شرف النبي ٢٨٣ والخوارزمي في مقتل الحسين عليه السلام ١: ١٠٨ عن علي عليه السلام وابن عباس والأنسي اللبناني في الدرر واللآل ٢٠٣ وضيف الله في فيض القدير ٢: ٦٢ وسفيان الفسوي في ترجمة ابن عباس من كتابه: المعرفة والتاريخ ١: ٥٣٨ والصبّان في إسعاف الراغبين ١٤٤ والهيثمي في الصواعق ١٨٥ والقندوزي في الينابيع ٢٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٣: ٨٨. (عنهم ملحقات إحقاق الحق ٩: ٢٩٤ - ٣٨٠ و١٨: ٣٢٣ - ٣٣٠ وغاية المرام ٢٧٤ الباب ٦٦ و٦٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

فلست - أنت أيها الرسول النبي الألمعي - لست تملك شيئاً من أمر التكوين والتشريع والثواب والعقاب والعفو، أو الاستئصال والاستصلاح، أو تدبير المصالح في أوقاتها، أو تقديم الآجال عن مقراتها أو تأخيرها وما أشبه من الأمور الربانية في حقل التكوين والتشريع، و﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ و﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ له الخلق وله أمر الخلق استمراراً وتدبيراً وما أشبه من شؤون الخلق لصالحه غاية وبداية وعلى أية حال في كل تكوين وتشريع وما أشبه.

ذلك، فلا مجال هنا لبعض التفلسفات الفالسة الكالسة أن «الأمر» يعني إيجاد المجردات، والخلق هو إيجاد الماديات، فقد ذكر هنا خلق السماوات والأرض والاستواء على عرش تسخيرهما بسائر النجوم وتدبيرها كلها وهو الأمر بعد الخلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث جمع لنفسه الخلق والأمر دون أن يتخذ لنفسه شريكاً أو يكون له يد في الأمر كما لا شريك له في الخلق، والمشركون معترفون بأن الله تعالى هو الخالق لا سواه، ولكنهم يعطون أمر الخلق لغيره كلًّا أو بعضاً.

ثم الأمر هنا ليس ليختص بأمره تعالى بعد خلق الكون، بل وله الأمر قبله وقبل أمره، كما وله الخلق قبل الخلق والأمر وبعدهما، فهو «خالق إذ لا مخلوق وعالم إذ لا معلوم»...[2] فمن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر

---

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٢) نور الثقلين ٢: ٤٠ في الخرائج والجرائح قال أبو همام سئل محمد بن صالح أبا محمد عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] فقال: له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد أن يأمر به مما يشاء فقلت في نفسي هذا قول الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فأقبل علي وقال: هو كما أسررت في نفسك: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه لقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

وقد يعني الأمر هنا الهدى الشاملة لكلِّ خلق تكوينياً وتشريعياً: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(٢) هداية تناسب غايته المخلوق لها.

فهنا ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ حصر لهما بساحة الربوبية، وعبارته الأخرى هو الرب لا سواه، لا يشاركه أحد في خلق أو هدى، في تكوين أو تشريع، ولا تعني الرسالة الإلهية التي هي القمة العالية في مناصب لمن سوى الله إلّا رسالة الأحكام التي يشرعها الله سبحانه.

ذلك، وصيغة الخلق في القرآن تعني - دونما استثناء - كلّ الخليقة، مادية بطاقاتها ومنها الأرواح، فقد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣) - ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾(٤) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(٥) ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٦) ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾(٧) ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾(٨).

فهذه الآيات ونظائرها تدل على تحليق الخلق على كلّ شيء، سواء أكان خلقاً متدرجاً في تكونه كما السماوات والأرض برمتهما، أم دون تدرج

---

(١) الدر المنثور ٣: ٩٢ - أخرج ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال قال رسول الله ﷺ من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط ما عمل ومن زعم...

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٧) سورة الحج، الآية: ٥.

(٨) سورة الصافات، الآية: ١١.

كما الخلق الأوّل لمكان خلقه لا من شيء، فالمخلوق من شيء يجوز فيه التدرج، ولكن الذي يخلق لا من شيء فلا مجال فيه لتدرج، فغير الخلق الأول بين متدرج التكون وسواه، والخلق الأول محصور في سواه.

وكما أن ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[1] كذلك التدريج وسواه كله لله، والأمر المذكور في القرآن (٧٢) مرة، لم يأت وإن مرة يتيمة بمعنى إنشاء المجردات غير المتدرجة في الانتشاء، إنما هو بين أمر التكوين والتشريع أمراً فيهما ومطلق الشيء والفعل، دونما اختصاص بمجرد وما أشبه، فالأمر الدستور يجمع بالأوامر، والأمر الفعل أو الشيء بالأمور.

ثم الأمر بعد استوائه على العرش هو كلّ أمر في حقل الخلق: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[2].

وطليق الأمر تدريجياً وسواه لا ينافي في ذكره في سواه كـ ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[3] رغم أن أمر الساعة - وهو مجموع أمري قيامة الإماتة والإحياء - ليس - فقط - في إيجاد مجردات، إنما هو تدبير الكون بلمحة، ثم تعميره بلمحة أخرى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[4] فلا يدل ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[5] إنه من عالم المجردات لمكان الأمر، وانما القصد إلى أنه أياً كان ليس إلّا من الله، سواء أكان روح العصمة الرسالية أم روح القرآن أم سائر الأرواح، إذ ليس للخلق مدخل فيها أبداً، وإنما كله من الله وإن كلّ خلق هو من الله.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

ولو أن الأمر غير متدرج، فكيف - إذاً - ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ...﴾(١).

وأما ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) ألّا تدرج في أمره، فهذا لا يقتضي سلب أي تدرج وإن كان بأمر الله، فمن نفاذ أمره تعالى دون حاجة إلى تدرج وتمهل أنه لا يريد شيئاً إلّا وهو كائن، فقد أراد تكوين المادة الأولية فكانت دون تدرج، ثم خلق منها السماوات والأرض بتدرج، دون أن يكون ذلك التدرج المقصود فيما فيه التدرج نقصاً في قدرته، بل هو لحكمة عالية ربانية تقتضيه، فقد يقول لأي من مراحل التكوين التدريجي ﴿كُن﴾ فيكون كما يريد دون تمهل ضعفاً في القدرة، وهنا يتجلى معنى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾(٣) و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤).

ذلك، وباختصار نجد القول بمجرد سوى الله يخالفه العقل والكتاب والسنة، فالعقل إنما يحكم بحدوث المادة والطاقات المادية، وليس المجرد عن المادة بحاجة إلى خالق لتجرده عن الحاجة المحوجة إلى الخالق.

والكتاب مصرح بأن الروح منشأ من البدن: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾(٥) وأنه منفوخ في البدن ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾(٦).

والسنة كلمة واحدة مصرحة بمعنى: أن الروح جسم خفيف قد ألبس قالباً كثيفاً، أو أنه كالريح لخفته.

وبعد كلِّ ذلك نتساءل القائلين بتجرد الروح، أليس هو داخلاً في

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٧.
(٣) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٤) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٦) سورة السجدة، الآية: ٩.

البدن، فمحدوداً بحدود البدن، ولا حدّ ولا أبعاد ولا مكان للمجرد عن المادة، اللّهم إلّا الطاقة المادية، وليس النزاع في كيان الروح إلّا في أصل تجرده أو ماديته، وأما كونه طاقة مادية - إن صدقه القائلون بتجرده - فموضع وفاق بين الطرفين، وليس النزاع لفظياً حيث الفلسفة والبحوث الفلسفية ناحية منحى الواقع دون الألفاظ إلّا نظراً إلى مدلولاتها الواقعية.

حول العرش:

لقد تحدثنا حول العرش على ضوء آيات تحمله ولا سيّما آية حمله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[1] و﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وآية الكرسي في قياس بينه وبين العرش، وما أشبه، أن العرش المنسوب إلى الله، المستوى عليه الله، هو بطبيعة حال هذه النسبة ليس من العروش المادية التي يتكئ عليها أصحابها السلاطين، إنما هو إشارة إلى فعلية السلطة الربانية خلقاً وتقديراً وتدبيراً، فقد كان عرشه هذا على الماء قبل خلق الأرض والسماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[2] فلأن ﴿ٱلْمَآءِ﴾ هنا هو أوّل ما خلق الله - كما يأتي فيه قول فصل على ضوء آيته - ثم بعد خلق السماوات والأرض استوى على عرشهما، ومن ثم بعد خرابهما يستوي على عرش القيامة الكبرى، فهو - إذاً - ذو العرش في هذه المراحل الثلاث واقعياً، وقد كان ذا العرش قبل أن يخلق خلقاً، بمعنى حيطته العلمية والقيومية غير الفعلية، على ما سوف يخلقه، فإنه عالم إذ لا معلوم وخالق إذ لا مخلوق، وقادر إذ لا مقدور، بمعنى أنه تعالى لا تحدث له سلطة بعد ما لم تكن، وإنما تظهر سلطته على ما يحدث بعد كأمنها في علمه وحياته وقدرته، حيث الصفات الفعلية كلها منشآت من الصفات الذاتية.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

ولأن الخلق والتقدير هما مخلوقان، فالحيطة العلمية والقيومية عليهما أيضاً مخلوقتان، إذاً فالعرش كسائر الخلق خلق من خلق الله في كيانه الفعلي، كما أنه من صفاته الذاتية في كيانه الشأني(١)، فقد يصح القول أنه

(١) في التوحيد بإسناده عن سلمان الفارسي فيما أجاب به علي عليه السلام الجاثليق فقال علي عليه السلام: إن الملائكة تحمل العرش وليس العرش كما تظن كهيئة السرير ولكنه شيء محدود مخلوق مدبر وربك حامله لا أنه عليه ككون الشيء على الشيء..» أقول: لأن الخلق والتدبير محدودان فالعرش الذي فيه أزمته أمور الخلق محدود بنفس الحدود، ولكن صفات الله الذاتية كذاته غير محدودة.

وفي الكافي عن البرقي رفعه قال: سأل الجاثليق علياً عليه السلام فقال: أخبرني عن الله عز وجل يحمل العرش أو العرش يحمله؟ فقال عليه السلام: الله عز وجل حامل العرش والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١] - قال: فأخبرني عن قوله: ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، فكيف ذاك وقلت: إنه يحمل العرش والسماوات والأرض؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إن العرش خلقه الله تبارك وتعالى من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرت الحمرة ونور أخضر اخضرت منه الخضرة ونور أصفر اصفرت منه الصفرة ونور أبيض ابيض منه البياض، وهو العلم الذي حمّله الله الحملة وذلك نور من نور عظمته فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المتشتتة، فكلّ شيء محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فكلُّ شيء محمول، والله تبارك وتعالى الممسك لهما أن تزولا والمحيط بهما من شيء وهو حياة كلّ شيء ونور كلّ شيء سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - قال: فأخبرني عن الله أين هو؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧]، فالكرسي محيط بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى وذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمّلهم الله علمه وليس يخرج من هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته وهو الملكوت الذي أراه الله أصفياءه وأراه خليله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حييت قلوبهم وبنوره اهتدوا إلى معرفته... =

لم يكن لله عرش ولا كرسي قبل أن يخلق خلقاً، إذ «كان الله ولم يكن معه شيء» سواءٌ أكان عرش السلطة التدبيرية والتقديرية الفعلية منه تعالى أو السلطة الملائكية المأذونة لهؤلاء المؤامرين، حيث يحملون بما يحمّلون كأداة أمور التكوين والتشريع.

فأصل العرش وهو السلطة الربانية ليس إلّا لله، ثم فصله لعباد له خصوص يحملون أوامره إلى الكائنات، فهم عمال رب العالمين فيما هم به يؤمرون.

فلأن عرش الله هو أمره السلطوي الربوبي، فحملة عرشه هم المحملون أوامره، وعمّاله الذين يعملون بأمره، من ملائكة الوحي وسواهم، وسائر رسل الوحي وسواهم من حملة أوامر الله إلى خلقه.

ومهما كان لعرش الرب حملة يوم القيامة والأولى، لم تكن له حملة يوم خلق الماء، قبل أن يخلق الأرض والسماء، فإنما خلق كلّ الحملة من الماء، وهو مادة الكائنات بأسرها، فلم يحمل عرشه بعدئذ حملة لحاجته إليهم، بل لحاجتهم إلى ذلك الحمل كما المحمل إليهم محتاجون، تطبيقاً لأمر الله لمزيد العناية الربانية إليهم، كما تزيد لمن حمل إليهم تشاريع الله.

هذا، فذلك إيقاع بالغ لهم صارم بعبودية الكون كله لله الواحد القهار ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1] فهنا، وقد ارتعش الضمير الإنساني منساقاً للاستجابة في موكب الكون المستجيب لأمر ربه، من هنا يخاطب بقية العبودية الفطرية أن يدعو المعبود:

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾:

= أقول: للاطلاع على مضامين الحديث الغامضة راجع تفسير آية الكرسي. وهنا أحاديث أخرى سردناها عندها وأهمها حديث حنان بن سدير فراجع.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

﴿ٱدۡعُواْ﴾ قد تعم دعوة العبودية بمعرفة توحيدية، ودعوة الدعاء فيما تكل الطاقات المخولة إلينا، في قال وحال وفعال، وكما أن يصبح العبد بكلٍّ كيانه دعاء الرب.

وكما الدعاء العبودية والعبادة واجبه الركين أن يكون بتضرع وتذلّل، كذلك وبأحرى دعاء الاستدعاء، ولئن تبتلى سائر العبادات بإفلاس في غير إخلاص كما في أكثريتها المطلقة، فعبادة الدعاء هي بطبيعة الحال مُخلِصة غير مُفلسة، لأنها قضية الحاجة التي لا تزول إلّا برحمة من الله، ولكن العبادة - ما كانت صالحة في شروط لها في الفقه الأصغر - تسقط التكليف وإن لم تقع موقع القبول ولم ترفع بصاحبها إلى حضرة الربوبية.

إذاً ف ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بمثلث الدعوة التوحيدية والعبودية والاستدعاء، في مثلث القال والحال والفعال، فالدعوة والدعاء قلبياً هي الأصل، ثم القال والفعال إذاعتان لها مهما كان في الفعال عضال دون القال.

ذلك، فقضية العبودية الذليلة المفتاقة الهزيلة، أمام الربوبية الشاملة الكاملة العزيزة، أن تختص الدعوة بضراعة وخفية بساحته القدسية دون اعتداء عنها بترك الدعاء أو الدعاء بكبرياء أو صياح وتصدية، فالتضرع الخفي أنسب بجلال الله وجبروته ويقرب الصلة بينه وبين مواليه وعبيده.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ الذي رباكم ويربيكم ما دمتم فدامت حاجاتكم: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾[1] فترك الدعاء - إذاً - اعتداء على ساحة الربوبية عن صالح العبودية.

إذاً فادعوه ﴿تَضَرُّعٗا﴾ لكلِّ قصور أو تقصير، اعترافاً ضريعاً بالذل، فاغترافاً من رحمته الغزيرة البارعة، والضراعة هي الضعف والذلة، فالتضرع هو إبراز هما ببكاء وغير بكاء.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

ثم ﴿وَخُفْيَةً﴾ لأنك فيها أبعد من الرئاء ولأنه سميع الدعاء: «أما إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، إنه معكم»[١] فالاعتداء من ﴿وَخُفْيَةً﴾ إلى جهار زعم أنه لا يسمع الخفية، كما الاعتداء من الضراعة إلى سواها من حالات الاستكبار، أم دون تذلل وتضرع، إلى الاعتداء في أصل الدعاء ألا تدعوا ربكم، فضلاً عن أن تدعوا غيره أم تشركوا في دعائه سواه، أم تدعوه بما لا يليق بساحته، أو ما هو الخارج عن محور الدعاء اللائق بربوبيته الحكيمة، هذا المسدس وما أشبه محسوب بحساب ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي يبغضهم.

ثم التضرع هو حالة الضراعة وإن لم تُدمع، وخفية هي من أدب الدعاء «إنه سميع الدعاء» فإن جاهرت بالدعاء تعليماً لمن سواك أم خطوة زائدة لسمعك إلى لسانك برنين البكاء والدعاء وحنينه، اتجاهاً إلى حنانه تعالى، فذلك غير محظور.

فما دام الداعون ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٢] - و﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٣] حاصلين على سائر شروطات الدعاء المسرودة في القرآن والسنة، فما عليهم إن لم يُخفوه عنايةً إلى مزيد الذل والحظوة في موقف الدعاء، مهما كان الأصل فيه هو الخفاء.

ذلك، وقد تعني ﴿وَخُفْيَةً﴾ ما يقابل ﴿تَضَرُّعًا﴾ حيث التضرع ظاهر لا

(١) نور الثقلين ٢: ٤٠ في المجمع روي عن النبي ﷺ أنه كان في غزاة فأشرف على وادٍ فجعل الناس يهلّلون ويكبّرون ويرفعون أصواتهم فقال: أيها الناس اربعوا على أنفسكم أما إنكم...

وفي تفسير الفخر الرازي ١٤: ١٣١ عن النبي ﷺ: دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية، وعنه ﷺ: خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

يخفى، فإنه بطبيعة الحال جاهر، فليس إذاً من عطف الجمع، بل هو عطف التخيير، ولكنه دون الجهر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[1] فـــ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[2] ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[3].

إذاً فقضية الدعاء كأصل أن يكون تضرعاً وخفية بخفاء دون الجهر من القول، ورغباً ورهباً، فباطن الدعاء هو الرغب والرهب على ضراعة، وظاهره أن يكون خفية ودون الجهر من القول، اللهم إلّا إذا لزم أو رجح الجهر تعليماً، كما كان يفعله المعصومون عليهم السلام أحياناً كانوا يعلمون أصحابهم، أم مزيداً للحظوة الروحية برنة الدعاء وضراعته الظاهرة الجاهرة ما بَعُد عن الرئاء.

وأما ألا يدَعى الرب، أو يُدعى بكبرياء أم دون تضرع، أم يُدعى تضرعاً دون رغبة ورهبة، أم يدعى تضرعاً برغبة ورهبة بصراخ زعم أنه غير سميع الدعاء، أم بغير صراخ وهو يؤكد استجابته بتاً أمّاذا من سوء الأدب في حقل الدعاء، فكل ذلك تشمله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ مهما كانت دركات.

ولأن صالح الدعاء مما يصلح الأرض إضافة إلى سائر الإصلاح منا، فـ :

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

إن في ترك دعاء الرب كما يَصلح إفساداً في الأرض بعد إصلاحها، حيث الإيمان الصالح بعمله يُصلح الأرض، وخلافه يفسدها، وهنا ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ تعم إصلاحها من الله، إلى مصلحين بأمر الله، وإليك أنت

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٠.
(٣) سورة طه، الآية: ٧.

المفسد في الأرض بعد ما أصلحت فيها، فمثلث الإصلاح هو هندسته الصالحة، بما أن رأس الزاوية القاعدة هو الله، وقد أصلح الله فِطرَنا وعقولنا والأرض التي نعيش عليها، بما أصلحها الحياة سليمة صالحة في نبيِّها وبما بعث إلينا رسله وسائر الدعاة إليه، وأصلح الرسل بما يحملون من رسالات الله، وأصلح سائر الدعاة إلى الله، وقد تجمع كافة الإصلاحات في المصلح الأخير رسولياً ورسالياً وهما مجموعان في القرآن، ففي تقرير القرآن في كافة الأوساط بكلٍّ تقريراته الربانية إصلاح للأرض كافل، كما في تركه إفساد فيها قاحل ماحل.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ تعم زواياه كلّها، ولكي نتزود باستمرارية هذه السلبية المصلحة ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفاً من قصوراتنا وتقصيراتنا، وأن يكون دعاءنا غير صالح أو لغير صالح، وطمعاً في رحمة الله، وهذا من الإحسان في الدعاء أن يكون بين الخوف والرجاء: رغباً ورهباً، خوفاً وطمعاً، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فدونهم أولاء الأكارم من المسيئين.

ذلك وأصلح المصلحين في الأرض برسالة الله هو الرسول محمد ﷺ فـ«إن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله عزّ وجلّ بنبيه»[1] فهو أفضل مصلح رسولي فيها، ثم سائر المصلحين الرسوليين، ومن ثم وعلى ضوء رسل الله يأتي دور المصلحين الرساليين.

ولأن الإصلاح الرسالي الإسلامي بالرسول ﷺ كان لأكثر تقدير محوراً كقاعدة - هو الإصلاح بالقرآن، إذ ما كان الرسول ليصلح أرض

(١) نور الثقلين ٢: ٤١ في روضة الكافي بإسناده إلى ميسر عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] قال فقال يا ميسر: إن الأرض..

التكليف إلّا بالقرآن - بهامشه السنة - إذاً فعزل القرآن وعضله عن الوسط الإسلامي إفساد هام للأرض بعد إصلاحها، فكلُّ الآيات الناهية عن الإفساد في الأرض، والآمرة بإصلاحها، تنحو - كأصل وأثافي وقاعدة - منحى القرآن.

أجل، لقد أصلح الرسول كافة المكلفين بالقرآن، ويتلوه كلّ الدعاة إلى القرآن بكلّ ما يحويه، فالمفسدون بعده هم الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(١).

فلو أنهم شعروا أنهم يهلكون أنفسهم بالنهي والنأي عن القرآن لكان يرجى أن ينتبهوا عن غفوتهم، ولكنهم لا يشعرون بما قصّروا، إذ سلب الله عنهم شعورهم بالمسؤولية أمام القرآن بما تهاونوا فيه. فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون.

افتكر يا أخ إن كنا زمن الرسول ﷺ في حلقات دراسية بمسجده، فهل كان يحنّ إلى حلقات القرآن، أم إلى سائر الدراسات التي شغلت حوزاتنا، التي لا تبقي مجالاً لدراسة قرآنية إلّا هامشية مرضوضة مرفوضة؟! فقد يصح التعبير عن حوزاتنا أنها مفسدة لأرض التكليف إذ فقدت أصلها القرآني الفائض، إلى غيره الفاضي عن حجة القرآن.

ولقد سبق منه ﷺ مراراً أن رأى جموعاً في مسجده يتحدثون مختلقين أحاديث مروية، ونظرات حولها مدوية، فهاج هياجه عليهم، ورفع صراخه فيهم بما يعني: هل تتنازعون في قيلات وقالات وكتاب الله بين ظهرانيكم؟!.

وهنا عرض لِفَرق الإفساد الكثرة، وفرقة الإصلاح القلة للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود، يعد

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٦.

فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم فيه عتواً، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا -.

فالناس على أربعة أصناف، منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلّا مهانة نفسه وكلالة حده، ونضيض وَفْره، ومنهم المصلت لسيفه والمُعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه، وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه، ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، ومما لك عند الله عوضاً -.

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية -.

ومنهم من أقعده عن طلب المُلك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس في ذلك من مراح ولا مغدى -.

وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد نادٍ، وخائف مقموع، وساكت مكعوم، وداع مخلص، وثكلان موجع، قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحر أُجاج، أحوالهم ضامرة، وقلوبهم قرحة، قد وُعِظوا حتى ملوا، وقُهروا حتى ذلوا، وقُتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالة القَرَظ، وقراضة الجُلَم، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم»[١].

ذلك، وترى كيف ﴿قَرِيبٌ﴾ تأتي خبراً عن ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ دون تحمل لأنوثتها؟ علّه لأنها مؤنث مجازي فلا يجب تحمل أنوثته لما يتحملها، أم

(١) (الخطبة ٣٢).

ولأن ﴿قَرِيبٌ﴾ مشتركة بين الذكورة والأنوثة، ومن المستفاد من هذه الآية واجب الإصلاح في الأرض ومحرم الإفساد فيها ولا سيما بعد إصلاحها، وترى إذا كانت رحمة الله قريباً من المحسنين، فهي إذاً بعيدة عن المسيئين وهم يعيشون رحمة الله طول حياتهم، بل وقد تربو لهم على المحسنين؟.

هنا ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ هي الرحيمية الخاصة بالمؤمنين، وليست الرحمات الدنيوية الزائدة البائدة للمسيئين، هي من الرحيمية، بل هي من الرحمانية التي تتبدل عندهم زحمة ونقمة قضية الابتلاء بها فالسقوط في هُوّات الحبوط والهبوط.

فالمصلحون في الأرض، الداعون ربهم خوفاً وطمعاً، هم من المحسنين الذين تكون رحمة الله لهم قريباً، فهي من غيرهم بعيد قد تصلهم لتصلحهم، وإلّا فهي لهم مفسدة أكثر مما فسدوا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

صيغة «إن ربكم...» حملت بياناً لربوبية المبدأ، وهذه تحمل من ربوبية المعاد، فبينهما ربوبية التشريع بين المبدأ والمعاد، و﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الحاملة لرحمة من الله ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ الغزيرة الهاطلة الودْق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾: حملت ﴿سَحَابًا﴾: تسحب من أبخرة المياه الأرضية ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ واللّام هنا تعني الاختصاص الامتصاص، حيث «إلى» لا تفيد ذلك الاختصاص ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ المطر بقدر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي يحتاجها الإنسان من معدن ونبات وحيوان، بل والإنسان هو أيضاً من هذه الثمرات: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(١)، كافلة

(١) سورة نوح، الآية: ١٧.

لحاجاته، حاملة لحاجياته ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإخراج لموتى البلاد بميتات المياه وميتات البذور: ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في البلاد وهو أهون عليه، إذ يدخل الأرواح الحية الأبدان الميتة بعد ما تُنشى أمثالها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أنكم سوف تخرجون، حيث يتواتر إخراج الموتى على منظركم ومرآكم طول خط الحياة الدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الحياة الأخرى، بهذه المذكرات المتواترة من إخراج الحياة من الميتات، وهو سند دائب للأولوية القطعية لإخراج الموتى من أجداثهم، إدخالاً لأرواحهم في أجسادهم.

ذلك، وكما أن هذه الرياح هي بشرى بين يدي رحمته في هذه الدنيا، كذلك وبأحرى رياح الأخرى هي بشرى بين يدي رحمته العليا حيث يرسلها لتقلّ سحاباً يسوقه لكلِّ الأموات، إحياء لهم وإخراجاً لكلِّ الثمرات التي هي حصائل الأعمال صالحات وطالحات.

أجل و﴿كَذَٰلِكَ﴾ المتواتر المتكاثر الذي ترونه هنا ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وبأحرى، إخراجاً للثمرات المستحقة بالأعمال، كما تخرج الثمرات هنا للعمّال وأين ثمرات من ثمرات؟.

ذلك، والماء هو الماء ولكن البلاد تختلف طيباً وخبثاً، والثمرات المخرجة هي المتناسبة مع طيب البلاد وخبثها هنا وفي الأخرى:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

وهكذا نجد مثال القلب الطاهر والخبيث بالبلد الطيب والخبيث حيث يُسقيان بماء واحد والثمر مختلف حسب اختلاف القلب كما البلد.

وقد يُروى عن رسول الله ﷺ قوله: «مثل ما بعثني الله به من الهدى

والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقية قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فذلك مثل من فقه في دين الله وتفقه ما بعثني الله به فعلم وعمل ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(١).

أجل، فكما الصحراء والجدباء تختلفان على أثر إنزال الماء، كذلك القلوب الطيبة والخبيثة.

هنا، وبأحرى في الأخرى حيث تخرج ثمراتها وفقاً لحالاتها وفعالاتها ولا يظلمون نقيراً، فالهدى وبينات الآيات والعظات تنزل على القلوب كما ينزل الماء على التربة، فالقلب الطيب كالبلد الطيب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ حيث يفتح ويستقبل ويزكو ويفيض بالخير، والقلب الخبيث كالبلد الخبيث يستفلق ويقسو ويجسو ويفيض بالشر والنّكر ويخرج نكد الشوك والأذى، ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بغيارها المتواتر ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الآيات بتصريفها، فأما الذين يكفرون ولا يشكرون فلا يزيد لهم تصريفها إلّا نفوراً وكفوراً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢).

صحيح أن الهدف من تصريف الآيات هو التذكر بها لكافة المكلفين، ولكن الذي ينتفع بها بالفعل هو الشاكر لله في آياته وبينانه، دون الكافر الناكر، اللاهي عنها، والمستهزئ بها.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٩٤ - أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ:

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

فكما القرآن كأصل دلالي ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾[١] ولكنه كواقع ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] كذلك الآيات المعرّفة هي كأصل تذكرة للناس، وهي كواقع في آثارها الصالحة ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

وهنا بالتالي سرد لرسالات ربانية بمعاكسات لآثارها في قلوب قاسية جاسية بـ:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

سرد خاصر غير حاصر لأولى الرسالات الهامة العامة لأول ولي من أولي العزم الرسولي «نوح» عليه السلام وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم بمختلف المناسبات في مختلف الذكريات (٤٣) مرة، في (٣١) سورة منها سورته نفسه: «سورة نوح» مما يلمح بهامة هذه الرسالة البادئة، وقد ابتليت بهامة الابتلاءات الفادحة القادحة لها وهي الكادحة طوال ألف سنة إلّا خمسين عاماً!.

وترى ألم تكن قبل نوح شرعة من الدين؟ وقد نبئ قبله آدم وإدريس وقد كان نبياً: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[(١)] كما وآدم قبله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾[(٢)] ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[(٣)] وهكذا من بينهما من النبيين بمختلف درجاتهم.

(١) سورة مريم، الآية: ٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢٢.

فمن المقطوع المحتوم أن الرسالة الربانية لم تكن مبتدأة من نوح عليه السلام ولم تكن الفترة - ما كانت - إلّا رسولية، لا رسالية، وأهمها ما كانت بين المسيح ومحمد عليهما السلام، وعلّ من قَبلهما ما كانت بين آدم وإدريس، وبينه وبين نوح عليهما السلام، وكلها فترات رسالية فحسب ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[1].

وحين تفسر ولاية العزم لرسل - فيما تفسر - بأنهم جاؤوا بشرائع مستقلة غير تابعة لما قبلها، فلتكن شرعة آدم عليه السلام - لأقل تقدير - شرعة مستقلة، إذ ما كان قبلها من شرعة لهذا النوع الأخير، ولأن إدريس النبي كان أفضل من آدم عليه السلام فقد يكون حاملاً لشرعة مستقلة بعد آدم، وإن في توسع لأحكام، مهما لم ينسخ حكماً من شرعة آدم عليه السلام.

فمن الجواب لذلك السؤال العضال ما أوردناه في سورة نوح عليه السلام أن الرسل قبله جاؤوا بشرعة لا تزيد على تصليح الأحكام العقلية والفطرية، فهي - إذاً - تحمل سلبية إزالة الحجب عن الفِطَر والعقول وإيجابية تنويرات لهما عن أخطاء فيهما، إلّا أن الأحكام الفرعية لا مدخل فيها للفطريات والعقليات، اللّهم إلّا الفرعيات الثابتة في النواميس الخمسة التي لا حِوَل عنها، دون كيفيات خاصة لطقوس عبادية لا بدّ منها، موقوفة على بيان الله.

ومنه أن هذه الشرائع قبل نوح ما كانت واسعة شاسعة الأطراف، فإنما كانت تقضي حاجات بسيطة في البسيطة لساكنيها القلة القليلة، فما كانت - إذاً - تحسب أمام الشرائع الخمس في حساب شرعة، كما وأن الرسل قبل نوح عليه السلام ما كانوا أولي عزم كما كان أولو العزم من الرسل، فإن من ميزاتهم هي: سبقهم إلى الإقرار بالله، وعموم شرعتهم إلى عباد الله، وعزمهم في التصبر في الله، مهما كان منها - أيضاً - استقلالهم في شرعتهم

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

عما قبلها من شرائع الله، أماهيه من ميزاتهم المسرودة على ضوء آية الأحقاف.

فالحامل لمجموعة الميّزات الرسولية والرسالية هو من أولي العزم وهم الخمسة المعاريف كتاباً وسنة، ولم تكن الرسل قبل نوح عليه السلام لهم، ولا لإدريس النبي الذي هو أفضلهم، ولاية عزم رسولي ولا رسالي كما هي لأولي العزم.

فمهما كانت شرعة آدم عالمية، لم يكن يعدو عالمه بنيه، ثم ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(١)!، ومهما كانت شرعة إدريس عالمية - ولا برهان له - فلم يكن من السابقين في الإقرار بالله، فإنما تتبنى ولاية العزم عزمات دون أزمات فيهم أنفسهم وفي شرائعهم، التي تشكل الإمامة في الرسالة الربانية، فهم - إذاً - مجامع عزمات رسولية ورسالية قمة لحدّ أصبحوا لسائر الرسل - كما للمرسل إليهم - أئمة.

ذلك، ولأن الرسالة الربانية تحمل مثلثاً من الوحي: إزالة لغشاوات على الفطر والعقول، ثم تنويرات لهما قدر المعني لهما، ومن ثم أحكاماً فرعية لا سبيل لغير الوحي إليها، لأنها قضية العلم الطليق على كافة المصالح والمفاسد، كما ومنها قضية صالح الابتلاء كقصة ذبح إسماعيل، ولا سبيل إليهما للعلم فطرياً وعقلياً ومزيداً عليها حيث هما - على أية حال - محدودان.

فقد حملت شرعة آدم عليه السلام خاصراً غير حاصر من هذه الثلاثة، ومن ثم تفصيل في شرعة إدريس، ثم تفصيل كأولى مرحلة جامعة لشرعة من الدين، وإلى تفصيل القرآن العظيم.

إذاً فحمل شرعة قبل نوح عليه السلام لا يحمل ولاية العزم لحاملها مهما كان

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

له عزم في بعض الواجهات رسولية ورسالية، ثم لا شرعة مستقلة بين نوح ومحمد عليه السلام إلّا لهؤلاء الخمسة، قضية إمامتهم على كلِّ الرسل في هذا البين، وعموم شرائعهم للعالمين ومنهم سائر أصحاب الرسالات والنبوات.

وترى كيف كان نوح بعيثاً على كلِّ المكلفين، ولم يجل بنفسه التجوال الرسولي بينهم؟ إنه تجوال رسالي بمن يحملونها عن أولي العزم من الرسل مهما أجمل عن ذكرهم في الذكر الحكيم.

وهنا سرد لدعوته بإجمالها وما عارضه قومه إلى غرقهم أجمعين إلّا من آمن به كإجمال قاصد إلى ملابسة عابرة ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى، بل هو تصوير معالم رئيسية لهذه الرسالة وكما في هود وصالح، ولوط عليهم السلام.

وقد يعني ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ كافة المكلفين حيث الأقوام تختلف مصاديقها المعنية بمغازيها، فالأقوام الرسالية تعني الرساليين كما أرسل الله، ولأن رسالة نوح كانت عالمية فـ ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ إذاً كل العالمين المكلفين، وكما دعى على كفار الأرض أجمعين: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1].

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ دعوة مبدئية توحيدية في حقل العبودية الموحّدة تحلّق على كافة الرسالات وهنا ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ نفي لجنس الإله كما في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استئصالاً لأية ألوهة لغير الله، لا أصيلة كما قد يزعم، ولا فصيلة خلاف ما يدعون.

ثم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ تلحيقة للمبدأ بالمعاد، وقد يعني ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ إلى المعاد عذاب البرزخ وبينهما عذاب الطوفان، فـ ﴿يَوۡمٍ﴾ هنا هو جنس ليوم العذاب العظيم، مهما اختلف عظيم عن عظيم،

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦.

وفي مثلث العذاب الموعود، لكونه غيباً كله، تطوى دعوى الرسالة، وهي الأصل الثالث من أصول الدين فإنها بين المبدأ والمعاد، ثم والدعوة التوحيدية في جوّ الإشراك المطلق المطبق هي دعوى رسولية.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أشراف القوم وخواصهم الذين يملأون بكثرتهم وقوتهم العيون والقلوب، وتمتلئ منهم صدور المجالس فهم المستكبرون من قومه، والملأ في الأصل بين ملأ الشر وملأ الخير ومن الخير: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾[1] ويقابلهم الملأ الأدنى وهم الشريرون المعارضون للرسالات على طول الخط، وهنا قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تخالف ما نعيشه من حياة الإشراك والحرية الشهوانية، ونحن أركان المجتمع وأصوله، فما يعارضنا - ونحن على هدى الحياة الراقية - إلّا من هو في ضلال مبين.

وكيف يواجههم نوح عليه السلام أمام رمية الضلالة وهي شرُّ رمية؟ إنه فقط سلب لها إيجاباً لرسالته من رب العالمين: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلو كانت الرسالة الربانية - الثابتة لي بمثبتاتها - ضلالة، فأنا إذاً في ضلال مبين، لأن ربي مضل وأنتم على هدى! فهل أنتم مائلون إلى هذه الطنطنة الغوغاء، قائلون غائلون هذه الغائلة النكراء؟ وأنتم ترونه رب الأرباب!.

وترى كيف يجيب عن ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بـ ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ دون ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نفسه سلباً لما أثبتوه؟ علّه يعني بـ ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ كلّ أنواعها لا فقط ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فـ ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ من مبين وغير مبين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ دونما زيادة أو نقصان، وقد يعني جمع

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٨.

﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ دون «رسالة» الجمعية الرسالية، في جمعية الأصول والفروع الأحكامية، فإن كلَّ زاوية من زوايا الرسالة هي رسالة، مهما كانت مجموعها أيضاً رسالة، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ لصالحكم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ رسالة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ منفصلين عن رسالة الله.

فقد اختصرت واحتصرت رسالة نوح عليه السلام في مثلث هو هندسة لصرح الرسالات كلها:

١ - ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ تبليغاً بليغاً بالحجج الربانية الكافية الوافية.

٢ - ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ نضجاً لبراهين الرسالة وفرامينها في قلوب بذلك النصح الرسولي الغالي، فللنصح دور دائر لكلّ حائر تبقى حيرته لحدٍّ ما بعد ساطع البراهين الآفاقية والأنفسية، وحقيقة النصح هي الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية.

٣ - ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذلك لزامه الوحي فإن ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تحلق على كلِّ أسباب العلم ومسبباتها، فالعلوم المنقطعة عن منقطع الوحي حاصلة لي من الله بالوحي، انقطاعاً إلى الوحي.

فهذه الثلاث و﴿أَوَ عَجِبْتُمْ...﴾ هي قواعد أربع لصرح الرسالة الربانية، إجابة عن شطحات كـ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ رؤية عوراء حمقاء ترى من يدعو إلى الهدى في ضلال مبين، والواو العاطفة هنا تعطف إلى محذوف معروف في درج الكلام وهو سائر أسباب العُجاب.

وهكذا يبلغ المتعرف في الضلال في تبجحه الوقح المرح في انقلاب الموازين والضوابط.

وهذا ما يتقوله ضُلّال التاريخ منذ بدئه إلى جاهلية القرن العشرين أنهم أنفسهم متقدمون متحضرون على رعناتهم وحيوناتهم اللّامحدودة، ثم المؤمنون متأخرون رجعيون ضالون عن سبيل الحياة الراقية!.

هذه الجاهلية المتحضرة! تقول للفتاة التي لا تكشف عن لحمها وعورتها: إنها رجعية، كما تقول للشباب المؤمن الذي لا يسافد البنات كالحمير: إنه رجعي، وتقول لمن يترفع اهتماماته عن جنون السكر والأفلام الخلاعية، وجنون الرقص والحفلات الفارغة، تقول: إنه جامد ميت.

فالجاهلية هي الجاهلية مهما اختلفت شكلياتها وظروفها وملابساتها.

وهنا إجابة عن عجابهم الشباب ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ عطفاً على سائر العجاب في مجيء ذكر من ربهم ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ في رجولة البشرية، أعجبتم أن الله يهديكم سبيل الرشاد ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ دون اختلاف عنكم في طبيعتها وقضيتها وجواذبها ونوازعها لكي تتم حجة الله عليكم في رسالة من هو ﴿مِنكُمْ﴾ قطعاً لكافة الأعذار، وأنساً بالمماثل ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عن بأس الله هنا وفي الأخرى ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ عن محارم الله في الأولى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هنا وفي الأخرى، ولكن لا حياة لمن تنادي.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ شرَّ تكذيب، وبمختلف ألوانه: قالاً وحالاً وأعمالاً ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الإيمان مهما كان بعيداً عنه في القرابة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عامدين عاندين إذ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ في عمى وعمه وهم كانوا مستبصرين إذ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾(١).

وتمضي عجلة التاريخ الرسالي ويمضي معها السياق فإذا نحن أمام عاد قوم هود:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

وترى لماذا هنا ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وفي تالية الآيات ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ و﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وفي (٢٦: ١٦١) ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وفي نوح هنا ﴿قَوْمِهِۦ﴾؟.

إن الرسل هم كلهم إخوان المرسل إليهم وهم كذلك إخوانهم وأقوامهم، فـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[1] تحلق القومية على كلّ المرسل

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

إليهم، ثم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[(١)] تحلق الإخوة عليهم، مهما كان التعبير عنهم بـ«قوم» أكثر بكثير من «أخ» فقد لا نجد التعبير بالأخ عن أولي العزم إلّا في نوح، وعلّه لأن قومه كانوا قلة قليلة مجتمعة في قطر واحد معه، فكان عشيراً لهم في عشرة وسواها.

وفي صيغة الأخوة عنايات عدة بين نسب وحسب، فأقرب النسب هو الأخوة النسبية، وتليها الأخوة الرضاعية، كما وأقرب الحسب هو الأخوة الإيمانية، وبينهما مراحل أوسعها الأخوة في الإنسانية، ثم في التكليف، ومن ثم في الوطن والعشيرة والعشرة والشغل.

فكلُّ رباط بين أشخاص يعبر عنه بالأخوة، أغربها الأخوة في أصل الإنسانية وأقربها الأخوة في صالح الإيمان، ومنها متوسطات.

ثم القوم هم جماعة مرتبطة هي أوسع من خاصة الأخوة، فلا يعبر عن الأخوة في النسب بالقوم، وإنما على العشيرة والمواطنين أنسباء وغيرهم في متعود التعبير، وعلى الذين تعنيهم رسالة الله في شرعة التعبير، فالأخوة - إذاً - هي أعم من القوم، ولا يعبر بها عن القوم الرسالي إلّا إذا كانوا محصورين في قطر خاص كقوم نوح: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[(٢)].

وعلى أية حال فلا تعني الأخوة هنا أخوة في إيمان، مهما كان في شركة التكليف أم سواها من مشتركات[(٣)] والقصد هنا إلى أقربها قرابة ومواطنة أماهيه، دون أغربها.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٠٦.

(٣) نور الثقلين ٢: ٤٥ عن تفسير العياشي عن يحيى الهمداني عن أبيه جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال: أنت علي بن الحسين؟ قال: نعم، قال: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه فقال: ويلك كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟ قال: قوله إخواننا قد بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم فقال: ويلك أما تقرأ القرآن؟=

وقد يُروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه لما حضر نوحاً الوفاة دعى الشيعة فقال لهم: اعلموا أنه سيكون بعدي غيبة يظهر فيها الطواغيت، وأن الله عزّ وجلّ سيفرج عنكم بالقائم من ولدي اسمه «هود» له سمت وسكينة ووقار، يشبهني في خَلقي وخُلقي(١).

ثم «هود» يذكر في أربعة مواضع بثلاث سور، وقومه «عاد» في أربعة وعشرين موضعاً و(١٨) سورة، وصيغة الدعوة هنا وصبغتها هي نفس الصيغة والصبغة لنوح والذين أرسلوا من بعده إلى خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم والجواب والإجابة هو نفس الإجابة والجواب، فالرسل برسالاتهم هم سلسلة موصولة على مدار الزمن كما المرسل إليهم، وكأنهم في الأكثرية الساحقة تواصوا في تكذيبهم عليهم السلام: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾(٢) ثم وقليل هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾(٣).

هنالك في نوح ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ وهم كلُّ الملإ، وهنا في هود ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ فهم قسم من الملأ دون الكلِّ، ثم هناك في نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وهنا في هود ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ والجواب صيغة واحدة تسلب الضلالة والسفاهة عن ساحة الرسالة القدسية دون إرجاعها إلى هؤلاء الضّلّال والسفهاء، حيث

= قال: بلى قال فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: ٧٣] فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشرتهم، قال له الرجل: لا بل عشيرتهم، قال: فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم وليسوا إخوانهم في الدين. قال فرّجت عني فرّج الله عنك.

(١) نور الثقلين ٢: ٤٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى علي بن سالم عن أبيه قال قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: . . .

(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(٣) سورة البلد، الآية: ١٧.

الدعوة الصالحة تتطلب تليّناً وجاذبية حتى تجد مسارح لتصديقها ومنافذ إلى تسريبها.

ذلك وعلّ فارق التعبير بين مواجهة قوم نوح عليه السلام إياه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقوم هود عليه السلام بـ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ علّه لأن كلّ الملأ من قوم نوح عارضوه اجتثاثاً لدعوته من أصلها، وإنها ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جمعاً بين السفاهة والجنة والكذب، ولكن قوم هود لم يعارضه منهم إلّا ﴿ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ دون كل الملأ، ولذلك خف التعبير هنا عما هناك حيث اكتفي فيه بـ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وعاد هم قوم سكنوا أرض اليمن بالأحقاف وهي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[1] وقد يأتي نبأهم الفصل في «الأحقاف».

وهنا زيادة لهم بذكرى قوم نوح ليذكروا: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ بما غرقوا فجعلكم خلائف من بعدهم تخلفونهم في هذه الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿وَزَادَكُمْ﴾ عليهم ﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ في بساط الأرض حيث أبسطتم ببسطة في ﴿ٱلْخَلْقِ﴾ في أنفسكم وفي بساط الأرض إذ رزقكم أكثر منهم وبسطكم أزيد منهم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا...﴾ استنكاراً لهذه الجيئة الرسالية ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من بأس الله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ ۝٧١﴾ هو الكفر والكفران، كما ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[2] أي

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

كفراً إلى كفرهم، ثم وهو أمر العذاب مهما يستقبل واقعه، حيث الحكم بالعذاب وإن قبل العذاب نفسه، هو رجس على رجس الكفر.

ثم ﴿وَغَضَبٌ﴾ من الله ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ﴾ ليست لها مسميات فهذه تسمية فارغة ألا تكون لها مسمى إلّا بادعاء خواء بواء، فالواقع الثابت ببرهان مفروض وإن لم يسمّ باسم، والمسمى بأي اسم دون واقع مرفوض. مهما توفرت له أسماء، حيث التسمية لا تحتاج بمجردها إلى معونة، إنما هو المسمى حيث يحتاج لإثباته إلى برهان، وذلك من البراهين القاطعة لنكران أمر مدعّى لا يملك من البراهين إلّا أسماء تُسمى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ حيث الألوهية الفرعية بالنيابة لا سلطان لها إلّا ما ينزله الإله الأصل، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الرجس والغضب من ربكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في هذه الرسالة ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ خاصة بالرساليين.

﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ برجس وغضب ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ آهلين للإيمان بما عاندوا وأصروا واستكبروا استكباراً، وقطع الدابر هو الاستئصال للأصل والنسل حيث ينسل من الصلب الدابر.

ولقد قطع الله دابر عاد بصاعقة تحملها ريح عقيم صرصر عاتية: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ...﴾[1].

﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾[2] - ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.
(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١، ٤٢.

سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾(٢).

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٦-٨.

(٢) سورة الفجر، الآيات: ٦-٨.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ
ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ
وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن
لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

تذكر ﴿ثَمُودَ﴾ (٢١) مرة في (١٦) سورة ويذكر «صالح» (٩) مرة في أربع سور، وعاد وثمود قوما صالح وهود هما من أنحس الكفرة المكذبة بالرسالات بعد قوم نوح، لم يسبق لهم مثيل في التاريخ الرسالي عن بكرته، ولذلك نرى كرور ذكرهم بذكرياتهم اللعينة في الذكر الحكيم ذكرى لأولي الألباب، وأخرى لآخرين ليذكروا.

و﴿ثَمُودَ﴾ من الثمد: الماء القليل، سموا به لقلة مائهم حيث كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وإن أباهم هو: ثمود بن عاد بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا...﴾ وهنا أيضاً صيغة الدعوة وصبغتها والمواجهة من طرفي الرسول والمرسل إليهم، ذلك المثلث فيها يشبه سائر الدعوات الرسولية، فهذه هندسة الدعوة الربانية على مدار الزمن الرسالي، حلقات متشابهة متشابكة ترسم سلسلة واحدة.

وهنا ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ تذكر كنموذج من نماذج الآيات الربانية تدليلاً على أنّ الرسل يحملون آيات رسالية بينة إضافة إلى أشخاصهم الخصوص فإنهم بأنفسهم بينات، وكما في مقال رسل المسيح عليه السلام للناكرين: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾(١) حيث التربية الخاصة الراصة الربانية الباهرة في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم، هي برهان لا مردّ له على رسالاتهم الربانية لمن نظر إليهم بعين عقله دون هواه.

ثم ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ هي من إضافة آية من الله إليه حيث أخرجها من الجبل، آية لهم مبصرة لعلهم يؤمنون، ومن جهة ثانية هي آية في عظم جسمها لأن ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٢) وليس شرب يوم لماء القرية كلّه إلّا لناقة عظيمة ما أعظمها؟.

ومن جهة ثالثة هي آية دائبة معهم ما لم يمسوها بسوء، يرونها ما دامت وداموا معها، فهي آية رحمة من هذه الثلاث، ثم هي آية عذاب إن مسوها بسوء.

هذه ناقة الله وتلك أرض الله وذلك رزق الله ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ

---

(١) سورة يس، الآية: ١٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٥.

ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ ضرباً أو جرحاً أم منعاً من شرب أو أكل أم راحة، وأسوأ من كلٍّ سوء قتلاً بعقر.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ حيث أهلكناهم وأخلفناكم بعدهم لننظر كيف تعملون، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تعيشونها خير بواء وإيواء حال أنكم ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعثى والعيث هما البالغة في الإفساد، بفارق أن العَثى أكثر ما تستعمل في الفساد المحسوس، والعيث في غير المحسوس، و﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ هنا تعني جمع الفسادين، وإنما عبر عنهما بصيغة الفساد المحسوس في الأكثر لأن أكثر المفسدين يفسدون في المحسوس والأقل منهم في غير المحسوس، قضية أن الثاني بحاجة إلى علم وعقلية بطرق الإفساد فطرياً وعقلياً وشرعياً أمّا هو، والأقلون من المفسدين هم الذين يحملون ذلك الإفساد، فقد جاء التعبير وفقاً للأقل والأكثر، و﴿مُفْسِدِينَ﴾ إفساد بعد بالغ الفساد في نوعيه، فقد تعني ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ المبالغة في كلا الفسادين البالغة إلى الإفسادين، وقد جمعوا بينهما، فعقر الناقة هو من عثاهم، وتكذيب الرسالة هو من عيثهم، كما ويذكران بعد النهي عن العثى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾.

ولقد كان من حق هذا الاستخلاف وهذه القوة والبصطة الزائدة أن تستوجب شكر النعمة والحذر من البطر واتقاء مصير الغابرين، ولكن لا حياة لمن تُنادي!.

وهنا من مكائد المكذبين استجوابهم المؤمنين بصالح، باستكبار واستنكار تهديداً وتخويفاً: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهم على استضعافهم يجيبونهم بكلِّ هدوء وجرأة إذ سكب الإيمان بالله قوة في قلوبهم وثقة في نفوسهم واطمئناناً في منطقهم فلا يخافون إلّا الله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ ثم هم أولاء: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وكأن كفرهم سنداً لكذب الرسالة، متّبع بين المستضعفين، ومن خلفيّات استكبارهم أمام صالح والمؤمنين تضعيفاً لساعد الإيمان ومساعده ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فعقر الناقة وهو الاستئصال في العمق حيث لا يبقى على أثر إمحاء للناقة عن بكرتها - إنه عقر - بزعمهم - لآية ربانية، فإذا زالت فقد زال كيان الرسالة بواجب إتّباعها فـ ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استئصالاً لرسالته باستئصال وعده بزعمهم فاستأصلوا هم بذلك الاستكبار الاستدبار ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: ساقطين على وجوههم وركبهم بكلِّ الوجوه، خامدين خاملين لا حراك لهم، فإن أصل الجثم هو السكون والخمود، فقد خمدت نيرانهم وسكنت حركاتهم.

وقد يتبيّن من ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أن لم يؤمن من مستكبريهم أحد، وإنما آمن البعض من مستضعفيهم، وكما هو طبيعة الحال في كافة الرسالات الإلهية أن المؤمنين هم من المستضعفين حيث يرونها تكفل حقوقهم وتظلّ عليهم ظلالها.

ذلك ولم يعقر الناقة إلّا واحد حيث ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾[1] وقد نسب عقرها إلى جمع الكافرين حيث شاركوه في البعث والتصميم في الصميم. وقد يجمع في هذه النسبة بين الذين بعثوا أشقاهم، والذين رضوا أم لم ينهوه وبين الذي عقرها، وكما في قصة السبت حيث ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾[2]

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١١-١٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

فبقي الباقون تحت وطأة العذاب، سواء الذين نهوا الناهين عن السوء أو الذين تركوا النهي عن السوء، مهما كانت عذاباتهم مختلفة.

ولقد قرر لهم ولها شرب عادل حيث كان ماؤهم: ﴿ثَمُودَ﴾: قليلاً:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾[1].

ذلك ﴿... فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ ﴿٧٩﴾﴾ بعد جثومهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وتراه كيف خاطبهم وهم جثوم؟ خاطبهم حيث يسمعون بعد موتهم وذلك لهم تحسر بالغ، وكما خاطب النبي ﷺ قتلى بدر فقيل تتكلم مع هؤلاء الجيف؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب.

أم وخاطبهم وهم على أشراف جثومهم، وقد تشهد له ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ولكن الكافر يموت على خصائله، فكما كان قبل موته لا يحب الناصحين كذلك بعد موته مهما تطلب الرجوع لكي يعمل صالحاً غير الذي كان يعمل، فإنه كاذب على أية حال، في كلّ حلٍّ وترحال.

ذلك، وحب الناصحين دليل على استقامة الفطرة وسلامة السبحية مهما كان صاحبها ضالاً ولمّا يجد هادياً يهديه.

لقد «أخذتهم الرجفة» و«الطاغية» و«الصيحة» حسب مثلث التعبير في آيات ثلاث، والجمع هو أن هذه «الصيحة» كانت «طاغية» لحدّ خلفت «الرجفة» المدمرة المزمجرة وكما يروى «فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ عليهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٥٥-١٥٨.

أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ثاغية ولا راغية ولا شيء إلّا أهلكه الله فأصبحوا في دارهم جاثمين، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين»(١).

(١) نور الثقلين ٢: ٤٩ في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يذكر فيه قوم صالح كما سيأتي تفصيله في تفسير سورة هود، يقول في آخره: فلما كان..

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم
مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ :

يأتي «لوط» في (٣٧) موضعاً في (١٤) سورة، وهنا إجمال عن دعوته بمحورها السلبي: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مما يدل على أن هذه النكرى لم يسبق لها نظير في زمن أي بشير ونذير أن تصبح عادة متجاهرة متعوّدة كما الزواج، في غابر الجاهليات والهمجيات، اللّهم إلّا في جاهلية القرن العشرين حيث تمضي كمادة قانون في البارلمان البريطاني!.

ذلك المراس لفاحشة اللواط بكلِّ حراس واكتراس، المنقطع النظير في

تاريخ الإنسان، مما جعل محور التنديد في هذه الرسالة الفرعية استنكاراً لها وحواراً متواصلاً بشأنها كما نجدهما بطيات آياتها.

وهنا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ يعني الإسراف الذي ينددهم به لوط في اللواط، تجاوزاً حدّ الفاحشة إلى ما لا حدّ لها، حيث يريقون الشهوة ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب(١)، فهي مجرد شهوة شاذة متخلفة، غريبة عن الفطرة الإنسانية بل والحيوانية.

---

(١) لقد فصّلنا القول حول حرمة إتيان النساء من أدبارهن على ضوء قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣] وهذا هو الذي أمركم الله سماحاً لأنه بعد حظر حيث وعد قبلها: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢] وأوردنا متواتر الأثر عن النبي ﷺ إن المأتية من دبرها هي اللوطية الصغرى، ومما ورد في ذلك ما في الدر المنثور ٣: ١٠٠ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي عليه السلام أنه قال على المنبر: سلوني، فقال ابن الكوا: تؤتى النساء في أعجازهن؟ فقال علي عليه السلام: سفلت سفل الله بك ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعرَاف: ٨٠]. ورواه عنه عليه السلام في تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت، أقول: فاحشة إتيان الرجال من أدبارهم لا تعني إلّا الإفراغ في غير موضع الإخصاب، فهي محرمة في النساء كما في الرجال مهما اختلفت دركات الفحشاء فيها، وهكذا المساحقة لأنها عملية غير مخصبة وكما أخرجه في الدر المنثور عن أبي حمزة قالت قلت لمحمد بن علي عليه السلام: عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ قال: الله أعدل من ذلك استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، أقول: وهكذا العادة السرية فإنها في غير إخصاب، ولا ينافي في ذلك حلّ ملاعبة النساء حين تمني لأنها في طريق إتيانهن، كما وأن الإفراغ منهن ما لم يكن لغرض انقطاع النسل مسموح حيث الباب باب الإخصاب وليس يجب الإخصاب من بابه على الدوام، إنما الممنوع انقطاع النسل كما في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان وعلة تحريم الذكران للذكران والإناث للإناث لما ركب في الإناث وما طبع عليه الذكران، ولما في إتيان الذكران الذكران والإناث الإناث من انقطاع النسل وفساد التدبير وخراب الدنيا.

وفي الدر المنثور حول حرمة اللواط عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: إن من أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: أربعة يصبحون في غضب الله ويمسون في سخط الله قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: المتشبهون من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال والذي يأتي البهيمة والذي يأتي الرجل.

وفيه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل=

تلك جاهلية في القرون الغابرة، وإذا نحن بجاهلية القرن العشرين في أوروبا وأمريكا حيث ينتشر فيهما وما أشبه ذلك الانحراف الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً دون أي مبرر إلّا الإباحية الطليقة المطبقة.

ومن الجاهليات المتحضرة التي تُبيح ذلك الشذوذ الجنسي هي دعوى عريضة تُوجهها الصهيونية العالمية: أن احتجاب المرأة هو الذي ينشره، ولكن شهادة الواقع تعكس الأمر أن خلاعة النساء وتعريهن مما يشجع على ذلك الشذوذ، ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الطليق بين الجنسين، يتسافدون كما تسافد البهائم وليس هناك أحد يقول لأحد مه مه.

ثم نرى أن فاحشة اللواط يرتفع معدلهما بارتفاع معدل فاحشة الزنا بحرية الجنسين الطليقة، لحدّ تجاوزت إلى حرية الاكتفاء لكلٍّ جنس بجنسه، ذكر مع ذكر وأنثى مع أنثى، بل ومع الحيوان أيضاً، ومن أراد واسع الاطلاع على تلك الحرية البشعة فليقرأ «السلوك الجنسي عند الرجال» و«السلوك الجنسي عند النساء» في تقرير «كنزي» الأمريكي.

ذلك، ولكن الأجهزة الدعائية المضللة لا تزال تردّد هذه الأكذوبة:

إن العادة السرية واللواط وما أشبه مسنودة إلى حجاب المرأة، لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون ووصايا مؤتمرات للمبشرين من دور دائر مائر للبربرية الجنسية دون حدود.

= والمفعول به وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لعن الله سبعة من خلقه فوق سبع سماوات فردّد لعنته على واحدة منها ثلاثاً ولعن بعد كلّ واحدة لعنة لعنة، قال: ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من أتى شيئاً من البهائم ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ملعون من عق والديه ملعون من ذبح لغير الله ملعون من غير حدود الله ملعون من تولى غير مواليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل والمفعول به، وعن عائشة أنها رأت النبي ﷺ حزيناً فقالت: يا رسول الله وما الذي يحزنك؟ قال: شيء تخوفته على أمتي أن يعملوا بعدي عمل قوم لوط.

تلك جاهلية في القرون الغابرة، وإذا نحن بجاهلية القرن العشرين في أوروبا وأمريكا حيث ينتشر فيهما وما أشبه ذلك الانحراف الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً دون أي مبرر إلّا الإباحية الطليقة المطبقة.

ومن الجاهليات المتحضرة التي تُبيح ذلك الشذوذ الجنسي هي دعوى عريضة تُوجهها الصهيونية العالمية: أن احتجاب المرأة هو الذي ينشره، ولكن شهادة الواقع تعكس الأمر أن خلاعة النساء وتعريهن مما يشجع على ذلك الشذوذ، ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الطليق بين الجنسين، يتسافدون كما تسافد البهائم وليس هناك أحد يقول لأحد مه مه.

ثم نرى أن فاحشة اللواط يرتفع معدلهما بارتفاع معدل فاحشة الزنا بحرية الجنسين الطليقة، لحدّ تجاوزت إلى حرية الاكتفاء لكلٍّ جنس بجنسه، ذكر مع ذكر وأنثى مع أنثى، بل ومع الحيوان أيضاً، ومن أراد واسع الاطلاع على تلك الحرية البشعة فليقرأ «السلوك الجنسي عند الرجال» و«السلوك الجنسي عند النساء» في تقرير «كنزي» الأمريكي.

ذلك، ولكن الأجهزة الدعائية المضللة لا تزال تردّد هذه الأكذوبة:

إن العادة السرية واللواط وما أشبه مسنودة إلى حجاب المرأة، لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون ووصايا مؤتمرات للمبشرين من دور دائر مائر للبربرية الجنسية دون حدود.

= والمفعول به وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لعن الله سبعة من خلقه فوق سبع سماوات فردّد لعنته على واحدة منها ثلاثاً ولعن بعد كلّ واحدة لعنة لعنة، قال: ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من أتى شيئاً من البهائم ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ملعون من عق والديه ملعون من ذبح لغير الله ملعون من غير حدود الله ملعون من تولى غير مواليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل والمفعول به، وعن عائشة أنها رأت النبي ﷺ حزيناً فقالت: يا رسول الله وما الذي يحزنك؟ قال: شيء تخوفته على أمتي أن يعملوا بعدي عمل قوم لوط.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ وهنا يصبح التطهر سبباً لإخراج المتطهرين من قريتهم حتى يخلو جوّها للملوثين الدنسين، وذلك منطلق الجاهلية في كلِّ حين، من الجاهلية الغابرة إلى جاهلية القرن العشرين، حيث تطارد المتطهرين كيلا تراهم يخالفونهم في انغماسهم وانطماسهم في خضم الشهوات والمنكرات، ليتم الجوّ ويطم ما هو يطلبونه من المستنقعات العفنة.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من هذه القرية القذرة ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ القذرين ثم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ من العذاب التباب ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا ثمرات الحياة وقطعوها قبل إيناعها فأفسدوها عن بكرتها، وهنا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين المجرمين، جزاءً لهم وفاقاً وتبصرة للمتبصرين، ثم:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ
إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ
وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا
تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ
بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ
ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ
بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ
لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ
أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ
إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ
وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا
إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ
﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي
وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي

قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ
وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟
وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ
نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ
﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ
﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ
أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ
ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟
لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ
لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

هنا آيات تسع تتحدث عن رسالة شعيب وما واجهه به قومه وما نقم الله به منهم ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

يذكر شعيب في إحدى عشرة آية بست سور، وهنا تفصيل أكثر وبيان أوفر لرسالته ببيعته وملابساته، وشعيب هذا من الرسل الإبراهيميين وقد زوج إحدى ابنتيه موسى عليه السلام حيث فرّ إلى مدين وبقي معه عشر سنين ثم ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾(١).

(١) سورة طه، الآية: ٤٠.

والرسالة الشعيبية كانت محصورة في مدين وهي قرية صغيرة يُروى أنها «لا تكمل أربعين بيتاً»(١). ولكنها قد تُنافي ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾(٢) حيث الأربعين ليست كثيرة لأهل قرية، اللهم إلّا أن تعني «البيت» القبيلة التي قد تكون من مئات الأفراد.

ثم في أصحاب الأيكة: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾(٣).

رسالة محصورة في هذين، محسورة عن سائر القوى، إذ لم تكن تحمل ولاية عزم تحلق على كلّ القرى.

ذلك ولقد بلغ من بالغ دعوته في رسالته أن يقول فيه الرسول ﷺ: «ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يرادهم به...»(٤).

---

(١) نور الثقلين ٢: ٥١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل يقول في آخره: وإن الأنبياء بعثوا خاصة وعامة، أما شعيب فإنه أرسل إلى مدين وهي لا تكمل أربعين بيتاً.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٦.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٧٦-١٩٠.

(٤) الدر المنثور ٣: ١٠٣ - أخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن ابن إسحاق قال: ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال: ذاك.. فلما كذبوه وتوعده بالرجم والنفي من بلاده وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له عمرو بن حلهاء لما رآها قال: =

وهنا بين القريتين مشاركات في دعوته الرسولية هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وترك الإخسار والبخس والإفساد في الأرض، ثم ومفارقات هي هنا: القعود بكلِّ صراط إيعاداً، والصدِّ عن سبيل الله، وهناك الأمر بتقوى الله وطاعته، وعدم سؤال أجر على رسالته.

فقد كانت مهمة رسالته هنا وهناك الدعوة إلى توحيد الله، وترك الإفساد اقتصادياً، وترك الإفساد في الأرض في كلِّ أبعاده، وهنا إضافة النهي عن القعود بكلِّ صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله، مما يدل على أن القريتين كانتا مشتركتين في الفساد العقيدي والاقتصادي، مهما اختلفتا في بنود أخرى من التخلفات عن شرعة الله.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ مواطنةً أم وقرابةً، وهذه الدعوة الرسولية هي كسائر الدعوات بازغة بالتوحيد بنفس الصبغة والصيغة السائغة، القاعدة التي يعلم أن منها تنبثق كلّ مناهج الحياة وكلّ أوضاعها، كما أن منها تنبثق كلّ قواعد السلوك والخلق والتعامل، فلا تستقيم الحياة بحذافيرها إلّا بقاعدة وحيدة غير وهيدة هي قاعدة التوحيد الحق بحق التوحيد.

= يا قوم إن شعيباً مرسل فذروا — عنكم سميراً وعمران بن شداد
إني أرى عينه يا قوم قد طلعت — تدعو بصوت على صمانة الواد
وأنه لا يروى فيه ضحى غد — إلّا الرقيم يمشي بين أنجاد

وسمير وعمران كاهناهم والرقيم كلبهم.

وترى ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هي بينة الفطرة والعقلية السليمة على توحيد الله؟ وهي ليست بينات كافية لولا أن تتزود بينات رسالية.

ثم ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ. . .﴾ تفريعاً عليها تؤكد أنها بينة لهذه الرسالة الشعيبية، حيث إن أصل التوحيد وما أشبه من أصول الدين ليست قضيتها المستقيمة اللازبة تقبُّل الفروع!.

فقد يتبيّن من ملابسات ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذه، أنها بينة خاصة لهذه الرسالة، مهما أجمل عن نوعيتها، كما ولم يتبيّن من آيات أخرى بشأن شعيب ما هي نوعية بينته الرسولية، وهنا البينة الحاضرة هي الرسالة اللّامحة من شعيب نفسه وكما قال رسل المسيح عليه السلام: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[1] حيث الرسالة الربانية ظاهرة فيهم، باهرة في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم.

ولأنهم كانوا متورطين في إفساد اقتصادي وآخر عقيدي بحذافيره، لذلك فرع الأمر بإيفاء الكيل والمناهي اللاحقة له بـ ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

فقد كانوا يطففون في المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، فركز التنديد - بعد الدعوة إلى التوحيد - على ذلك الثالوث السالوس.

وهنا ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ المحلقة على كل أشيائهم، دون «أموالهم» - فقط - تلمح أنهم كانوا يبخسون الناس وينقصون كلَّ أشيائهم وهي النواميس الخمس نفساً وعقلاً وديناً ومالاً وعرضاً، وكما يفسره النصان التاليان: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ. . . وَتَصُدُّونَ. . .﴾.

وأما ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهل يعني حاضر

(١) سورة يس، الآية: ١٦.

الإيمان كما تلمح له ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؟ وهم لمّا يؤمنوا كلهم كما هو صراح تالية الآيات! أم يعني من آمن منهم؟ ولا يختص التكليف بخيريته بهم!.

قد يعني الإيمان هنا جعل أنفسهم في أمن من زعزعات تطفيف المكيال وبخس الأشياء والإفساد في الأرض، فإن حياة الأمن مما يهواه كل الأحياء مؤمنين رسميين أم كافرين، أم وتعني ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بأصل الألوهية مهما كان بإشراك، حيث الإيمان بالله مهما كان بإشراك، من قضاياه اتباعه فيما يرجع إلى أمن الحياة ورغد العيش.

أجل ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ...﴾ إنما يوفى حقه بحاضر الإيمان الموحّد بالله وبرسالاته، فلأن الخطاب هنا يعم أهل مدين كلهم، وفيهم من آمن رسمياً وفيهم من كفر، فقد تعني ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لكلّ حسب إيمانه، وهو لأقل تقدير لغوية الإيمان الطليق أن يؤمنوا أنفسهم من زعزعات الحياة فيأمنوا.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)﴾:

﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ هنا تشمل كل جادة جادّة، ظاهرية وباطنية، فصراط الفطرة والعقلية السليمة وصراط الشرعة الربانية، أم صراط العبور للناس إلى حوائجهم، وكلّ صراط إلى الحيوية الإنسانية والإيمانية، كلها معنية من ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ حيث ﴿تُوعِدُونَ﴾ سالكيها إيعاداً، ومنه الصراط إلى شعيب بدعوته، ومن جراء ذلك الإيعاد الإبعاد ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ بغي القصد وبغي الظلم، أن تسلكوها وتُسلكوا إياها عوجاً، أم تتخذوها عوجاً لكم ولمن يسلكونها ﴿وَاذْكُرُوا﴾ أنتم البغاة الطغاة

﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ في عدة وعُدة تتخطفون ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ ربكم فأصبحتم تتخطفون، فبدّلتم نعمة الله نعمة وكفراً وأحللتم أنفسكم وقومكم دار البوار. جهنم تصلونها وبئس القرار ﴿وَانظُرُوا﴾ أنتم ولينظر غيركم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، فاعتبروا بالمفسدين قبلكم كقوم نوح وعاد وثمود: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾(١) - ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾(٢) ﴿... فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾(٣) ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤).

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

وهنا ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ وهم الملأ المستكبرون، قد حسبوا أنفسهم سادة وقادة، فخُيِّل إلى المؤمنين ما يخرجهم عن الاصطبار أمامهم، فأمروا وإياهم بالصبر، صبراً للذين آمنوا لكي يروا وعد الله، وصبراً للذين لم يؤمنوا حتى يروا وعيده ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ حكماً هنا وآخر في الأخرى، ولكن الطغاة ما صبروا حتى قالوا قولتهم وغالوا غولتهم الهاتكة الفاتكة:

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٣٨-٤٠.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٥.
(٤) سورة القصص، الآية: ٥٨.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

لقد دعاهم شعيب إلى أفضل خُطة وأعدلها وهي آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، وهي نقطة الانتظار لعاقبة الكفر والإيمان هنا قبل الأخرى، تريّثاً وتعايشاً بغير ما أذى وترك كلٌّ لحاله وقاله حتى يأتي مآله ولكن الطواغيت لا يُرضيهم إلّا استئصال الإيمان والمؤمنين حيث يهددون سلطانهم، ويحددون شهواتهم، إذاً فليخرجوا سراعاً.

وترى ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ تعني أنهم كلّهم كانوا في ملة الإشراك بحذافيره ومخلفاته البئيسة؟ والأنبياء بريئون من الإشراك أياً كانوا وأيّان!.

﴿مِلَّتِنَا﴾ إن عنت ملة الإشراك فذلك تخيّل منهم أنهم كانوا في ملتهم إذ كان شعيب في تقية لا يظهر إيمانه، ثم جاراهم في ذلك التخيّل بـ ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، ولكن القرآن البيان يحيد عن تلك المجاراة دون تأشير إلى باطل ظنهم، حيث تخيّل أن شعيباً كان في ملتهم كالذين آمنوا معه!.

أم هو حقيقة وتعني ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ عود المجموع لا الجميع حيث كان شعيب داخل جمعهم، فـ «تعودن» تعني ذلك المجموع وإن ظل شعيب على إيمانه الذي كان حيث اليد الواحدة لا تصفق، وهذا استعمال متعود أن ينسب فعل البعض أو تركهم إلى المجموعة، فضلاً عن يكون الفاعل أو التارك كلهم إلّا واحداً منهم، إذاً فـ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ صادق تماماً في عود الجميع إلّا واحد هو شعيب، إذ ليست هنا صيغة تستغرق الكل دونما استثناء، وإنما صيغة الجمع ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ ويكفيه عود جماعة ودون النصف منهم فضلاً عن الكل إلّا واحد منهم.

ولكن يبقى سؤال أن ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾ نص على دخول شعيب في ملتهم حيث ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ تعنيه معهم لذلك النص؟

بل وشعيب نفسه هو رأس الزاوية في ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ لاختصاصه بالذكر قبلهم.

أم تعني الملة السلطة الزمنية إذ هم خرجوا عنها بسلطان التوحيد الجاهر بعد تقاة، وهؤلاء يتطلبون منهم العود في تلك السلطة مهما ظلوا مؤمنين أم رجعوا - إلّا شعيب - كافرين.

وعلى أية حال فلا نص هنا ولا ظاهر أو لمحة أن شعيباً كان في ملة الإشراك قبل رسالته، ومجرد الاحتمال الصالح حيث تحتمله الآية، كاف في تنجزه، حيث الاصطفاء والاجتباء بحق الرسل، المذكوران لهم في القرآن، إنه برهان صارم لا مردّ له، أنهم يصطفون من جموع الموحدين، فسابقة الإشراك لهم تناحر واصطفاءَهم.

إذاً فـ ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ لا تعود بمزرأة على شعيب ما دام احتمال عناية السلطة الزمنية من ﴿مِلَّتِنَاۚ﴾ قائمة، أم والملة الروحية بعود الذين آمنوا معه فيها دونه عليه السلام أم وعوده فيها مجاراةً لتخيل أنه كان فيها، ثم وليس القرآن ساكتاً عن تزييف ذلك التخيل الزائف الهارف الخارف، لمكان عساكر الآيات الدالات على سابقة الرسل السابغة بخالص الإيمان.

فالمرفوض - إذاً - بين المحتملات في ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ أنه عليه السلام كان في ملة الإشراك فيطلب منه العود فيها حتى لا يخرجنّ، وتبقى سائر المحتملات قائمة على سوقها، وكلها صالحة للعناية.

فـ ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ الزمنية تقية، لا تمس من كرامة إيمانه من ذي قبل.

وكذلك ﴿فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ زعماً منهم أنه كان مشركاً كما هم إذ كان في تقية من دينه، والجوّ الرسولي في القرآن بيان لمحتد الرسل قبل ابتعاثهم أنهم مصطفون، فهو نقض لهذه التخيلة القاحلة.

وهكذا ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ واقعاً حيث يستثنى شعيب نفسه عن المخاطبين بـ ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ فإنه جمع يتحمل الاستثناء، مهما لم يتحمله ﴿يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾ فإن شعيباً مستثنى بمحتد الرسالة المعنية بالقرآن عن أن يكون قبلها في ملة الإشراك.

ذلك، وذلك التطلب البعيد القاحل لم يكن ليختص بقوم شعيب، بل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[1] [2].

﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ فأنتم تكرهوننا على العود في تلك الملة المشركة زمنياً أم روحياً أم فيهما معاً.

و«لو» هنا مجاراة تعني حتى على فرض استحالة كراهيتنا للعود في ملتكم رغم زعمكم، فلتفرضوا أننا لا نكرهه فتفرضوا علينا تلك العودة، ولكن ماذا إذا كنا كارهين كراهية بساطع البرهان، فقاطع الإيمان، فـ «لو» هنا تنديد بحتمية ذلك العود.

فالحمل على العود في ملة غير مرضية إبطالاً لحرّية الانتخاب، الحريّة لكل إنسان، إنه حمل يخالف الفطرة والعقلية والخيرة الإنسانية.

فلو أنكم حملتمونا على ذلك العود ببرهان يقنع لكنا عائدين، ففي عودنا دون أي برهان، وهناك ساطع البراهين تمنعنا عنه، إن فيه افتراء على الله، حيث القضية الرسالية وعلى هامشها القضية الإيمانية أن ذلك العود إنما هو بأمر الله:

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) راجع تفسير الفرقان آية ٤١: ٤٥ ج ١٣ - ١٤.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

فهذه فرية وقحة على الله ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ على إيماننا، فإن ضفة الإيمان - الصالح غير الكالح - وصفته، تمنعان عن العود إلى اللّاإيمان، فكما أن قالات الإيمان وحالاته وفعالاته هي من قضايا الإيمان، فعودنا إلى ملتكم - إذاً - هو أيضاً من قضايا الإيمان وذلك افتراء على الله أنه يأمرنا بذلك العود ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ فقد نجانا من ملة الإشراك زمنياً وروحياً فكيف نعود - إذاً - فيها ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ بصفة الإيمان ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ لكي يكون العود أيضاً بصفة الإيمان، على ضوء مشيئة الله، فها نحن مستسلمون لله خروجاً أم عوداً.

صحيح أن الله لا يشاء ولن. أن نعود فيها، ولكن مشيئته الطليقة بعد حاكمة حكيمة، فلو شاء لنا الإشراك لأشركنا بأمره وهو - إذاً - من التوحيد، كما شاء لنا التوحيد فوحّدناه بأمره، فنحن على أية حال تحت أمره وإمرته ورهن إشارته ومشيئته قضية كامل الإيمان وشامله.

وذلك أدب ولي الله مع الله أنه لا يمشي على هواه وإن كانت في عدم العودة إلى ملة الإشراك، فلذلك يستثني عدم عودته إليها بمشيئة الله! فلأن قضية الإيمان الصادق بالله ومشيئة الله هي التوحيد لله وعدم الانخراط في سلك المشركين بالله ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ اللّهم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أن نعود فيها، فالعودة - إذاً - هي قضية الإيمان بالله، وهي من توحيد الله في طاعته وعبادته، كما الخروج عنها قضية الإيمان، وقضية التسليم السليم لله أن نأتمر بأمر الله خروجاً وعوداً دونما وقفة لنفكر ما هو المغزى هنا وهناك، فإنه - إذاً - عبادة العقلية والمصلحية، دون خالص العبودية لله.

أجل وذلك هو رسم العبودية الوحيدة غير الوهيدة ألا يمنع العبد أي مانع منها مهما كان قاطعاً لا حول عنه، ومن أمثاله الأمثال قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل، حيث البراهين كلها معسكرة على حرمته، ولكن أمر الله تعالى يغضي كلها، بارزاً وحيداً في الميدان.

ففيما تعلم مصلحة في أمر من الله أو نهي فالطاعة سهلة، وفيما لا تعلم مصلحة ولا مفسدة، فهي صعبة، وأما فيما تكرس الآيات آفاقية وأنفسية أن فيه مفسدة ولكن الله يأمرك به دون ريبة، فالطاعة صعبة ملتوية، وهنا لك البلية العظيمة التي، الساقطون فيها كثير، والناجحون قليل قليل.

وهنا الجمع بين اسمي الله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَآ﴾ للتدليل على أن قضية ربوبيته الشاملة التسليم له كما يشاء، ولو شاء الإشراك أم أياً كان من ملة من الملل، أو نحلة من النحل.

فألوهيته تقتضي توحيده، كما هو قضية ربوبيته، فهو الواحد إلهاً وهو الواحد رباً، فلو شاء أن نشرك به وهو الواحد في ربوبيته، أو أن ندخل في ملة الإشراك زمنياً تقية أماهيه من مبرر، لكنا داخلين قضية التسليم الطليق لله ربنا.

فنحن المجاهيل و﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فلو يعلم أن في العود في ملتكم خيراً فأمرنا به لعُدنا، ولكنه لا يعلم فيه خيراً إذ ليس فيه إلّا شر: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(١)] ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] - ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(٣)]. وعدم علمه بشيء يوازي عدم ذلك الشيء.

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.

ولأن الله لا يشاء أن نعود في ملتكم ولن، فنحن إذاً صامدون في توحيده وفي الابتعاد عن ملتكم روحياً وزمنياً، فلن ندخل - إذاً - في ملتكم أبداً.

وحين تهددوننا بإخراجنا من قريتكم - كأنها هي قريتكم دوننا - فليست العقيدة الصالحة تنثلم وتتلعثم أو تتزعزع أمام أي تهديد ووعيد فـ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا سواه، وإليه انقطعنا لا سواه ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

ذلك، ونفس العود في ملة الإشراك هو افتراء على الله، كأن لا خير في ملة التوحيد قضية طبيعة الحال في التحيز بين الملتين، فاختيار ملة الإشراك على ملة التوحيد.

فهاتان - إذاً - فريتان على الله، إحداهما قضية الإيمان، وكأنه يأمرنا بتلك العودة، وأخراهما قضية التحيز المجرد عن الإيمان والإشراك مهما كان حالة الإيمان.

أجل، وإن تكاليف الخروج عن ملة الطاغوت - مهما عظمت وشقت - هي أقل وأهون من تكاليف الدخول في ملته.

فالدخول في حكم الطاغوت خروج عن نواميس الإنسانية كلّها حيث يذبح أتباعه على مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته ومناه، ثم يكلفهم عقولهم وعقائدهم وأموالهم وأعراضهم - بإعراضهم عن الله - لحدٍّ لا يملك والد ما ولده، ولا فتاته عن الدعارات وسائر العارات، وكلّ ما يملك بخطواته عن حركاته الصالحة كلها.

ذلك، وإلى إجابة نكدة من هؤلاء الأنكاد، لا تحمل إلّا تهديداً خاوياً:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

وهذه دعاية مستكبرة لعينة ضدَّ الرسالة الشعيبية تهدد أتباعه بالخسران

دون بيان أنه ما هي ماهية هذا الخسران، ليذهب بال المؤمن أي مذهب من ألوان الخسران: ديناً ونفساً ومالاً وعقلاً وعِرضاً وأرضاً أما هو من خسران يبتعد عنه أي إنسان، ولكن الإيمان الصامد كان قد أخذ موضعه من شغاف قلوبهم فلا يقلّبهم عنه أي كان، ثم كان عاقبة هؤلاء الأنكاد:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

دون حراك حيث خمدت نيرانهم وجمدت ثيرانهم وغيرانهم، فـ :

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾:

لقد أرادوا إخراج شعيب والذين آمنوا معه بكلِّ إحراج، فأخرجهم الله من حياتهم وقريتهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾: فلم يعمروا هذه الدار ولم يطل مقامهم فيها[1]، وكأن لم يكن لهم فيها آثار، حيث أخذتهم الرجفة بعمارهم وآثارهم مع أنفسهم البئيسة التعيسة، فلقد انطوت صحيفتهم عن صفحة الكون مشيعة بالتبكيت والإخمال، والمفارقة والانفصال.

ولعل في كتاب حبقوق النبي عليه السلام الباب الثالث الآية السابعة إشارة إلى رجفة مدين السالفة إضافة إلى المدائن الكسروية بميلاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصها بالأصل الكلداني كالتالي:

«چاذِرى دِكُوشَن بَرْكَدْ يِرْدِدْ اَرْعا دِمِدْيَنْ»:

لقد تزعزت الچوادر والخيم في مدين.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

(١) غنى في مكان: إذا طال مكوثه فيه مستغنياً به عن غيره مكتفياً به.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ وهم في قبضة الرجفة، ولمّا يموتوا، كما ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ بعد أن ماتوا وقال ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أصلية وفرعية بكلِّ بلاغ بالغ وبيان فائق، ثم ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ بعد البلاغ، جمعاً للنصح إلى بلاغ الحجة البالغة، تليينأ لما تصلّب منكم، من أدمغة وخراطيم مستكبرة فيكم وهي بعد عليكم، ولم آل جهداً في إنجائكم ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ ولا يعني الأسى عليهم - إذاً - إلّا ما عساه نكران لعدل الله وحكمته، أم نقصان في بلاغ رسالته!.

ذلك، وهذا الخطاب العتاب باستفهام الإنكار، عذاب لهم فوق العذاب، سواء أكان عند نزول العذاب ولمّا يموتوا، أم وبعد موتهم، إعلاناً ببلاغ الحجة دون قصور فيها أم تقصير، وإعلاماً بأن لا مجال للأسى عليهم فإنهم عامدون عاندون في النكران، فمستحقون لعذاب الاستئصال.

أفبعد إبلاغ الرسالة والنصيحة يؤسى على قوم كافرين، ولا يؤسى على المستحق بالعدل والحكمة الربانية، حيث الأسى - إذاً - عساها استرحام على من جرى بحقه حكم الله!.

هنا وقفة للتعقيب على ذلك القصص وأضرابه، كشفاً عن خطوات ربانية من قدر الله بالمكذبين بالدين كيف يأخذهم في تقلّبهم وتغلّبهم بزعمهم وهم غافلون يلعبون أو نائمون.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾:

﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ هما الأفعل من البائسة والضارة، وصفان لمحذوف أفضله الحالة، أو الحياة، ثم البأساء بأس في النفوس قلقاً واضطراباً، والضراء ضرّ في الأبدان والأموال والأولاد، فقد شملتا مضرة الروح والجسم فيما تحلقان على كلِّ كيان الإنسان.

وهذه الأخذة الربانية هي من مخلفات التكذيب بالنبيّين، أخذاً بالبأساء البائسة والضراء الضارة الضارعة في أحوال وأموال وبنين ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ إلى الله تائبين، فلما عتوا وبغوا وبقوا على تكذيبهم حيث لم تذكرهم البأساء والضراء: السيئة، جازيناهم بما تزيدهم سيئة العتو والغفلة الغفوة:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

فهنا ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ بأساء وضراء المذكّرة ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ الظاهرة المزمجرة أكثر من السيئة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ ونموا في متطلبات حياة الحيونة المريحة، فظنوا أنهم في رحمة من الله مهما عتوا، ويكأن العتو مرضي لله حتى ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾: ضرّ وسرور، فهما يمسنا إذ هما فوضى جزاف لا يعنيان كرامة أو مهانة، فلا علينا أن نستمر في الكفر والكفران، ولأننا قد نكون مكرهين بالحسنة مكان السيئة ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾ أخذة مزمجرة مدمرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ موقفهم، و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خطأهم و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ استحقاقهم و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ نزول العذاب عليهم إلّا حين نزل إذ كان مباغتاً، وعلى الجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ إلّا فوضى، فلا يعني بلاء السيئة ولا جزاءً في حسنته وسيئته، بأساء وضراء، والحسنة سراء عبثاً أن يأخذ الله عباداً له بشدة في أنفسهم وأرزاقهم وأموالهم، ولا لإرواء غلة ولا شفاء إجنة أم يأخذهم بسراء مرحية مرخية تعطفاً عليهم بل هما بلاءان مختلفي الصورة، وإنما لإيقاظ فطرة نائمة وترقيق قلوب طال عليها الأمد ما كانت فيها بقية: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا...﴾[1].

(١) سورة الفجر، الآيات: ١٥-١٧.

كما ولا تعني الحسنة مكان السيئة واليسر مكان العسر والنعمة مكان الشظف، وعلى الجملة العفو الزيادة مكان النقيصة، إنها لا تعني إلّا جزاءً وفاقاً إن لم يضّرّعوا بالبأساء والضراء، فبلية الحسنة أصعب من بلية السيئة، ولذلك ترى أكثر الساقطين في البليات هم من المنعَمين حيث يكثرون وينتشرون، مسهلين العيش، متيسرين الحياة، معذِّرين تخلفاتهم أمام الله، فقد تعني ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ إلى جانب غورهم في زخرفات الحياة، اعتبارهم أنفسهم معفيين عن المسؤوليات، إباحيين في اللذات والشهوات، عائشين - إذاً - اللّامبالاة الطليقة، فكلٌّ ما يصدر منهم عفو بلا أي تحرج أو مبالاة، فقد عفوا في أنفسهم وأموالهم وأولادهم نماء، وعفوا عفواً ولأن العفو تأتي بمعاني: الزيادة والانتقاص لازمة، وبمعنى التجاوز متعدية بـ«عن»(1) فطليقة ﴿عَفَواْ﴾ كما هنا قد تعنيها كلّها وفقاً لأدب اللفظ وعناية المعنى، فقد ﴿عَفَواْ﴾ بتلك الحسنات بعد السيئات زيادة ونمواً في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومحاصيلهم، فعفوا انتقاصاً على نقصهم في نقضهم عهد الله، ثم ازدادوا عفواً حيث عفوا عن سيئاتهم أنفسهم بإباحية طليقة وكأنها مشروعة مرضية لله ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ قصداً إلى أنهما ليستا جزاءً وفاقاً لسيئات أو حسنات، إذ لم تكن لآبائنا حالتان مختلفتان تستجران الجزاءين هذين المتقابلين، وكذلك الأمر فينا نحن، فذلك جريان طبيعي في إقبال الدنيا وإدبارها دونما رباط لهما بحسنات أو سيئات، أم إن ذلك فوضى جزاف من الله دون أن تكون الضراء والسراء خلفية ربانية للسيئات والحسنات.

---

(١) فقد جاء العفو لكلا النمو والانتقاص فهم انتقصوا في نموهم ونموا في انتقاصهم، يقال: عفى النبت والشجر قصد تناول الزيادة وعفت آثارها زالت وعفى عنه أزال ذنبه.
إذاً فـ﴿عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥] دون أي متعلق تعم عفو الزيادة والنقيضة ومعهما العفو عن ذنوبهم كان ذنوبهم معفوة بما عفواً في نعمهم.

أم قد بلغ أمرهم في بلية الحسنة بعد السيئة أنهم تحسّنوا كآبائهم مستحقين للحسنة بتركهم شرعة الله التي يدعيها الأنبياء! إذ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[1] فنحن - إذاً - ماشون وفق مشيئة الله، ماضون بأمر الله، اعتباراً للإشراك بالله وترك شرعة الله، إيماناً بالله، فتوحيد وتصديق شرعته - إذاً - كفر به!.

واحتمال آخر أن ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ تخصصهما بهم دون هؤلاء الأولاد، حيث بدلت السيئة لهم بالحسنة، فقد عفوا - إذاً - عن أنفسهم إصابة السيئة إن كانت هذه الإصابات قاصدة، رعونة لهم كأنهم يستحقون - فقط - الحسنة، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ هي شرّ أخذة، إذ قد يؤخذ الظالمون بإخبار مسبق كما في قوم لوط ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[2].

فلأن هؤلاء الأنكاد عمدوا إلى سدّ كل المنافذ حتى لا يسمعوا الحق ولا يروه ولا يفهموه، مهما مستهم البأساء والضراء إيقاظاً لفطرهم، وهو الخطوة الأخيرة لاهتدائهم دون اختيار لهم، فلم يزدهم إلّا عتواً ونفوراً، فلذلك يستحقون مباغتة العذاب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جيئته الفجيعة إلّا عندما أخذهم، كما ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ رغم ما أشعرتهم الضراء والسراء.

وهكذا تكون الدعوة الربانية أنه ما دامت الإمكانية لبلاغ الحجة لا يضنّ بها، فمن خطوة الحجة البالغة إلى العظة، وإلى الإنذار بالعاقبة، وإلى إيقاظ الفطرة بمختلف الأساليب، وحده الأخير هو إيقاظها رغم تعنّت أصحابها، ومن ثم استئصالهم حين استأصلت لهم كلّ الطرق لانتباههم، إذ لا خير فيهم إلّا ضرّ وشرّ للإنسانية.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

فعندئذ، في ساعة الغفلة السادرة، والغفوة الغادرة، والعفوة البادرة تباغتهم العاقبة المضمونة ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذه سنة جارية ربانية في إصلاح المتخلفين خطوة خطوة، حتى إذا خطوا الخطوة الأخيرة في الأخطاء العامدة، ولم يبق إلى قلوبهم نافذة هدى وتبصرة، استأصلهم الله وأخمد نيرانهم تطهيراً للجوّ عن هؤلاء الأرجاس الأنجاس.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[١].

صحيح أن بركات السماء والأرض وتوفُّر النعم لا تستلزم أهلية المتنعمين بها، فقد ترجع النِّعمة عليهم نقمة ونعمة، ولكن الإيمان والتقى لزامهما انفتاح بركات من السماء والأرض، واللّاإيمان والطغى لزامهما انغلاق بركات، وما يرى من بركات لأهل الدركات فهي في الحق لهم دركات، حيث تعني لهم إملاءً وإملالاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٢].

ذلك، وأن الخلفية الطبيعية الربانية للتخلفات عن شرعة الله هي انغلاق بركات من السماء والأرض ظاهرية وباطنية هما متعاملان في فلاح الإنسان وصلاحه، ولكن هنا خطوة ثانية ابتلائية هي ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ وهذه الحسنة هي أسوأ من السيئة بكثير!.

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٦٥، ٦٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

وترى «لو» هنا تحيل إيمان أهل القرى وتقواهم، وقضيتها هي إحالة فتح هذه البركات؟ وهذه الإحالة تنافي والمشيئة التشريعية أن يؤمن أهل القرى ويتقوا!.

إنها إحالة نسبية بسوء الاختيار، دون ذاتية أم واقعية مستغرقة، فهي إخبار عن الواقع المتخلّف لأهل القرى بسوء اختيارهم، باستثناء واقعين اثنين هما قلة قليلة أمام مسيرة التاريخ الرسالي:

١ - أهل القرى كلها زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٢ - أهل كل قرية قدر المستطاع، تعبيداً لطريق المهدي عليه السلام وتصليحاً لهم أنفسهم، فحين لا يتمكن المؤمنون أن يحصلوا على جوٍّ الإيمان الخالص أو الأكثري في كلٍّ القرى لأنه أمر صاحب الأمر بما وعد الله، فعليهم - إذاً - أن يصلحوا مجتمعاتهم المنزلية وفوقها كما يستطيعون، ولكي تنزل عليهم - كجمع - بركات من السماء والأرض.

ذلك، ولا تنافي المشيئة التشريعية امتناع واقع مشروع باختيار، وإن كان امتناعاً مطبقاً، فضلاً عن المطلق الذي قد يتحقق باختيار.

وهذا الحكم جمعي وليس شخصياً أن كلاًّ من آمن واتقى تنزل عليه بركات من السماء والأرض - اللهم إلّا بركات معنوية - مهما حكم أحياناً للأشخاص أيضاً كما يستحقون.

فالإيمان والتقى أول ما يُصلحان هو الحياة الدنيا أن تصبح حياة علياً حيث المؤمن دنياه آخرة.

ذلك، ولأن زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه يحلّق الإيمان والتقى على أهل القرى إلّا من شذ، فقد تنزل عليهم بركات من السماء والأرض، كما تخرج له الأرض أفاليذ كبدها، ويروى فيما يُروى بهذا

الشأن - عن الإمام الحسين عليه السلام في حديثه عن الرجعة: «ولتنزلن البركة من السماء والأرض حتى أن الشجرة لتضيف بما يريد الله فيها من الثمرة وليؤكل ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء» وذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ...﴾[١].

أجل وهذه ضابطة ثابتة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢] وقد تشمل إلى ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ ما بشخص، اللّهم إلّا أن تمنع طوارئ وملابسات حقوق الأشخاص هنا، ولكن حقوق الجماهير محتومة مختومة بما يغيرون إلى خير فخير، أم إلى شرٍّ فشرّ.

وهنا ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ناحية منحى إيجابيات الإيمان علمية وعقيدية وعملية ثم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ منحاها السلبيات علمية وعقيدية وعملية، فهما يحلّقان على كافة الواجبات والمحرمات الأصلية والفرعية، الفردية والجماعية، وكلها اختصارة واحتصارة في كلمة الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وهنا ﴿لَفَتَحْنَا﴾ دون «خلقنا» وما أشبه، دليل أن هناك بركات في السماء والأرض هي مغلقة على أهل القرى بما ﴿كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

فهنا تعامل بين صالح الأعمال الجماهيرية وطالحها، وبين بركات من السماء والأرض ودركات في الأولى كما في الأخرى دون أية فوضى جزاف ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[٣].

وبما أن صالح الإيمان دليل على حيويّة الفطرة الصالحة غير المنحرفة المنخرفة، وصدق في الإدراك، وتصادق مع حق الواقع والواقع الحق، فهو

(١) نور الثقلين ٢: ٥٢ في الخرائج والجرائح عن الحسين عليه السلام.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٩.

قوة دافعة تجمع جوانب الحيوية الإنسانية كلّها متجهة إلى جهة واحدة، مستمدة من قوة الله الذي لا إله إلّا هو، فإنها تحرّرة صالحة بالغة، عن عبودية آلهة الأرض إلى عبودية إله السماوات والأرض.

ثم وتقوى الله يقظة واعية داعية إلى ترك المحظورات وفعل المحبورات، صائنة عن الاندفاع والتهوّر والتشتت والتشطّط والغرور، و«أوثق العرى كلمة التقوى»[1] عروة يتعلق بها فتنهض من المعاثر، وتنجي من المزالّ والمزالق، فهي الحبل المتين، والمستند النضد الأمين.

لذلك فهما جناحان يطير بهما الإنسان إلى أعلى قمم الكمال الممكن لأيّ كان، حيث يسير بهما الإنسان إلى مصيرات البركات التي وعدها الله لأهل الله.

وترى لماذا هنا «بركات» وهناك «حسنة»؟ حيث الحسنة هي ما تلائم المشتهيات خيّرة أم شرّيرة، فهي بين بركات ودركات، بين نعمة هي رحمة وأخرى هي زحمة ونعمة، ولكن ﴿بَرَكَٰتٍ﴾ هي خليصة الخيرات دون تبدل إلى دركات، نتيجة الإيمان والتقوى، فكلٌّ حسنة وسيئة ابتلاء، و﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هي قضية النجاح في الابتلاء بهما.

ذلك، فمن الخيرات ما هي بليات لمؤمن أو كافر مهما اختلفا فيه سقوطاً ونجاحاً، ومنها ما هي من خلفيات الإيمان والتقوى، فما هي إذاً ابتلاءات، ثم ومن الشرور ما هي ابتلاءات بين الخيّرين والشرّيرين، ومنها ما هي عقوبات لأيّ منهما مهما اختلفا في حدودها.

فالبركات النازلة على أهل الإيمان والتقوى هي بركات في النفوس والنفائس، بركات في المشاعر وكل طيبات الحياة بأسرها، إخراجاً لها عن

---

(١) المجازات النبوية ص ٨٤.

كلٍّ أسرٍ لها يُطارد الحصر في الله، بركات تنمي الحياة وترفعها إلى قممها المعنية منها، فليست مجرد وفرة ظاهرة مع شقوةٍ وتردٍّ وانحلال.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

هنا ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ هي الظالمة غير المؤمنة ولا التقية، فهي الكافرة الطغية، فلا أمن لهم إذ لا إيمان ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ بالليل ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أو ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ وضح النهار ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كالطفولة التي لا تعني صالح الحياة الإنسانية الواقعية، فإنما تنظر إلى ظاهر لها حاضر: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1].

وذلك هو العذاب المباغت لمن يستحقونه، بعدما كلّت كل المحاولات لإيقاظهم فلم يزدهم إلّا فراراً.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

لقد مكروا الله ومكروا المؤمنين بالله بما مكروا فطرهم وعقولهم فما جزاؤهم إلّا مكر الله كما مكروا جزاءً وفاقاً، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم بما صدوا عليها منافذ الفِطَر والعقول وسائر الفكر، وكأن الله لا يسطع على مكرهم كما مكروا، أم هم لا يستحقون مكراً رغم ما مكروا، أم وليس هناك من إله هو يرصدهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

ألم يهد لهم آيات الله آفاقية وأنفسية ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الهالكين، أو لم يهد لهم ذلك القصص الحق من مضاجع الغابرين المعروضة لهم في صحائف التاريخ الجغرافي.

﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ إصابة شاملة، ولكن الدار هي دار العمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، وإنما نصيبهم بالبعض من ذنوبهم الفاحشة التي لا يتحملها المكلفون، فقد ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

أو لم يهد لهم أولاء الوارثين الأرض، بأية وراثة جزئية أم شاملة، سياسية أم اقتصادية أم روحية أمّاهيه ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ إصابة كاملة كما أصبنا الغابرين.

وترى ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ تعني بعد انقراضهم عن بكرتهم؟ ولا سابقة لذلك ولا لاحقة! فالأرض لا تعني كلّ المعمورة، بل هي أرض الحكم سياسياً وما أشبه، و﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ قد يقصد إلى أهلها الميتين، أهلها الآهلين المغتصبين، وهذا هو الأكثرية المطلقة من وراثة الأرض.

مثلاً على ذلك اغتصاب حق الإمام علي عليه السلام المنصوص على خلافته في مئات من الأحاديث، ولئن يشك في غصب خلافته هذه، فغصب فدك دليل باهر لا مرد له على غصب الخلافة فأين فدك المال من خلافة الأمة!.

وهل كانت المطالبة بفدك، غير المطالبة بالخلافة للإمام علي، وهل إن اقتطاع فدك من يد فاطمة هو غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة، وإثبات الأولوية في غصب الخلافة من غصب فدك؟!.

ولقد كانت تعلم فاطمة تمام العلم أن المطالبة بفدك لن تعيد إليها الأرض، ولم تكن لتطلب أرضاً فيها نخيل، إنها كانت تطلب بإرث آخر فيه عزة النفس - فيه أصالة الحق - فيه عنفوان الرسالة - فيه امتداد أبيها

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

الرسول. . هذا هو الإرث الذي جاءت تنادي به في ساحة المسجد من خلال مطالبة فدك.

وسيان أكانت المطالبة بخطاب مدروس مرتجل، أم - حتى - بخطاب لمحة التنقيح أو الإقحام، كما يطيب القول للادعاء.

فقد يكفي أن تقود فاطمة قدميها إلى باحة المسجد - أن تقف أمام الخليفة بجبة وخمار، أن ترمي إليه نظرة شزراء - أن تحرك يداً بمعصم نخيل - أن تؤمي - أن تقف لحظة ثم تنسحب كما ينسحب الظل. . .

لقد شرحت في الخطاب رسالة أبيها - لا فقط لتشرح الرسالة المعروفة في أصلها لدى الحاضرين - بل لتعيّن مركزها ومركز علي من الرسالة، منددة بالخليفة أنه مغتصب ميراثها، فهل يصعب إذاً أن يغتصب ميراث الخلافة المنصوصة؟.

أجل ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا. . .﴾ وهم غافلون بزهوة ميراث الأرض وزهرة الأرض عما يعنى منهم!.

ولكن الحاضر الذي لا حِوَل عنه من العذاب: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سمع القلب، فما لم يسمع القلب لا يتقلب الإنسان من الردى إلى الهدى، مهما سمع بأذنه الكثير، فإنه إذاً ليس سمع القبول، فسمع الإنسان سمعان، سمع الأذن وسمع القلب، فما لم تسمع القلوب لم تتجاوز العظات الآذان، فهم من الذين ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(١) سمع الإنسان، فإنما هو سمع الحيوان.

فهنا «نطبع» رفعاً دون جزم يفصلها عن جزاءٌ الشرط، فهو خلاف جزائه في قضية «لو» ومن الغريب عطفه على جزاءٌ الشرط تلحيقاً لحكمه به مع اختلاف الصيغة والصبغة!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

إذاً فـ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ محتوم و﴿أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ مختوم إلّا ما شاء الله، ثم الطبع والختم والرين والكنان والغشاوة والصدّ والمنع هي بمعنى في هذه الدركات السبع.

ثم ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ تختص بالوارثين المذنبين، و﴿الْأَرْضَ﴾ هنا هي مطلق الأرض لا الأرض المطلقة، فقد تعني أي أرض انقرض أهلوها وورثها آخرون مذنبون.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)﴾:

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ الرسالية المكلفة برسالات الله، على مدار الزمن الرسالي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصا تاريخياً بعضاً ﴿مِنْ أَنبَائِهَا﴾ أمام الدعوات الرسالية ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ رسولية ورسالية، ولكن ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا...﴾.

فهنا سلسلة موصولة من الرسل والرسالات بكلّ البسالات والحصالات، وتقابلها سلسلة من التكذيبات.

وهناك ثالوث من غائلاتهم إذ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ وذلك: ١ - تكذيب من قبل، ٢ - فطبعٌ على قلوبهم ثم ٣ - ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ من بعد، لمكان ذلك الطبع بالطبع امتناعاً بالاختيار.

فترى أن ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا تعني قبل ولادهم في الذر؟ ولا يعني الذر في آيته عالماً قبل الولاد، فيه واقع التساؤل بين الله وبينهم، إذ لا يذكره أحد حتى من كمّل المؤمنين، فكيف يحتج عليهم بـ«بلى» فيه، على ﴿وَإِذْ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ...﴾! ولا دور للاحتجاج بما هو منسي طليق لن يذكر.

ثم لم يكن في الذر منهم ومن كلٍّ الناس - أياً كان وكانوا - إلّا ﴿بَلَىٰ﴾ وهنا ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾!.

فحتى ولو كان منهم «لا» فلا يستحقون بمجرده أن يطبع على قلوبهم إلّا إذا أصروا في التكذيب يوم التكليف! فقد يكفر مكلف بشرعة الله إذ لما تصله حجتها، أم وصلته ولمّا يفكر فيها، أم فكر وكذب بها عجالة دون إصرار، ولمّا يحن حين الطبع في هذه الثلاث، اللّهم إلّا إذا عاش تكذيباً بعلم وعناد ثم طال الأمد وزالت إمكانية الإيمان، فهنا دور الطبع وكما هو باهر في آياته.

وهنا ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ تنفي كينونة الإيمان منهم بما كذبوا من قبل في هذه المرحلة الأخيرة من علم وعناد، فطبع الله على قلوبهم بما كذبوا.

ف ﴿لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ حذفاً للناصبة: «أن» تعني «للإيمان» إذاً فما كانوا للإيمان بما كذبوا، إذ خرجوا عن إمكانيته بما كذبوا لحدّ طبع الله على قلوبهم.

أم هو ﴿مِن قَبْلُ﴾ ابتعاث الرسل؟ وقد ابتدأت البشرية بابتعاث الرسل، إذ بزغت الرسالات بآدم عليه السلام! ثم لا تكذيب قبل الرسل - لو صح التكليف قبلهم - إذ كانوا ضلالاً لا على هدى ولا على ضلال التكذيب بالرسالات ولمّا تأت، لو كانت البعثات الرسالة بعد ردح من خلق المكلفين.

ثم وليس كلّ تكذيب بعد بزوغ الرسالات مما يستحق الطبع على قلوب المكذبين!، إنما هو التكذيب العاند العامد المستمر الذي لا مجال فيه للاهتداء.

أم تعني ﴿مِن قَبْلُ﴾ أنهم عاشوا زمناً للرسل أو الرسالات فكانوا مكذبين بها علماً وعناداً فطبع الله على قلوبهم، ثم استمروا في تكذيبهم بعد

هذه العيشة المكذبة النكدة، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لوقتٍ ما بعد ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ وكلّ ذلك كان في حضن الرسل، أو الرسالات، سواء أكانوا في فترة من الرسل والرسالات قائمة، كالذين عاشوا بين آدم وإدريس، وبين إدريس ونوح، أم وبين المسيح ومحمد عليهما السلام - كأطول فترة -: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾[١] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[٢] فهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] فالفترة بين الرسل، وفيها فتور لبلاغ رسالاتهم لمكان التحريف والتجديف، إن لها دوراً دائراً مائراً في حُصالة العناد اللدود.

أم وفي غير الفترة كما بين نوح وإبراهيم وموسى وكما في آيات يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥﴾[٤].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾[٥] وآية الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٦]. فالفترة بين الرسل هي من الظروف القاسية العاصية بطبيعة الحال، لحقل التكذيب بالرسل ورسالاتهم، فإذا جاء بعدها فقد يواجهون من قِبَل هؤلاء الألدّاء بتكذيبات وتعذيبات.

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٤) سورة يونس، الآيتان: ٧٤، ٧٥.
(٥) سورة يونس، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

كما وأن لتكذيب الرسل في زمنهم دور قاس في ملاحقة التكذيب، علّه أقسى من دور الفترة، فالعائش زمن الرسل برسالاتهم، هو أنحس نكراناً لهم ولها مبدئياً، مهما كان العائش الفترة بين الرسل هو أنحس منه نكراناً بطبيعة الحال، وهما مشتركان في قساوة التكذيب، مهما كان البعض أقسى من الآخر لملابسات أخرى، أم لنفس الدور رسولياً وفترة بين الرسل.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

ذلك العهد هو عهد الفطرة كأول عهد، ومن ثم عهد العقلية الإنسانية والشرعة الربانية حيث يتلوانه، و﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ هنا لا تعني أكثر المكذبين حيث التكذيب ولا سيما ذلك الصلب الصلت هو بنفسه ترك لمثلث العهود، فقد تعني «أكثرهم» أكثر المكلفين، و«إن» هنا مخففة عن «إنّ» فقد وجدنا أكثرهم لفاسقين، خروجاً عن عهد الفطرة وعهد الشرعة، فالخارج عن عهد الفطرة قبل إتيان الرسل هو خارج عن عهد الشرعة بعد إتيانهم بطبيعة الحال.

ثم و﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ قد تعني كافة الناس في مثلث الزمان في وجدان علمي رباني، وعدم وجدانه تعالى لشيء هو عدم وجود ذلك الشيء، ولا تعني سلبية العهد أصله، فإنهم يعيشون مثلث العهد، وإنما هو استمرارية ذلك العهد تطبيقاً له.

ثم ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ دون «كافرين» لكي يشمل كلّ تخلفة عن العهد إلحاداً أو إشراكاً أو كفراً كتابياً، أم فسقاً في كلِّ دركاته.

وقد تعني ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ استئصال العهد لأكثرهم عن بكرته، مهما كان عهداً معرفياً، أو عقيدياً، فضلاً عن العملي.

فقد تعني - إذاً - أكثرهم، أكثر المكذبين بآيات الله، فالعهد بين حالات ثلاث، ١ - مستغرقة إيجابياً كما للرعيل الأعلى من

المعصومين عليهم السلام، ٢ - ومستغرقة سلبياً كما لأسفل سافلين من المكذبين، ٣ - وعواناً بينهما تطبيقاً لعهد وتركاً لآخر، فقد يوجد مكذبون لمّا تستأصل عهودهم عن بكرتها فهم قد يؤمنون أم - ولأقل تقدير - يتركون التكذيب، ثم الأكثرية منهم يعيشون ترك عهودهم حتى الموت ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

ففي مثلث العهود بدرجاتها، يسبَّع الناس بدرجاتهم، فمن واجد عهد الفطرة دون العقل، أم واجد عهد العقل ناس عهد الفطرة، أم واجد عهد الشرعة دون عهد الفطرة والعقل، أم واجد لها كلها، أم واجد لاثنين منها، فالواجد لها كلها هو القائم بها مهما كان درجات، والواجد لواحد منها هو أضعف الواجدين، ثم الواجد لاثنين منها هو عوان بينهما، كمن وجد عهد الفطرة والعقل، أو العقل والشرعة، أو الفطرة والشرعة، ثم التارك لها كلها هو المصداق الصادق لـ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

ذلك، ولا يخلو أحد من عهد الفطرة مهما كان خلواً من العقل، كما لا يخلو أحد من المكلفين من عهد الشرعة مهما كان زمن الفترة.

فالصراط الوحيد إلى الله هو مثلث العهد فطرياً وعقلياً وشرعياً، فإن وسيط العقل بين الفطرة والشرعة هو صالح العقل والفطرة والشرعة.

كما أن الوهيد الوهيد هو ترك ذلك المثلث بأسره فـ «لم نجد له عهداً» حيث لا منفذ - إذاً - له إلى الهدى.

ومن ثم نجد راحلة - مهما كانت مائلة ماحلة - في العوان بينهما، فالواجد لبعض منها التارك لبعض قد ينجو وينجح بما هو واجده، فالفطرة تدعو إلى العقلية الصالحة وصالح الشرعة، كما الشرعة تدعو إلى الفطرة والعقلية الصالحة، والعقل الصالح يدعو إلى الفطرة والشرعة.

ذلك، والفسق عن الفطرة يُخلِّف الفسق عن العقلية، كما الفسق عن

العقلية يفسق عن الشرعة، وهكذا الفسق عن الشرعة يفسق عن الآخرين، وكوجه عام وضابطة، يخلف الفسق عن كلٍّ من هذه الثلاث فسقاً عن الآخرين.

كما وأن صفاوة كلّ وحفاوته تؤثر في الآخرين، فهي تتجاوب - دوماً - سلبياً وإيجابياً في تعامل دائب.

لذلك نرى آية الفطرة تتبناها كأصل للدين، وآيات العقل تجعله كوسيط بين الأنفس والآفاق، والشرعة الربانية تتبنى الفطرة كأصل والعقل وسيطاً بين الأصلين.

ذلك، فـ ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ المستأصلة كلّ عهد، لا تُناسب إلّا المكذبين بآيات الله طول التاريخ، فإن أكثرهم ليس لهم عهد، ولأقلهم عهد هو لأقل تقدير عهد الفطرة أو العقلية الإنسانية، فقد يرجى اهتداءهم يوماً ما إلى الحق.

فلا تعني ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ كلّ المكلفين، ولا المكذبين المطبوع على قلوبهم، حيث الأكثرية من المكلفين قاصرون أم مقصرون دون تكذيب على علم وعهد، أم ومهما كان عن علم وعمد فليس يطبع على قلوب أكثرهم، بل هم القلة العنيدة العتيدة في التكذيب.

ولا المطبوع على قلوبهم لأنهم كلّهم ليس لهم أي عهد، إنما هم مجموعة المكذبين، فإن أكثرهم ليس لهم ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾.

فسلبية العهد المستغرقة كلّ عهد تجعلهم كأن لا عهد لهم من أصله، بل هم أدنى ممن لم يخلق له عهد إذ يعارضون كلّ أحكام الفطرة والعقل والشرعة.

ثم ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾ المختوم على قلوبهم ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ متخلفين عن هذه العهود الثلاثة إلى أضدادها، فـ ﴿وَإِن وَجَدْنَآ . . .﴾ هي كتفسير لـ «ما

وجدنا» تثبيتاً لأصل العهود الثلاثة لهم، ولكنهم عنها فاسقون متخلفون، ولم يقل «كافرون» لأن كل المكذبين بآيات الله كافرون وإنما «لفاسقون» عناية إلى خروجهم عن هذه العهود.

ذلك، وكما أن الشيطنات سبع دركات، كذلك الرحمات سبع درجات، وكما الشيطان الأكبر هو الجامع لثالوث: الشيطان - البقر - النمر، كذلك الإنسان الأكبر هو الذي يجمع بين هذه العهود الثلاثة، تاركاً لثالوث الشيطنات.

ذلك، ومن الآيات المحلقة على كلّ العهود: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١) ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾(٢) ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

ومن الخاصة بعهد الفطرة آيتا الذر والفطرة، ومن عهد الشرعة الأصيلة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٤) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٥).

ومن عهدنا فرعياً ما نعاهد ربنا أو يعاهد بعضنا بعضاً: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾(٦) ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾(٧).

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٥) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٦) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى
رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ
قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن
كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ
فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ
ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ
ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾
وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ
مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ
وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟
بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ
وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ
عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ
عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا
غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ
وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا

كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ
يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ
يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ
رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ
رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ
مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ
صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

هنا درس فصْل عن قصة موسى مع فرعون وملئه بين مواجهتهم إياه بنكران ربوبية الله، وإغراقهم أجمعين إلّا من آمن منهم بالله، وهي قصة واسعة الأطراف لا مثيل لها بين قصص المرسلين اللّهم إلّا خاتم النبيين ﷺ فإنهما متماثلان في كثير من الميّزات الرسولية والرسالية.

يذكر ﴿مُوسَىٰ﴾ (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة وأكثرها ذكراً له وأعرفها «الأعراف» فإنه فيها يذكر (٢١) مرة مما يدل على أن ذكراه فيها أكثر من غيرها.

ويذكر فرعون (٧٤) مرة في (٢٧) سورة، أكثرها ذكراً له «الأعراف وص» وعلى الجملة نرى قصة موسى وفرعون أكثر القصص ذكراً وشرحاً في

الذكر الحكيم، اللهم إلّا رسول القرآن فإنه المحور الأصيل بين الرسل والرسالات كلّها، وهنا بعد ذكرى رسالات منذ نوح حتى شعيب يأتي تفصيل القول حول موسى عليه السلام وحالاته الرسالية وحالاته مع فرعون وملئه.

ذلك القصص نص باهر في الغرض من سياقه، فالقصة قاطعة إلى مشاهد حية تموج بالحركة والحوار، زاخرة بالانفعالات والسمات، وتتخللها توجيهات إلى مواضع العبرة الواعظة الباهظة، كاشفة عن طبيعة الحال للمعركة المتناحرة بين الحق والباطل، منذ تشرّد موسى من بأس الطاغية خائفاً يترقب، حتى غرق الطاغية، وإلى مستمر رسالته بواجهات أخرى.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

هنا ﴿بَعَثْنَا﴾ متكلماً مع الغير يعني جمعية رسالية اجتمعت في شخص موسى الرسول وكأنه بنفسه رسل، وهو حقاً رسل إذ جاء برسالة مفصلة منقطعة النظير بين الرسل كلهم إلّا هذا البشير النذير.

ثم ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهي الآيات الرسولية والرسالية جمعاً مستغرقاً لآليات الربانية، قد تعني الجمع بين كافة الآيات المبصَرة المبصِرة، فهي كلها بصرية مشهودة للأبصار، ولكن الآية الرسولية والرسالية المحمدية وهي القرآن وهي رسول القرآن، إنها آية مستمرة خالدة مع الزمن، متناسبة تلكم الآيات العابرة الغابرة، متناسبة خلود الشرعة الأخيرة إلى يوم الدين فإنها آية البصيرة على مدار الزمن، لا بديل عنها ولا تبديل لها، بل هي تجري جري الشمس في مشارق الأرض ومغاربها.

أم تعني جمعاً من الآيات التي تناسب الرسالة الموسوية لأنها بمفردها جمعية رسالية، فلا تعني طليق الاستغراق.

والرسالة الموسوية عالمية لا تختص بجمع دون آخرين كما كان نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، ولا تعني ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ هنا إلّا المحطّ الأول لرسالته السامية سلباً للفرعنة الطاغية، ثم المحط الإيجابي الأول هم بنو إسرائيل كما في آيات، كـ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(١)]، ثم الثاني والأخير هم كلّ العالمين كما في أخرى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[(٢)] - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[(٣)] - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(٤)] إذاً فليس «إلى مصر وحدها»![(٥)].

ذلك، ولأن أنحس المستكبرين الطغاة في زمنه هم فرعون وملأه وأتعس المستضعفين هم بنو إسرائيل، لذلك نراهما في مطلع الدعوة الموسوية سلباً لأنحس طغيان وإنجاءً لأضعف المستضعفين في ذلك الزمان، ومن ثم تتخطى هذه السلبية والإيجابية إلى كافة المستكبرين والمستضعفين في العالمين بالشرعة التوراتية حتى الإنجيل، ومنها حتى القرآن العظيم.

ذلك وقد ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ حيث أنكروها وكذبوا بها شرّ تكذيب ﴿فَٱنظُرْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٨.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٨.
(٥) نور الثقلين ١ : ٥٤ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: ثم إن الله تبارك وتعالى أرسل الأسباط اثني عشر بعد يوسف ثم موسى وهارون إلى فرعون وملئه إلى مصر وحدها.
أقول: هذا خلاف أممية الرسالة الموسوية إلّا أن يأوّل إلى المحور الأول لرسالته ومنطلقها كما تفسير الآيات القائلة إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بعث إلى هؤلاء القوم اللد ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ حيث التكذيب بآيات الله هو رأس الزاوية في هندسة الإفساد في الأرض.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠٤)﴾:

هنا ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾ دون ألقاب هي إلغاب زور وغرور لكلّ سلطان غرور كـ «يا مولاي» وما أشبه وإنما باسمه «فرعون» في أدب واعتزار ليقرر له حقيقة أمره أنه فقط «فرعون» أمام ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهو منهم خلاف زعمه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾(١) فهكذا يخاطب الرب الأعلى! ليعرف موقفه في بداية الحوار قائلاً: ﴿إِنِّي﴾ متأكداً دون أية ريبة ﴿رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون «الله» أو «الرب» أو «ربي» حتى لا يخيل إليه وإلى ملإه أنه يعنيه فيكذبه ويكذبونه إذ لم يرسله فرعون، ثم وكيف يخبره وإياهم بما أرسله هو؟!.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٠٥)﴾:

ولأني رسول رب العالمين، إذاً فـ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ قضية صادق الرسالة الربانية، ورسالة الله هذه وقول الحق على الله ليست دعوى فاضية، بل هي فائضة فـ ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: آية بينة ربانية لا حول عنها ولا محيد، فالله من وراءها شهيد، ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ - ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾(٢) فقد يعني بذلك الإرسال إرسالهم عن أسرهم بأسرهم في إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، إذ كانوا لهم عبيداً أمعات لا يقدرون على شيء مما كسبوا لأنفسهم إلّا ما يهواه فرعون وملأه!.

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٧.

ولماذا هنا ﴿أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ دون «أقول عن الله»؟ «على» هنا تعني العهدة، وقول الرسول رسالة دون أصالة ليس إلّا على عهدة الله وبعهد الله، كما و«على» في ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ﴾ هي للحيطة والتحليق ف «على» هو الحقيق دون «عن» حسب متواتر النص على مدار الزمن القرآني السامي.

و﴿حَقِيقٌ﴾ هنا حق ثابت لا حِوَل عنه إذ لا يحق لرسول أن يقول على الله إلّا الحق ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

ذلك وكما في الأصل العبراني من التوراة.

ذلك، والرسالة الربانية إلى أمثال فرعون وملإه تعني - أول ما تعني - إبطال كلِّ شرعة مدّعاة لكلِّ طاغوت يحكم محاداً لشرعة الله، تبعيداً لهم عن تعبيد الناس إلى عبودية الله.

وإعلان الربوبية الوحيدة غير الوهيدة لله وحده، إنه إعلان تحرير الإنسان عن عبودية أمثاله وكلّ معبود من دون الله.

ولأن هذه الدعوة تحمل قلب نظام الحكم الفرعوني، لذلك يطالب موسى بكلِّ مهانة وإهانة وإحالة أن يأتي بآية إن جاء بها، زاعماً أنه كاذب حيث أخذته العزة بالإثم، فلا يستقبل أي دعوى تناحر فرعنته وطغيانه، إلّا بكل فرعنة ورعونة:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ في رسالتك المدّعاة المِدعاة ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ أمامنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهنا ﴿كُنتَ﴾ قبل ﴿جِئْتَ﴾ تعني إحالة هذه الكينونة بعمقها، ثم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تهديد عتيد إن لم يأت بها فهو - إذاً - من الكاذبين.

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ عجالة دون إجالة، عساه يهتدي بإجالة النظر في هذه الآية ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ كونه ثعباناً حقيقياً دون أن يسحر أعين الناس فيروا العصا ثعباناً، ومن كونه مبيناً أنه هدّد فرعون بصرحه لحدّ لمس العذاب حينه ففلّ منه خائفاً ذَعِراً(١).

ولا تعارض بين قلب العصا هنا ثعباناً مبيناً، وقلبها ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾(٢) حيث ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾(٣) لاختلاف الموقفين، فالحالة الثانية هي ليلة الطور لما رأى من جانب الطور ناراً، والأولى هي عند فرعون.

ثم والطنطنة الغوغاء في قولة استحالة المعجزات يحلّها تقدّم العلم أن العناصر متشابهة في الجزئيات والذرات، وإنما الاختلاف في فواصل وعديد الذرات، فلخالق الذرات أن يبدل فواصلها وعديدها قفزة طرفة عين، وذلك سرّ الإعجاز أن ذلك التفاعل الذي يحتاج في تبدل عنصر إلى آخر إلى آلافات من السنين، يحصل بالقدرة غير المحدودة الربانية في طرفة عين.

ثم زود آيته تلك بأخرى، متصلة به بعد الأولى المنفصلة عنه، إتماماً للحجة وإنارة للمحجة، كيلا يقال إن ثعبان العصى ليس من إلقائه، بل هو صدفة عمياء، وأما يده فلا يظل عليها من ظلال ذلك الضلال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ

---

(١) نور الثقلين ٢: ٥٤ في تفسير العياشي عن عاصم بن المصري رفعه - وذكر قصة مواجهة موسى فرعون إلى أن قال: - فألقى عصاه وكان له شفتان فإذا هي حية وقد وقع إحدى الشفتين في الأرض والشفة الأخرى في أعلى القبة، قال فنظر فرعون في جوفها وهي تلتهب نيراناً قال: وأهوت إليه فأحدث وصاح: يا موسى خذها.

(٢) سورة طه، الآية: ٢٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٠.

إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾[(١)] - ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[(٢)].

وهنا في ظلال هاتين الآيتين خرس فرعون متخوفاً ذاعراً ما يدري من أين إلى أين، ولذلك يتكلم ملأه تثبيتاً له وتشجيعاً إياه وكما تفعله الهوامش الملكية بالملوك:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

هنا العصب الحساس يبرز بكلٍّ كيد وميد مضلّلاً من مضلّلي الملإ، يخاطبون أنفسهم وآخرين، بمن يرأسهم وهو فرعون، ابتداءً بتزييف موقف موسى من آيته الكبرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ثم وما عليه في سحره إذا كان في خدمة فرعون، ولكنه ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ إخراجاً من السلطة الفرعونية ملكاً وملكاً فيجعلكم لا شيء بعد أن كنتم كل شيء.

فلو كان ما جاء به آية ربانية صادقة ما كان خطراً ذلك الخطر، أم لو كان يريد أن يخرجكم من أرضكم دون آية ولا سحر فكذلك الأمر، ولكنه جامع بين الأمرين الأمرّين، فإنه بسحره يريد قلب النظام وهذا ما لا يقبله أي مواطن فضلاً عن الملك وأصحاب السمو الملكي، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ نا، نحن الذين نعرف صالح أمر الحكم من طالحه.

هنا - بعد ما حصل فرعون على هذا الرأي - ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[(٣)] فقد تشاوروا أولاً: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن

(١) سورة طه، الآية: ٢٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٢.
(٣) سورة طه، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾[١] ثم عرضوا عليه حصالة هذا الرأي ثم ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا...﴾.

وهكذا أدرك فرعون وملأه خطوة هذه الدعوة التوحيدية وكما يدركها كافة الطواغيت المحادّين المشاقين الله، وكما قيل لرسول الله ﷺ حين أخذ يدعو إلى شهادة أن لا إله إلّا الله: «هذا أمر تكرهه الملوك»! و«إذن تحاربك العرب والعجم» حيث القائل عرف معنى لغة التوحيد أنها ثورة على الحاكمين بغير شرعة الله، الطاغين على عباد الله، فإن لتلك الشهادة الحقة جدّيتها وفاعليتها، وطبيعة الحال قاضية ألّا ملاءمة بين ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وألوهة غير الله من آلهة الأرض والسماء.

فلذلك ينبري الملأ من قوم فرعون، الأخصائيون في تدبير أمور الملك قائلين ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ إخراجاً لكم عن كيانكم وعرضِكم، وقد حسم الموقف عجالة أنهم:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾:

﴿... وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[٢]

فالقصد من ﴿سَاحِرٍ﴾ هنا هو «سحار» ويلمح له ﴿عَلِيمٍ﴾ وهنا يشير عليه ملأه المتأمرون، بإمهالهما حتى حين ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ المصرية ﴿حَاشِرِينَ﴾: جامعين ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ دون مجاهيلهم أو سقاطهم.

وهنا ﴿أَرْجِهْ﴾ أمهله، دون «أقتل - أو - أسجن» مما يدل على أن الطاغية كان أعدل من هؤلاء الطغاة الذي لا يمهلون مناوئيهم، حكماً بالإعدام أو السجن دون إمهال لمناورة!.

ويُروى أن عديد هؤلاء السحرة بين سبعين شخصاً إلى ثمانين ألف

(١) سورة طه، الآيتان: ٦٢، ٦٣.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

وبينهما متوسطات[١]، ولقد كانت أرض مصر تموج بالكهنة الساحرين في شتى المعابد الكهنوتية، يديرون أمورهم، ويدبرون، بكلٍّ سحر ومكيدة، إذ ما كانوا يملكون حقائق الأمر الذي به يحكمون.

وهكذا يقترن السحر والكهانة وسدانة الآلهة في كافة الوثنيات على مدار تاريخها، وفرعون هذا بما يحمل من كلٍّ فرعنة وطغيان، لقد كان في إرجائه موسى وأخاه أقل طغياناً من الطواغيت المتحضرة في القرن العشرين في مواجهة الدعاة إلى رب العالمين.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

لقد استغلوا فرصة فريصة لهم فريسة، حيث يحتاجهم فرعون في هذه الغائلة المجتاحة لعرشه وملكه، فتطلبوا إليه أجراً متميزاً عن سائر الأجر في الحالات العادية، فوعدهم ذلك الأجر وزيادة ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى البلاط الملكي أكثر مما كنتم من ذي قبل.

وهم على أية حال عملاء محترفون، يحترفون السحر كما الكهانة على سواء، والأجر هو هدف الاحتراف سواء في هذا أم في ذلك، وهنا يعدهم الطاغية أجراً أكثر من المأمول المعمول هو القربى منه زيادة في الإغراء، وهم كلهم جاهلون ذلك الموقف أنه موقف الآية الربانية التي لا يعالجها أي أجر وتقريب وإغراء.

وهنا ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ إخباراً دون إنشاء الاستدعاء، مما يلمح بموقفهم المستعلي على فرعون لفاقته إليهم، فقد فرضوا عليه في صيغة الإخبار الذي هو آكد من الإنشاء.

---

(١) وهي تسعمائة - اثني عشر ألفاً - خمسة عشر ألفاً - سبعة عشر ألفاً - تسعة عشر ألفاً - ثلاثون ألفاً - وسبعون ألفاً.

إذاً فهو إنشاء في صيغة الإخبار وكما الإنشاء في الشعراء: «أئن لنا لأجراً»...، أم وهو إنشاء حذفت أداته تلميحاً لأكيد الإنشاء إذ هو بصيغة الإخبار.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾:

هنا يخيِّر موسى بين تقدّمه في إلقائه وتأخره كتحد جاهر في ذلك التخيير التحيير، على تأدب ظاهر، وهو يرجح تأخره عنهم لكي يأتوا بكلِّ ما لديهم ثم يجتثه بأسره حيث يثق بنفسه كلّ الثقة مستهيناً بتحديهم، كما هم كانوا واثقين لا يفرقون بين إلقائهم أولاً وإلقائه، ولو أنه تقدم، ما كان هناك ظرف لما تقدمه أن يلقف ما يأفكون، وهذه تكتيكة لصالح الحوار أن يتطلب صاحب الحق أن يتقدم محاورة بما عنده على البساط حتى يسهل له القضاء عليه، تهديماً بكل صرحه، وفصماً لكلّ طرحه، وحسماً له عن بكرته، فلذلك استهان بتحدّيهم بكلمة واحدة تبدو فيها قلة مبالاته بهم:

﴿قَالَ أَلْقُواْۖ﴾ ما عندكم من السحر ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ دون عقولهم وقلوبهم العارفة أنها صورة دون حقيقة وسيرة ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ طلباً لرهبتهم وهم لا يرهبون إلّا ظاهرياً ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ما أعظمه بين مختلف ألوان السحر لحدّ ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾(١) فما يصنع ساحر واحد مهما كان عظيماً أمام سحر هؤلاء العظماء من سحرة البلاد.؟!

فأهم فاعليات السحر أن يسحر أعين الناس ويسترهبهم في المعاينة دون أي واقع وراء سحر الأعين، وذلك من الفوارق العظيمة بين السحر والآية الربانية، ولو استطاع ساحر أن يقلب واقعاً إلى آخر بسحرة لكانت السحرة

(١) سورة الشعراء، الآية: ٤٤.

المهرة الفرعونية تقلب التراب ذهباً دون طلب لأجر من فرعون، أم ويقلبوا سلطان فرعون إلى سلطانهم فيتركوا عبوديته إلى حريتهم أنفسهم، وقد أتينا بقول فصل حول الفوارق بين السحر والآية المعجزة في البقرة فراجع.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إلغاء لما ألقوا من حبالهم وعصيهم التي سحرت أعين الناس ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾: أكلاً سريعاً حاذقاً خارقاً ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ دونما رجع أو رجيع، مما يؤكد أنها آية ربانية رسولية بعيدة عن حقل السحر، حيث السحر يخيّل - فقط - للأبصار، والآية يحقق الحق للبصائر.

ذلك، وحين تتغلب عصا موسى - وهي أدنى من آية القرآن بكثير - على ذلك السحر العظيم - وهو أعظم من أي سحر على الإطلاق - أفلا يتغلب القرآن على أي سحر؟

أجل وكما يُروى أن قراءة مائة آية من أيّ القرآن شئت تبطل أي سحر كان وأيان!.

ولقد كانت هذه جيئة فجيعة ومفاجئة مذهلة غير منتظرة للسحرة، مما قلبهم ظهر بطن فما ملكوا أنفسهم إلّا أن ألقوا ساجدين:

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

أجل، وإن الباطل يتنفس قليلاً ثم يتنفش، ويسحر - فقط - العيون، وهو سحر عظيم، يتنفش كالقنفذ وينطفئ كشعلة الهشيم تذروه الرياح وكان الله على كلِّ شيء مقتدراً.

أجل ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ موقعة الباهر في ذلك المسرح العظيم أمام سحر عظيم ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟﴾ هم أولاء الفرعونيون ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ويأملون انكماشاً بعد الزهو الذي سحر المليّون وبهر أصحاب العيون ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أمام

الجماهير المحشورة المحتشدة ﴿وَانقَلَبُوا﴾ إلى فرعون وعن حالتهم تلك الطاغية الباغية ﴿صَٰغِرِينَ﴾: ذليلين، فأصبحوا صفر الكيان أمام هذه الآية الربانية العظيمة، بكلِّ صغار وهزيمة، وقد حسم الموقف هنا:

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

وتراهم من الذي ألغاهم فألقاهم ساجدين لرب العالمين حيث النص «أُلقي» مجهولاً دون «ألقوا أنفسهم»؟.

إنه هيبة الموقف الحق الباهر إذ عرفوا أنه ليس مما ألقوه، فألغاه موسى بما ألقاه، فلم يتمالكوا أنفسهم إلّا تساقطاً على الأرض سجّداً لله، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم، هزة مفاجئة أزالت عنهم كلّ ركامة عاشوها من ذي قبل، فتحولوا بكلِّ كيانهم إلى ﴿سَٰجِدِينَ﴾ ونطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين ف ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾. وإنها صولة الحق الباهر في أعماق الضمائر والمشاعر، فالسحرة المهرة هم أعلم الناس بواقع فنّهم غير الواقع ومدى ما بالإمكان أن يبلغه من مبلغه، وهم - أيضاً - أعرف الناس بالحق الذي جاء به موسى، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداد لتقبل الحق، وكما نرى السحرة منقلبين من التحدي السافر الطليق إلى التسليم الظاهر الطليق الحليق، ما لا يزعزعه أي تهديد بليغ حميق.

ولكي لا يخيل إلى الطاغية أنهم يعنونه بما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾(1) واصفوه ب ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وهنا ينبري فرعون الطاغية بتهديد شديد على السحرة الساجدين:

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).

ويْكأن الإيمان أيضاً كسائر الأمور بحاجة إلى إذن؟ وهو أمر قلبي! فلأن ذلك البليد الطاغي هو الرب الأعلى بزعمه فلتكن أزمة القلوب طراً بيده كما بيده سائر الأزمة.

هنا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ تنديداً بنفس الإيمان، وفي الشعراء «آمنتم له» تنديداً بشاكلة الإيمان، أنه ليس إلّا له ولصالحه، حسب المدبّر المقرر بينكم من مكر مكرتموه في المدينة.

وهنا يهرف بما يخرف أن ثعبان العصا ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ تسمية لآلية البينة الربانية سحراً لهدف قلب نظام الحكم، ولا يمكرون هكذا إلّا إذا كان موسى معلمهم في السحر، ومتى كان معهم حتى يعلمهم السحر وهم كانوا سحرة قبل ولاده؟ وحتى لو كان معهم فهو متعلم منهم لأكثر تقدير!.

ولأنه لمس منهم أنهم ليسوا ليغيروا مواقفهم بذلك التنديد أخذ في شديد التهديد: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ. . .﴾ وهو عقوبة كانت تجري بأعصى العصاة البغاة، ولو كان إيمانهم مكراً لكانوا يتركون موسى إلى فرعون تائبين، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية إلّا هذه الآية، فلو كانت سحراً لما كانوا يظلّون معه فيذلون!.

فذلك الصمود رغم ذلك التهديد - وهم مهرة الفن - دليل قاطع لا مردّ

(١) سورة الشعراء، الآية: ٤٩.

له أنهم أثبتوا دون ريبة أن الحق مع موسى الرسول، فلا مردّ لإيمانه به وله ولا تحويل، ولكن الطاغية ليس ليدرك كيف يتسرب النور إلى القلب فيقلبه من علواء السوداء إلى علياءه البيضاء، وهو يحسب القلب قالباً يتقلب بتقليبه ويتألب بتأليه، وهو بين أصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء.

فيا ويلاه لفرعون صاحب العرش الروحي! والزمني، أن ينفلت من سلطة الكهنة السحرة الذين هم سناد الناس في التسليم لفرعنته، فماذا يصنع إذاً بالناس ولا حراس هنا بعد عليهم لصالحه ولا اكتراس لأساس.

ذلك ومن دأب الفراعنة الدائب أنهم يواجهون أندادهم بالتنكيل والتعذيب بعد ما كلّ دليلهم وعلّ كليلهم فهم مفضوحون، وهنا اليد السماوية تكسر اليد الأرضية حيث تنتصر في المسرح المصرع العقيدة الصالحة على كلِّ زخرفات الحياة، احتقاراً للفناء الزائل البواء إلى جوار الخلود المقيم البقاء.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿مُنقَلِبُونَ﴾ انقلاباً محتوماً مختوماً عن أي انغلاب، لا يقلّبنا عن ذلك الإيمان أي عامل قاس بأي مراس واكتراس، حيث إن صاحب الإيمان السليم لا يفزع ولا يتزعزع أو يخضع ويخنع.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

فنغمة النقمة ليست لمكر مكرناه، إنما هي ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ﴾ فلا إيمان إلّا به، ولا ملجأ إلّا إليه ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يشملنا ويغطّي علينا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ صَلْباً أم سواه.

وهنا يقف الطغيان حائراً ذعراً أمام صامد الإيمان، أمام كامل الوعي

والثقة والاطمئنان، أمام القلوب التي خيّل إلى الطاغية أنه يملكها كما يملك الأبدان، وأنه موقف حاسم جاسم في تاريخ الإنسان يكرره القرآن بمختلف المجالات المؤاتية، فإنه يكرس انتصار الإنسان على الشيطان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]؟.

فلقد أفلست المادية العمياء البكماء الصماء أمام الإيمان الصامد من هؤلاء السحرة المهرة الذين كانوا يسألون فرعون أجراً على عمالتهم، حيث انقلبوا إلى مؤمنين مستعلين على الطاغية بكلِّ جرأة واصطبار، مستهينين بكلِّ تهديد ووعيد، صابرين على كلِّ ألوان التنديد والتبديد!.

وهنا يذهب التهديد هباءً، ويتلاشى الوعيد سدىً، ويمضي الإيمان الوضاء في طريقه الوضيء دون تفلُّت ولا تلفُّت حيث لا يحيد والله من وراءهم رقيب عتيد[2].

وذلك درس لنا صائب أن ليس الكفر الحاضر دليلاً على سوء العاقبة كما الإيمان الحاضر لا يدل على حسن العاقبة، فقد عاش سحرة فرعون كفراً «فرجعوا مؤمنين»[3].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٢) راجع تفاصيل أكثر حول قصة موسى وفرعون إلى سورتي طه والشعراء.

(٣) نور الثقلين ٢: ٥٦ في الكافي عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن جدِّه عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو - إلى أن قال -: «وخرجت سحرة فرعون يطلبون العزة بفرعون فرجعوا مؤمنين» وفيه عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ومن ذهب يرى أن له على الآخر فضلاً فهو من المستكبرين، فقلت له: إنما يرى أن له عليه فضلاً بالعافية إذا رآه مرتكباً للمعاصي، فقال: هيهات هيهات فلعله أن يكون غفر ما أتى وأنت موقوف تحاسب أما تلوت قصة سحرة موسى صلوات الله عليه...

علّ ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ هنا هم ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ هناك، فاللّام - إذاً - لعهد الذكر، كما اللّام في الأول للتعريف، فهم ملأ معروفون بهذه الاستمارات والشوراءات العليا بشؤون الملك.

هنا لمّا خسروا صفقتهم تلك في إرجاء موسى لتلك المباراة الهامة، لم يجدوا بدّاً من استئصال موسى والذين معه بدعوته، وتساءلوا فرعون في شأنهم ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ضدّ السلطة الروحية والزمنية الفرعونية ﴿وَيَذَرَكَ﴾ وأنت الرب الأعلى ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ وهم أربابك المنتخبون ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ لكي يفنوا عن بكرتهم ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ إبقاء لهن أحياء وإزالة لحيائهن، فماذا يبقى بعد لهم؟ ثم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ برقابة قوية تامة طامة إياهم فلا يستطيعون حراكاً ولا عراكاً ضد سلطتنا.

وهذه سياسة مدروسة إبليسية لتضعيف ساعد الدين والدّينين أن يقضى على المساعدين المناصرين للداعية، فتخمد دعوته، وتحمد دعايته، فلا يقدر على تحريك ساكن أو إسكان متحرك.

وهذه مرحلة ثانية من مراحل القضاء الفرعوني على الدعوة الموسوية، ومن ثم تصميم في الصميم، خطوة ثالثة من الخطوات الإبليسية أن يقتل الداعية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[١].

وترى حين يدّعي ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٢] فما هو موقف ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾؟ قد تعني ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ الآلهة الفروع التي ادعى أنه ربهم الأعلى فهم الأدنون، أم ان هذه الدعوى تأخرت عن هذا الموقف إلى موقف ثان وكما يلمح من

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

آيتـهـا: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾[1].

فقول الملإ: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ كان في الموقف الأول بعد خسارهم في المباراة، وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كان في حشر ثان تجديداً للبيعة وقبيل ما أخذه الله نكال الأولى حيث أغرقه وملأه.

وهكذا ترفّع الطاغية الذي كان يحسبه في عداد سائر الآلهة أنه الرب الأعلى، ثم خطوة ثالثة هي توحيده في ألوهيته: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى...﴾[2].

ولأنه في دعوى ربوبيته الأعلى ثم توحيده فيها يخاطب قومه، فقد يعني أعلى الربوبيات وتوحيدها بين قومه فقط دون العالمين أجمعين، وقد لا ينافي ذلك أن كانت لهم آلهة غيره، حيث هو الأعلى وغيره الأدنى والأوسط، وانه الوحيد في الربوبية العليا.

وهنا الإفساد في الأرض المدعى على موسى لا يعني إلّا الدعوة إلى توحيد الربوبية الذي يصادم ألوهة فرعون الأعلى وسواها، وألوهة سائر الإلهة، حيث التوحيد يعني - تلقائياً - بطلان شرعية الحكم الفرعوني وقلب نظامه عن بكرته.

فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تُناقض تماماً ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ فليقّض على كلمة التوحيد بداعيتها والذين معه استقلالاً للحكم الفرعوني فيبقى دون منازع ولا ندّ.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾:

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٢٠-٢٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.

طمأنة بالغة من موسى الرسول لقومه المهدَّدين بتكرار العذاب المتواتر عليهم قبل أن يأتيهم، وذلك على قواعد أربع يبنى عليها صرح الإيمان والاطمئنان.

١ - ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في هذه الورطة الحالكة الهالكة، ٢ - ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ في الله على ما يصيبكم في سبيله، ٣ - ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وليست لأحد سواه، ٤ - ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ وهي الحياة العاقبة الصالحة هنا وفي الأخرى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ دون الطاغين، والمصداق الأجلى للحياة العاقبة هو الدولة الأخيرة الموعودة لزمن القائم الموعود عليه السلام للمتقين، كما في آيات وروايات عدة ومنها ما يُروى عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام إجابة عن توبيخ هشام: أيها الناس أين تذهبون وأين يراد بكم، بنا هدى الله أو لكم وبنا يختم آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكاً مؤجلا وليس بعد ملكنا ملك لأنا أهل العاقبة يقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. . .﴾[(١)].

فالاستعانة بالله في الهزاهز، والصبر على المكروه وترك اللذائذ، هما مما يورثان أصحابها أرض الله وحسن العاقبة في الحياة، ولكن قوم موسى لم يكونوا بأقل شراسة ونحوسة من قوم فرعون حيث كانوا يواجهونه بكلٍّ تأليب وتأنيب:

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٧ في أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك وصار ببابه قال لأصحابه ومن كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد وبخت محمد بن علي عليه السلام ثم رأيتموني قد سكت فليقبل عليه كلّ رجل منكم فليوبخه، ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر عليه السلام قال بيده: السّلام عليكم فعمّهم جميعاً بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقاً بتركه السّلام عليه بالخلافة وجلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه ويقول فيما يقول له: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين ودعى إلى نفسه وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم ووبخه بما أراد أن يوبخه فلما سكت أقبل عليه القول رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم فلما سكت القوم نهض عليه السلام قائماً ثم قال: أيها الناس. . . فأمر به إلى الحبس. . .

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾:

فَجِئتُك فجيعة كما قبل جيئتك، فهما سواء لنا فما هي عائدتك وفائدتك حتى نطمئن بها ونؤمن لك؟ ﴿قَالَ﴾ لا تستعجلوا ناظرين إلى عجالة الأمر، مع أنها تتبنى إجالتكم حيث تغلبنا على فرعون في المباراة وذلك حاضرة جيئتي، وأما مستقبلها فـ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾ على طوله وحوله وقوته وضعفكم ثم ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بديله ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ بعدما يعلم كيف تعملون.

ذلـــك ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾(١) و«الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختَبر».

هذا، ولقد بدأوا موسى الرسول عليه السلام بهذه القولة اللّاذعة وهو يطمئنهم ويأمرهم ويرجّيهم برحمة من الله، ولكن لا حياة لمن تُنادي، فإسرائيل هي إسرائيل صِلَته صَلِتة وقحة!.

وهنا بعدما يعدهم موسى باستخلاف الأرض ينبههم أنه ابتلاء من الله دون فوضى جزاف، وادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه!.

وترى ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ تختص بعمل الجوارح؟ إنه حين يقرن بقال أو حال، يعني عمل الجوارح، وهو الطليق عما سواه يعم مثلث الأعمال قالاً وحالاً وأعمالاً.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام في الإجابة عن سؤال: أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئاً إلّا به؟

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

قيل: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلّا هو أعلى الأعمال درجة، وأشرفها منزلة، وأسناها حظاً - قيل: ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل، أم قول بلا عمل؟

فقال: الإيمان عمل كلّه، والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه - قيل: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه؟ قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه - قيل: إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جارحه جارحة إلّا وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها: فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلّا عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما، وأذناه اللتان يسمع بهما، ويداه اللتان يبطش بهما، ورجلاه اللتان يمشي بهما، وفرجه الذي الباه من قبله، ولسانه الذي ينطق به، ورأسه الذي فيه وجهه - فليس من هذه جارحة إلّا وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها، بفرض من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها، ويشهد به عليها - ففرض على القلب غير ما فرض على السمع، وفرض على السمع غير ما فرض على العينين، وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان، وفرض على اللسان غير ما فرض على اليدين، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، . . . فأما فرض القلب. . . [١].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾:

---

(١) الكافي ٢: ٣٣ - ٣٧ وفيه تفاصيل وظائف الجوانح والجوارح.

هذه الآية والخمس الآتية هي آيات ست لفرعون وملإه، ثم وآيات تسع لبني إسرائيل وكما قال الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ...﴾[1] والجمع بينها وبين هذه الست بيناه على ضوء الآية في الأسرى»[2].

ذلك من مشارف إهلاكهم كما وعد الله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ و﴿بِالسِّنِينَ﴾ جمع السنة ولكنها هنا سنة الجدب فإنها هي من أخذة العذاب، دون أصل السنة الشامل لكلِّ الكائنات، ثم وهي الجدب المتراوح سنة دون سنة كسنين يوسف، وكما يُروى عن النبي ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف».

وسني الجدب والقحط في أرض مخصبة معطاء كمصر تبدو ظاهرة قاهرة تلفت الإنظار، أنها الإنذار الداعي لليقظة بعد النومة والنبهة بعد الغفلة، فلو أن فرعون هو الرب الأعلى فكيف عجز عن استمرارية الجدب الذي هو قضية طبيعة الأرض المصرية؟.

ثم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ﴾ وعلّها تجمع إلى ثمرات الزروع والأشجار وسائر الثمار التجارية والصناعية، ثمرات الأولاد، عكسية ماثلة بين أيديهم بما قتلوا أبناء بني إسرائيل واستحيوا نساءهم جزاءً وفاقاً، فأين إذاً ﴿مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾[3] وقد كان يعرضها بمعرض الناس دليلاً على رجاحته على موسى ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[4].

هنا عجالة يأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات دون أن يستأصلهم بأسرهم، إجالة للنظر في سنن الله بوعده ووعيده، ولكنهم لغلظ حسهم وانقلاب فطرتهم وعقليتهم لم يكونوا لينتبهوا إلى العلاقة الوطيدة بين كفرهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠.
(٢) ج ١٥: ٣٦١ - ٣٦٣ فراجع.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥١.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٢.

وطغيانهم وبين أخذهم بالسنين ونقص من الثمرات في مصر التي كانت ولا تزال تفيض بالخصب والعطاء، إلّا ما كان زمن يوسف تذكيراً للسلطة الجبارة، وفسحاً لمجال الدعوة الربانية ليوسف.

ذلك، بل هم زادوا غباوة وطغياناً على ضوء السنين ونقص من الثمرات:

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

فمن ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ سنة الإخصاب وتمام الثمرة، كما من «السيئة» سنة الجدب ونقص من الثمرات، فعند مجيء الحسنة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ حسنة مستحقة بكل جدارة ولباقة، ثم عند مجيء السيئة ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ أنه هو سبب السيئة ﴿أَلَآ﴾ أيها النابهون ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يجازيهم به سيئة بسيئة، وهكذا كانوا يعلّلون مختلف الأحداث «حسنة وسيئة» تعليلاً عليلاً كليلاً خلواً عن الواقعية عقلية وعلمية وعقيدية وطبيعية، فما هي القاعدة التي تحكم بأن الحسنات في الحياة هي مستحقة للجبارين الطالحين، ثم السيئات فيها هي من مخلفات دعوات الصالحين، اللّهم إلّا هياماً مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة لا تلتقي عند قاعدة ولا تجتمع وفق نظام، فاللّهم إلّا الصدفة العمياء الفوضى الجزاف كما قاله خروشوف صاحب الاشتراكية العلمية عن معاكسات الطبيعة في تعليل نقص الثمرات والغلات، ومعه كلّ هؤلاء الذين يمضون مع هذه «العلمية» الجاهلية غابرة وفي القرن العشرين، المدعاة في تعليل الحوادث بهذه النظرة القاصرة الباسرة: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[1]!.

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

هكذا يتطير المجاهيل في تيارات الحوادث والكوارث أنها من نكبات حملة الدعوات الربانية، فالحسنة التي تجيئهم هي من حسن حظهم المستحق، والسيئة هي من شؤم من يخالفهم في شهواتهم وحيوناتهم وإباحياتهم الطليقة!.

وهكذا نجد كلّ طغاة التاريخ على مدار الرسالات الربانية، ففي صالح لمّا ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وفي رُسل المسيح عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[2].

فالقرآن يبيّن كلمة واحدة أن طائر كلّ معه وعند الله، معه بما عمل ويستحقه، وعند الله بما يحقّقه علماً وجزاء وفاقاً هنا وفي الأخرى ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾﴾[3]: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وأقلهم يعلمون ولكنهم على علمهم يجحدون، و﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هنا جهالة عن تقصير يندد بها كما يندد بالعالمين.

فالطائر هو العمل اعتباراً بطيرانه إلى الغير أم إلى الفناء كما يخيّل إلى المجاهيل، واعتباراً بطيرانه إلى نتائجه هنا وفي الأخرى لأنه لا يفنى ولا يطير إلى غير عامله، كما يقول الله[4].

(١) سورة النمل، الآيتان: ٤٦، ٤٧.
(٢) سورة يس، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) وأصل التطير ما كان الجاهليون في وثنيتهم يزاولونه فقد كان منهم من إذا أراد أمراً جاء إلى=

فالتطير بالغير هو تخيل أن شؤم الغير بعمله يطير إلى غير عامله، فلما كانوا يتشأمون بدعاة الحق، كانوا يحسبون كلّ سيئة تصلهم أنها من جرّاء شؤم هؤلاء الأكارم، وكل حسنة هي مستحقة لهم أنفسهم وهكذا ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾(١).

ذلك، ولم يكتفوا في هذه الخطوة الثانية الخاطئة - بعد رمي موسى بالسحر - إلّا أن غالوا في عتوهم:

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾:

وهنا يسمون ما يأتي به موسى ﴿ءَايَةٍ﴾ هزءاً ومهانة بها حيث تعقبها ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ أم وإيقاناً بها حيث ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٢) فقد صدّوا على أنفسهم كلّ منافذ النور والإيمان حيث حلقوا ذلك النكران على كلِّ آية دونما استثناء ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إعلاناً جاهراً بكفر طليق على أية حال، إذاً فهنا استحقاق عذاب الاستئصال دون إبقاء لأي مجال، ولكن الله يمهلهم - مع الوصف - حتى حين:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

ففي خضمّ خماسية هذه الآيات المفصلات خماصيتهم استئصالاً لعلوائهم أمامها حتى تطلّبوا إلى موسى أن يكشف عنهم الرجز فيؤمنوا ولكنهم ناكثون!.

= عش طائر فهيّجه عنه فإذا طار عن يمينه - وهو السانح - استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يريده وإذا طار الطائر عن شماله - وهو البارح - تشاءم به ورجع عما عزم عليه فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي وأصل محله التفكير العلمي الصحيح والعمل، وقد شرحنا حول الطائر على ضوء آية الأسرى فراجع.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

و﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ من الطوف، ففُعلانه طوف بالغ لا مرد عنه، وهو يشمل طوفان الماء كما كان لقوم نوح، وطوفان الريح الشديدة الحاملة لما تحمل من غبارات وقذارات، فقد طاف بهم الطوفان فاستأصل كلّ رياحة عن حياتهم، وهكذا سائر الخمسة من الرجز.

و﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ قد تعني إلى فصل بعضها عن بعض دون وصل، تفصيل كون كلّ واحدة منها آية مستقلة دون أن تكون لزاماً من خلفية الأخرى، كما ولا صلة بين هذه الخمس في مظاهر عللها الطبيعية، ومفصلات مبينات في الدلالة على كونها آيات الله.

ومن كونها مفصلات أن كلًّا كانت تأتي بفصل خاص خطوة خطوة، من دانٍ إلى عالٍ إلى أعلى، فقد كان ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أعلاها عذاباً و﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ أدناها، وبينهما متوسطات، كما هي طبيعة الحال في البلوى ليذكروا بها.

وما أنسبها خماسية العذابات هذه، خماسية اللعنات في هؤلاء الأنكاد، فالطوفان المدمر لأنهم كانوا طوفاناً يدمّر الحق وأهله، والجراد حيث يجرد الثمر، إذ كانوا يجردون الحياة الإنسانية عن ثمرتها السامية، والقمل حيث تمتص الدم وتؤذي صاحبه وهي تسكن مساكن القذارات، وهم يمتصون دماء الحياة ويؤذون ذوي الحياة، والضفادع إذ ضفدعوا: متقبضين منكمشين أمام الحق، والدم إذ كانوا دماء يسيلونها في سبيل الباطل: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ عن السحر، مبيّنات لإحقاق الحق ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الخضوع لها ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ يجرمون ثمرة الحياة قبل إيناعها، نكراناً لآليات على التماعها.

هناك ﴿أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ وهنا ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ...﴾.

تختصان هذه العذابات الست بهم دون بني إسرائيل على اختلاطهم بهم، مما يدل على أن هذه لم تكن لهم عذاباً وإنما هي لهؤلاء، فقد تصدق الرواية أن القبطي كان يأخذ الماء من النيل دماً أحمر له طعمه ولونه،

والإسرائيلي يأخذه منه ماء فراتاً له طعمه ولونه، وهكذا الطوفان والجراد والقمل والضفادع إذ لم تكن تؤذي الإسرائيليين!، وكانت تستأصل كلّ رياحه عن حياتهم أولئك اليومية، حتى اضطروا على فرعنتهم وغرورهم أن يلتجئوا إلى موسى لما وقع عليهم ذلك الرجز العذاب الأليم(١):

---

(١) نور الثقلين ٢: ٥٨ علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام - دخل حديث بعضهم في بعض - قالا: لما آمنت السحرة فرجع فرعون مغلوباً وأبى هو وقومه إلّا الإقامة على الكفر قال هامان لفرعون: إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس كلّ من آمن به من بني إسرائيل فتابع الله عليهم بالآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ثم بعث عليهم الطوفان فخرب دورهم ومساكنهم حتى خرجوا إلى البرية وضربوا الخيام وامتلأت بيوت القبط ماء ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة وقام الماء على وجه الأرض لا يقدرون على أن يحرثوا فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا وقال هامان لفرعون: لئن خليت بني إسرائيل غلبك موسى وأزال ملكك وأنبت الله لهم في تلك السنة من الكلاء والتمر والزرع والثمر ما أعشبت به بلادهم وأخصبت فقالوا: ما كان هذا الماء إلّا نعمة علينا وخصباً فأنزل الله عليهم في السنة الثانية - أو في الشهر الثاني - الجراد فجردت زروعهم وأشجارهم حتى كانت تجرد شعورهم ولحاهم وتأكل الأبواب والثياب والأمتعة وكانت لا تدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء فعجوا وضجوا وجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً وقال: يا موسى ادع لنا ربك أن يكف عن الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل فدعا موسى ربه فكف عنه الجراد بعد ما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت، فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة - أو الشهر الثالث - القمل وهو الجراد الصغار لا أجنحة له وهو شر ما يكون وأخبثه فأتى على زروعهم كلها وأفناها من أصلها فذهبت زروعهم ولحس الأرض كلها... وأخذت أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزمت جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعتهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربك لئن كشفت عنا القمل لأكفن عن بني إسرائيل فدعا موسى عليه السلام حتى ذهب القمل بعدما أقام عندهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة - أو الشهر الرابع - الضفادع فكانت يكون في طعامهم وشرابهم وامتلأت منها بيوتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلّا وجد فيه الضفادع وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ويفتح فاه لأكله فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه فلقوا منها أذى شديداً فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه السلام وقالوا: هذه المرة نتوب ولا نعود فادع الله أن يذهب عنا الضفادع فإنا =

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

﴿ٱلرِّجْزُ﴾ هنا هو الحياة البئيسة التعيسة النكدة النكبة من جرّاء خماسية العذاب ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى﴾ وقضية الجمع أن يكون فرعون بملئه معهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وذلك سوء أدب معه أنه تعالى فقط ربه لا وربهم ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من إجابة الدعاء خارقة للعادة كما عودتنا «لئن كشفت عنا الرجز - بدعائك - لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل» وعدان اثنان هما العصب الحساس ضدّ ما تعصبوا عليه من الكفر والاستبعاد ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ بدعاء موسى فالكاشف - إذاً - هو الله دون موسى، وتلك كانت غلطة غليظة، ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ كـ ﴿رَبَّكَ﴾، ﴿كَشَفْنَا . . . إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، وهو المهلة التي بلغوها ولمّا يؤمنوا ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ما عاهدوا، وهذه المهلة هي بين ما أمهلهم موسى إياها أم هم أمهلوا أنفسهم فيها،

= نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام عليهم سبعاً من السبت إلى السبت ثم نقضوا العهد وعادوا لكفرهم فلما كانت السنة الخامسة أرسل عليهم الدم فسال ماء النيل عليهم دماً فكان القبطي يراه دماً والإسرائيلي يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلي كان ماء وإذا شربه القبطي كان دماً وكان القبطي يقول للإسرائيلي: خذ الماء في فيك وصبه في فيّ فكان إذا صبه في فم القبطي تحول دماً وإن فرعون اعتراه العطش حتى أنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماءها في فيه دماً فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يأكلون إلّا الدم ولا يشربون إلّا الدم - قال زيد بن أسلم: الدم الذي سلط عليهم كان كالرعاف - فأتوا موسى عليه السلام فقالوا: «ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فلما دفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا ولم يخلوا عن بني إسرائيل» أقول: والمقبول من هذه الرواية وأمثالها ما لا تخالف القرآن وإن لمحة وإشارة، فقد كثرت الإسرائيليات في أحاديثنا لحدّ ما نجى أي كتاب حديث وفقه وتفسير عنها فلنتجرد لما يوحيه لنا القرآن، ولنجرده عن التفاسير التي تخالفه أم لا توافقه إذ لا تواتر لنا إسلامياً يعلو القرآن أم يساميه ويوازيه، فليطرح كلّ حديث يحدثنا بما لا يصدقه القرآن.

وعلى أية حال كان أجلاً هم بالغوه بطبيعة الحال وقبل أن يغرقوا عن آخرهم في تقدير الله.

ذلك وقد تحتمل ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ إلى عهد إجابة الدعاء، أصل الرسالة التي هي عهد خاص من الله، والباء بين سببية فـ ﴿ٱدۡعُ﴾ بسبب الرسالة التي هي أزلف الزلفى إلى الله، وقسم. فـ: قسماً برسالتك من الله إن كنت رسولاً، كما وأن «ما» تحتمل الموصوفة إلى الموصولة، فلقد كانوا يناقضون في أقوالهم بمختلف حالاتهم، فتارة ينكرون رسالته وأخرى يتعلقون بها في قضاء حاجاتهم الضرورية!.

فلقد كانوا يلجؤون إلى موسى، يتطلبون بإصرار تحت ضغط البلية الفاضحة الفادحة، يعدونه الإيمان له وأن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها بدعائه فـ ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾!.

ذلك، فلما انتهى أمر الابتلاء إلى ما لا منفذ فيهم بها من الذكرى فلم يبق مجال إلّا استئصالهم، تطهيراً للأرض عن هؤلاء الأنكاد البعاد:

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾:

ذلك وليس انتقام الله منهم وممن سواهم عجزاً منه وتحسراً ودفاعاً عن نفسه، إنما هو إصلاح للأرض بإزالة المفسدين الذين لا يرجى منهم أي خير إذ صدوا على أنفسهم كلّ منافذ النور والهدى.

فقد ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كلّها رسولية ورسالية، آفاقية وأنفسية «و» الحال أنهم ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ عن عمدٍ وتقصيرٍ، فالغفلة العامدة العاندة ليست بالتي يُعفى عنها في شرعة العدل والحكمة، إنما هي الغفلة القاصرة على قدر القصور فيها، فهذه هي ضفة الكفر والنكران، فإلى ضفة الشكر والإيمان:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

إن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ شملت بني إسرائيل لإيمانهم وأنهم ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ ثـــم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ فمثلث الإيمان المستضعف الصابر هي هندسة تمام كلمة ربك الحسنى، فلذلك أورثناهم مشارق الأرض المقدسة ومغاربها التي باركنا فيها، وفي الطرف المقابل اللّاإيمان الاستكبار وعدم الاصطبار ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من صناعات ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ من بنايات وجنات معروشات.

ذلك وبركات الأرض التي باركنا - وهي مصر القدس الكبير، وهو فلسطين الكبير بما فيه سوريا والأردن ولبنان - هي من ناحيتي القدسية الروحية والمادية، فقد بعث أكثر المرسلين منها ودفنوا فيها، ثم البركات المادية هواء وماء وكلاء وسائر الإخصاب نجدها فيها أكثر من غيرها.

صحيح أن الأرض المباركة والمقدسة هنا في القرآن هي فلسطين الكبير، ولكن ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ هنا تشمل مصر حيث كان فيها فرعون وقومه، فقد سيطرهم الله على مصر وما والاها وفلسطين وما والاها ولا سيما في زمن داود وسليمان.

وقد نحتمل قوياً أن يُعنى من ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ إلى محال وراثهم محال استضعافهم.

إذاً فـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ في مشارق الأرض ومغاربها «أورثناهم» مشارق الأرض ومغاربها، فهم أورثوا نفس الأرض التي استُضعفوا فيها وهي مصر، ولأن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ طليقة هنا من حيث الإيراث

مهما كانت مختصة بمصر من حيث الاستضعاف، إذاً فمحل إيراثهم أوسع من محل استضعافهم، ولكنها ليست كل الأرض لمكان ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ فهي الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي التي قالها لهم موسى، منها: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وقال من ذي قبل ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[1] مهما كانت الأرض هنا لأصحاب المهدي (عج) كلّ الأرض، ولذلك أطلقت حتى تشملها، فقد تمت هذه الكلمة الحسنى عليهم في إيراثهم بمصر أولاً ثم في الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، ولكن ليست بجدارة طليقة كيفما كان عملهم، وإنما ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وكان عملهم الأول كفراً وكفراناً لهذه الحسنى فقابلهم الله بمثل ما عملوا:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهو اليم الذي أغرق فيه آل فرعون إذ ضرب لهم موسى بأمر الله طريقاً يبساً حيث انفلق فكان كلّ فرق كالطّود العظيم، وعلى أية حال ﴿وَجَٰوَزْنَا...﴾.

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ إذ كانوا من المشركين الرسميين ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وهم موحدون حسب الدعوة الموسوية، ولكنهم منحازون إلى المادة لحدٍّ رغبوا في عبادة الأصنام ﴿قَالَ

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون جهالة عريقة عميقة بعد ما رأيتم آيات الله البينات لكم على قوم فرعون.

فحين يقول بعض اليهود لعلي أمير المؤمنين عليه السلام: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم؟ يقول له: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾![1].

وذلك أوّل ما نظر الله كيف يعملون بعد ما تمت كلمة ربك الحسنى عليهم بما صبروا، وإلى أمثاله المسرودة مفصلاً في الذكر الحكيم بطيات آياتها.

لقد تمت مواجهة موسى آل فرعون بما أغرقوا، فلا يواجه بعد اليوم طاغوت فرعون وملإه، ولكنه تواجهه معركة أخرى مع أقربائه بعد أغربائه هي أشد منها وأقسى وأنكى منها وأشجى وأطول أمداً، حيث يواجه بني إسرائيل برواسب الذل الذي أفسد سجيتهم من ناحية، ورواسب الوثنية التي أفسدتها من أخرى، وكذلك الالتواء والقسوة والضعف والجبن عن حمل التبعات مع الذعر الدائم والتوقع القائم للبلاء.

ذلك رغم أنهم في الأصل على دين التوحيد، ولكنهم رغم ذلك كانوا قوماً ماديين يعيشون أصالة الحس والمادة دون عناية إلى ما وراءها إلّا تشريفياً دون أصالة، كهالة قدسية لمّا تتبدل إلى حالة عقيدية راسخة، وكما هو الظاهر من التوراة المحرفة حيث حرفوا لاهوت الألوهية إلى شاكلة إنسان له ما لسائر الإنسان، ولكنه أقوى، أم وهو أضعف أحياناً من إنسان، كما في قصة فنوئيل حيث تقول صارعه يعقوب فصرعه فاقتضى منه بركة النبوة حتى يخلصه فتقبل فنجي.

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وفي تفسير البرهان عن محمد بن شهر آشوب أن رأس الجالوت قال لعلي عليه السلام: لم تلبثوا بعد نبيكم إلّا ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف؟ فقال علي عليه السلام: وأنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

وتراهم طلبوا إليه أن يجعل لهم إلهاً بديل الله هو كما الله؟ والإله المجعول لموسى ليس إلّا من خلقه واختلاقه فكيف يكون إله العالمين!.

القصد هنا هو ألوهية المعبودية تقرباً بالآلهة إلى الله زلفى كما يقولها سائر المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(١) فأجيبوا بـ ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ المقاييس والموازين أن تعبدوا غير من خلقكم وفضّلكم على العالمين!.

فعملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذلّ الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى عليه السلام منذ الآن بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزهم البحر، وهذه النفوس البئيسة التعيسة ستواجه الحرية الحقة بكلّ رواسب الذلة والمسكنة، وتواجه الرسالة بكلّ رواسب الجاهلية بكلّ خلفياتها، بل وأنحس منها، فإن سحرة فرعون آمنوا بعد ما رأوا آية ثعبان العصا واليد البيضاء وهم لم يؤمنوا بعد ما رأوا كل الآيات الموسوية وهي بضع عشرة آية، اللّهم إلّا قليل منهم وفى لرعاية الحق.

وها هم ما أن يُجاوزا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم، وإذا هم يطلبون طلبهم، ويغلبون أمام الأصنام غلبهم، حيث يطلبون من موسى رسول التوحيد من رب العالمين أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة. . طبيعة مخلخلة العزيمة، سريعة الهزيمة، ضعيفة الروح، قوية الشكيمة، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما ظلت ترتفع وتزيد حتى تنحط وتقل، فأين الدعوة التوحيدية الموسوية قرابة عشرين سنة أم تزيد، فقد نسوا آياته الرسولية والرسالية، وحتى التي أنجتهم في اللحظة الأخيرة إذ جاوز بهم البحر بعد ما أغرق فرعون وملأه! ولو أنهم اتخذوا لأنفسهم إلهاً لكان أقل غرابة وعتامة من أن يطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهاً كما

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

لهم آلهة! وما كان جوابهم المختصر المحتصر عجالة إلّا ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تجهلون كافة المعالم الإنسانية والإيمانية، فـ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ من الجهالة ضدّ المعرفة، ومن الحماقة ضدّ العقل، ومن البلاهة ضدّ الشعور، فما ذلك التقوّل التغوّل إلّا من أحمق الحماقة وأعمق الجهالة والبلاهة إلى غير حدود!.

ذلك وحق يقال إنهم أحمق وأعمق جهالة من آل فرعون المشركين إذ صمدوا على باطلهم ولم يهووا ولا مرة واحدة أن يوحدوا الله، وهم أولاء الأنكاد البعاد عشيرة التوحيد وقد عاشرهم رسول التوحيد عشرين وما زاد، ومن قبل كان منهم رسل التوحيد تترى، ثم بلحظة مّا عند ما نجوا، بدلاً أن يشكروا الله ويوطدوا توحيدهم تطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة!.

ولقد استحقوا بذلك التطلب الهراء الخواء ثالوثاً من ﴿تَجْهَلُونَ - إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ - أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وقد حفل سلباً لألوهة غير الله بالأوّلين وإثباتاً لألوهة الله بالأخير:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

جملة معترضة اعترضت بين قالتي موسى لهم، تجمع في تنديدها بني إسرائيل إلى آل فرعون، فـ : يا بني إسرائيل ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ الفرعونيين وسائر الوثنيين ﴿مُتَبَّرٌ﴾ منقطع ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من عبادة آلهة دون الله ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وما كلّ من يسمع إلى هذه القصة ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ من بني إسرائيل. . .

فهم قوم بوار تبار حيث تركوا عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة خلقه الضعاف النحاف.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾:

فيا سبحان الله قوم أنجاهم الله من عبودية الطاغية، وجاوز بهم البحر وأهلك عدوّهم وأراهم الآيات العظام ثم سألوا رسول التوحيد الشرك دون فصل! ولقد جاء من نظرائهم بصورة أخف من هذه الأمة حيث «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدة فقلت: يا رسول الله ﷺ اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها - وكانت تعبد من دون الله - فقال النبي ﷺ: الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم»(١).

فيا أغبياء! ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ لكم ﴿وَهُوَ﴾ الذي ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمكرمات «و» اذكر منها ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ... وَفِى ذَٰلِكُم﴾ السوم من العذاب ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ حيث ابتلاكم به لردح من الزمن ثم تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل لينظر كيف يعملون.

هنا عرض لقصة المواعدة الموسوية وفي طه مثلها باختلاف يسير في

(١) الدر المنثور ٣: ١١٤ عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا..
وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جدِّه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله له مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائف أرض شجرة دنواً عظيمة سدر كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تُعبد من دون الله فلما رآها رسول الله ﷺ صرف عنها في يوم طائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: إنها السنن قلتم، والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

التعبير، وبينهما بعض الميزات الخاصة بكلّ فصلنا التي لـ«طه» فيها، وهنا قول فصل حول آيته ما يخصها.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾:

هنا عديد المواعدة مذكور دون «طه»: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ﴾[(١)] ولكنها في البقرة: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[(٢)].

فـ﴿أَرْبَعِينَ﴾ هناك هي مجموع المواعدتين المتصلتين، و﴿ثَلَاثِينَ﴾ هنا هي ظاهرة أولى للمواعدة دون حصر حيث «وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة»[(٣)] فـ﴿ثَلَاثِينَ﴾ هي في صيغة التعبير كانت امتحاناً لبني إسرائيل دون أن يعلموا ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ ابتلاء بهذه المتممة هل هم بعد على انحرافهم الشركي أم أصلحوا أنفسهم فلا يضلون، ولكنهم ضلوا إلّا قليل بفتنتي مزيد العشر على الثلاثين[(٤)] وعجل السامري: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[(٥)].

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥١.

(٣) نور الثقلين ٢: ٦١ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أن موسى قال لقومه: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوماً ليتسهل عليكم ثم زاد عليهم عشراً وليس في ذلك خلف لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها، وفيه عن الفضل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: كذب الوقاتون كذب الوقاتون أن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، وإذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله تؤجروا مرتين.

وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زاداً له على الثلاثين عشراً قال قومه: أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا.

(٤) المصدر السابق.

(٥) سورة طه، الآية: ٨٥.

وترى لا يستدل بظاهر العدد - إذاً - على ألّا يُعنى أزيد منه كما لا يُعنى الأنقص؟ إن الأنقص هو خلاف النص، والأزيد قد يكون خلاف النص كما إذا كان العدد في مسرح الحصر فهو - إذاً - مصرح الحصر، كأن تسأل ما عندك من الدراهم؟ فتقول: عندي عشرة، فإنها - إذاً - نص في العدد ينفي الأزيد كما ينفي الأنقص، وأخرى ليس خلاف النص، بل هو لأكثر تقدير ظاهر يقبل التحويل كأن تقول دون سؤال: عندي عشرة، فليس ينافيها أكثر منها حيث الأقل هو تحت الأكثر، وهكذا يعني قول الله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ فقد قال لهم موسى واعدني ربي ثلاثين ليلة، قبل أن تلحقها المواعدة الثانية، ومهما كانت الأولى ظاهرة في حصرها ولكن ليست بحيث يستدل بها على سلب مواعدة ثانية حتى إذا جاءت يقال: إن الأولى كاذبة، فقد تكون الأولى - كما هنا - لمصلحة تقتضيها، فلا يحتج بها على سلب الأخرى، مهما لا يحتج أيضاً على إيجابها، فلنسكت عما وراء العدد إيجاباً وسلباً، مهما يلمح بالسلب لما وراءه.

وهنا ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ دورها دور السكوت عما وراءها، فإذا تأخر موسى الرسول كان ذلك دليلاً على وعد آخر يتلوها قبل أن يخبرهم موسى، ولا فرق - إذاً - بين ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ بعد ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ دون فصل بطرح الوحي، وبين ذلك الإتمام المستفاد من واقع التأخير لقوم موسى، والوحي الثاني بحمله لموسى نفسه.

ذلك، وحتى إذا كان العدد نصاً في الحصر ثم لحقته زيادة بنص آخر لا يكذّب هذا الآخر فإن للنسخ مجالاً واسعاً حين نتأكد من النص الثاني، فضلاً عما هنا حيث العدد ليس نصاً في الحصر ولا ظاهراً بيناً، وإنما له لمحة الظهور.

وكضابطة في الأعداد وسائر القيود هي بين حالات ثلاث: ١ - أن تدل

قرائن على الحصر، ٢ - أم على سلبه، ٣ - أم لا دلالة على الحصر إيجابياً ولا سلبياً، وهنا ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾ من القبيل الثالث، مهما كان ظاهراً طهوراً مّا في الحصر، احتمالاً راجحاً لحصر المواعدة في ﴿ثَلَٰثِينَ﴾ ولكنه ليس حجة على كذب موسى بما ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ أم كذب الله وعوذاً بالله، حيث الأدلة القاطعة على كمال الصدق وتمامه في قول الله وقول رسول الله، المبرهن على رسالته بآيات من الله، هذه الأدلة تجعل ذلك الاحتمال اختمالاً وفي بوتقة النسيان، بل وحتى إذا ناقضت المواعدة الثانية الأولى فوجه النسخ موجه لا يدع مجالاً لفرية الكذب في الساحة الربانية والرسالية.

ذلك، فالقول: إن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه لا يصح إلّا عند فقد القرائن على سلب أو إيجاب، فليست ضابطة تحلق على كلّ إثبات أنه لا ينفي ما عداه، إنما هو الإثبات غير الحاصر حدّه بعدّه أو مدّه.

ثم المواعدة الخفية عن قوم موسى هل كانت خفية على موسى نفسه كما هم، ثم أوحيت إليه بعد كمال الثلاثين، أم كان يعرفها عند المواعدة الأولى، دون سماح له أن يخبرهم بها؟ الظاهر أنه ما كان يعلمها كقومه على سواء، وإلّا لم تكن مواعدة ثانية، إنما هي مواعدة واحدة هي «أربعون ليلة».

إذاً فـ ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ بمواعدة ثانية بعد الثلاثين أم ضمنه، دون أن تكون أوحيت إليه مع الأولى، اللّهم إلّا بتأويل أن الله واعده الأولى أن يخبر بها قومه، ثم بعدها الثانية دون فصل ألا يخبرهم بها ابتلاء لهم بما أثقلوا ببراهين الحق الحقيق بالتصديق، وهم مكذبوه، فهي - إذاً - من بلية الشرّ جزاءً وفاقاً، وعدلاً بما أوتوا من تلكم البراهين.

هذا، ولأن المواعدة كانت تشملهم أجمع حسب الجمع في طه:

﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾[1] و﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[2] فقد كانت المواعدة الأصيلة هي ثلاثين ليلة ثم ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ إتماماً للعدة المعنية بذلك العدد المبارك وعشر ذي الحجة.

ذلك وللأربعين عديداً ومعدوداً منزلتها في مختلف الحقول تكويناً وتشريعاً فـ «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً إلّا زهده الله في الدنيا ويبصره داءها ودواءها وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه...».

وهي هنا كما يروى ثلاثون ذي القعدة - حيث اتفقت هكذا حين المواعدة - وعشر من ذي الحجة، وما يروى سناداً إلى ثلاثين هذه أن ذا القعدة هي ثلاثون يوماً[3] هي خلاف الواقع المكرور، كما وأن ﴿ثَلَٰثِينَ﴾ في الآية لا تقرر نفس العدد لذي القعدة على مدار الزمن!.

وإنما اختص ذكر «ليلة» دون «نهاراً» أو «أياماً» لـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[4] فإن فيه اجتماعاً للحواس عن سائر التفرقات الحيوية المعيشية أكثر من النهار.

ويا للأربعين من موقف مشرّف تكويناً وتشريعاً، فمن التكوين أن كلّ رحلة من رحلات الجنين أربعون يوماً، ثم وفي التشريع قد ابتعث النبي ﷺ في الأربعين من عمره، وهكذا - كما يُروى - سائر النبيين عليهم السلام

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

(٣) ثلاثون يوماً لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] ومثله في الكافي عنه عليه السلام.

أقول: أمثال هذه التطرفات هي تذوقات غير مسنودة إلى دليل تُفترى على المعصومين عليهم السلام!.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٦.

«وليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين» أي في صورة من له أربعون، و«من شرب الخمر لم تحتسب صلاته أربعين يوماً» و«من قرأ الحمد أربعين مرة في الماء ثم يصب على المحموم يشفيه الله» و«إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عز وجل إلى ملكيه إني قد عمرت عبدي عمراً فغلظا وشددا وتحفظا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره» و«إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع. . .» «وأبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده» و«إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس وجهه وقال: بأبي وجه لا يفلح» و«من حفظ من أمتي أربعين حديثاً مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»(١) وقد «بكى آدم

(١) أربعون حديثاً يعم القرآن والسنة، بل والقرآن أحرى أن يكون حديثاً: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] ثم ولا يعني «حفظ» فقط حفظاً عن ظهر القلب، بل هو كامل الحفظ تعلماً وتخلقاً وتعليماً وتطبيقاً في الأصول الثلاثة وفي الفروع. عشرة في الفروع العشرة، وثلاثين في الأصول الثلاثة، فطالما الحفاظ كثير ولكنما الرعاة قليل.

وقد يُروى «من بلغ أربعين ولم يتعص فقد عصى» فقد تعني مثلث العصي لهندسة كمال الإنسان وهي عصا الفطرة والعقلية والشرعة، استقامة على هذه العصي ليقوم في دين الله سليماً صالحاً.

ذلك وقد ورد «على أمتي» بديلاً عن «من أمتي» كما في البحار ٢: ١٥٦ ح ٨ وفي العيون ٢: ٣٧ ح ٩٩ عن الرضا عليه السلام وابن زهرة في الأربعين ٣٩ بالطريق الأول من السند رقم ٤٠ ورواه الشهيد الأول في مقدمة أربعين بالإسناد رقم ٦٤ وأخرجه كنز العمال ١٠: ٤٢٥ ح ٢٩١٨٥ - أخرجه ابن الجوزي بلفظه عن علي عليه السلام والدار قطني في العلل عن ابن عباس بلفظ «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله فقيهاً عالماً»، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء عنه وابن عدي وابن عساكر من طرق عن أبي هريرة وابن الجوزي أيضاً عن أنس وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعاً، وذكر في التخريج عدة من المحدثين المخرجين لهذا الحديث تركناه اختصاراً وكما يناسب موسوعتنا التفسيرية.

ومما يشهد على أن الحفظ لا يعني - فقط - حفظاً عن ظهر الغيب، بل هو الحفاظ لأربعين على العامة في أمر الدين فردياً وجماعياً، كنماذج من أصول الدين وفروعه، ما رواه في =

أربعين صباحاً على الجنة» و«انّصب الماء زمن نوح من السماء أربعين

= الخصال بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبيه الحسين بن علي عليهما السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان فيما أوصى به أن قال له يا علي! : من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة حشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. فقال علي عليه السلام : يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرني ما هذه الأحاديث؟ فقال: أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، وتعبدهُ ولا تعبد غيره، وتُقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها، ولا تُؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب الله عز وجل ، وتُؤدي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إذا كان لك مال وكنت مستطيعاً وأن لا تعق والديك، ولا تأكل مال اليتيم ظلماً، ولا تأكل الربا، ولا تشرب الخمر ولا شيئاً من الأشربة المسكرة، ولا تزني، ولا تلوط، ولا تمشي بالنميمة، ولا تحلف بالله كاذباً، ولا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور لأحد قريباً كان أو بعيداً، وأن تقبل الحق ممن جاء به صغيراً كان أو كبيراً، وأن لا تركن إلى ظالم وإن كان حميماً قريباً، وأن لا تعمل بالهوى، ولا تقذف المحصنة، ولا ترائي فإن أيسر الرياء شرك بالله عز وجل ، وأن لا تقول لقصير يا قصير، ولا لطويل يا طويل تريد بذلك عيبه، وأن لا تسخر من أحد من خلق الله، وأن تصبر على البلاء والمصيبة، وأن تشكر نعم الله التي أنعم بها عليك، وأن لا تأمن عقاب الله على ذنب تصيبه، وأن لا تقنط من رحمة الله، وأن تتوب إلى الله عز وجل من ذنوبك فإن التائب من ذنوبه كمن لا ذنب له، وأن لا تصر على الذنوب مع الاستغفار فتكون كالمستهزئين بالله وآياته ورسله، وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، وأن لا تؤثر الدنيا على الآخرة، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، وأن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، وأن تكون سريرتك كعلانيتك، وأن لا تكون علانيتك وسريرتك قبيحة، فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين، وأن لا تكذب ولا تخالط الكذابين، وأن لا تغضب إذا سمعت حقاً، وأن تُؤدِّب نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة، وأن تعمل بما علمت، ولا تعاملن أحداً من خلق الله عز وجل إلا بالحق، وأن تكون سهلاً للقريب والبعيد، وأن لا تكون جباراً عنيداً، وأن تكثر من التسبيح والتهليل والدعاء وذكر الموت وما بعده من القيامة والجنة والنار، وأن تكثر من قراءة القرآن، وتعمل بما فيه، وأن تستغنم البر والكرامة بالمؤمنين والمؤمنات، وأن تنظر إلى كلّ ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحدٍ من المؤمنين، وأن لا تملّ من فعل الخير، ولا تثقل على أحد، وأن لا تمنّ على أحد إذا أنعمت عليه، وأن تكون الدنيا عندك سجناً حتى يجعل الله لك جنة - فهذه أربعون حديثاً من استقام وحفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة الله، وكان من أفضل الناس وأحبهم إلى الله عز وجل بعد النبيين والصديقين، وحشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. =

صباحاً» «واحتبس الوحي عن رسول الله ﷺ أربعين يوماً» «واعتزل ﷺ عن خديجة أربعين صباحاً لحملها بفاطمة وولادتها إياها» «وتاه قوم موسى في التيه أربعين سنة» «وأملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى» وإذا مات المؤمن فحضر جنازته أربعون رجلاً من المؤمنين فقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلّا خيراً وأنت أعلم به منا، قال الله تبارك وتعالى: «قد أجزت شهادتكم وغفرت له ما علمت مما لا تعلمون»(١).

هنا يقول ﴿مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وهو بطبيعة الحال بأمر الله، وهكذا علي عليه السلام وبأحرى فأين ضرورة الخلافة في ثلاثين يوماً أو أربعين من الخلافة بعد موت خاتم النبيين ﷺ.

وكما يقول: «واختصني بوصيته واصطفاني بخلافته في أمته فقال ﷺ: - وقد حشده المهاجرون والأنصار وانغصت بهم المحافل - أيها الناس إن علياً مني كهار المؤمنون عن الله نطق الرسول إذ عرفوني أني لست بأخيه لأبيه وأمه كما كان هارون أخاه لأبيه وأمه، ولا كنت نبياً فأقتضي نبوة، ولكن كان ذلك منه استخلافاً لي كما استخلف موسى هارون صلى الله عليهما حيث يقول: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

وهنا نتبيّن أنه كان في قومه مفسدون يحاولون أن يحولوه عن صالح

= وفي الخصال عنه ﷺ: «من حفظ من أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً يوم القيامة» أقول: وأفضل السنة هو القرآن، أصلاً لسائر السنة.

وفي صحيفة الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً ينتفعون بها بعثه الله تعالى يوم القيامة فقيهاً عالماً» (العوالم ٢ - ٣: ٤٦٥ - ٤٦٨).

(١) هذه كلها مروية عن الرسول ﷺ وعترته عليهم السلام كما في سفينة البحار ١: ٥٠٤ - ٥٠٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

المجموعة فيوصيه أن يراقب الأوضاع بكل حائطة فلا ينجرف بجارف في خلافته.

وهنا لهارون مثلث من زوايا الخلافة المؤقتة - مما تصلح أن تكون نموذجة كاملة عن المستمرة - هي قاعدة الخلافة: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ ثم زاوية إيجابية هي الإصلاح: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ثم سلبية الإفساد: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهذان هما العمادان لكلِّ داعية ربانية على درجاتهم.

وعل ﴿قَوْمِي﴾ هنا دون «بني إسرائيل» لكون الشجرة المؤمنة أو جمع منهم كانوا فيهم.

ذلك موقف هارون عليه السلام في حقل ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وأين هو من موقف علي عليه السلام من خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال له: «أنت الخليفة من بعدي»[(١)] حيث «في النبوة وفي علي الخلافة»[(٢)] و«إن علياً خليفة الله وخليفتي»[(٣)] أجل «هو خليفتي من بعدي»[(٤)] كما «اثني عشر خليفة»[(٥)] ف«إن لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من الخلفاء اثني عشر إماماً عدلاً لا يضرهم من خذلهم»[(٦)] و«من نازع علياً الخلافة بعدي فهو كافر»[(٧)] و«يا عمر هذا وصيي وخليفتي من تقدّم عليه كذب بنبوتي»[(٨)].

(١) نور الثقلين ٢: ٦٢ عن خطبة الوسيلة يقول فيها بعد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: واختصني.. وقد أوردنا قسماً من متواتر حديث المنزلة في الفرقان ١٦: ٨١ - ٨٧ على ضوء آية الوزارة فلا نعيد.

(٢) المصدر ٤: ٩٢.

(٣) المصدر ٤: ٢٩٧.

(٤) المصدر ٤: ٢٩، ٥٥، ٦١ - ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٩ - ٨٣، ١٤٩، ١٩٤، ٢٧٧.

(٥) ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٦، ٣٢٧، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٨٤، ٣٨٥، و٥: ٤٢ و٢٠: ٣٣٨ - ٣٤٠، ٤٥٩ و١٣: ٦٧ - ٦٨ و١٥: ٢١٣ - ٢١٨، ١٩٧ - ٢١٢ و٢٠: ٣٣٨ - ٣٤٠.

(٦) المصدر ١٣: ١ - ٧٤.

(٧) المصدر ٨: ٢١٦.

(٨) المصدر ٧: ٣٣١. (٨) المصدر ٤: ٨١.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

هنا ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من المتشابهات التي يُخيّل إلى جاهليها أنه كلام كسائر الكلام، أو تكليم كسائر التكليم، كلا إنه كلام مخلوق كسائر الخلق، ولكنه متميز كما الخالق، عن كلام سائر الخلق، وهو يكلم رسله بالوحي كما يعون ويستطيعون و«له قوة الألسن كلها»[(١)].

ومن ميزات كلامه تعالى أنه ليس له جهة ثم هو يحتل كيان السامع من كلِّ جهة، فقد أصبح موسى كلّه سمعاً لذلك الكلام، ما لا يمكن لأي متكلم غير الله أن يكلم دون جهة خاصة ويشمل كلّ جهات المستمع!.

(١) الدر المنثور ٣: ١١٥ - أخرج البزار وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به.
وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أن الله تبارك وتعالى ناجى موسى عليه السلام بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل فكان فيما ناجاه أن قال: يا موسى أنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي فقال موسى: يا رب ويا إله البرية كلها ويا مالك يوم الدين ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أعددت لهم وماذا جزيتهم؟ قال: أما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم جنتي حتى يتبوءوا فيها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلّا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلّا الورعون فإني أستحيهم وأجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب. وأما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركهم فيه أحد.

ذلك، ومهما كانت المواعدة لهم أجمع ولكن سماع كلام الله يختصه قضية اختصاصه بالرسالة فلذلك ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دون «كلمهم».

أترى موسى الرسول عليه السلام على محتده المعرفي الرسولي بربه يسأله أن يريه نفسه لينظر إليه نظر البصر؟ وذلك طلب الجهلة السفهاء الظلمة من قومه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[1] - ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[2] - ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ...﴾[3] و﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[4].

أترى العتو الكبير، والسفاهة المغلظة التي تتطلب الصاعقة بظلمهم هي جامعة بين موسى الرسول وسفهاء ظالمين من قومه؟ فماذا يبقى بعد لهذه الرسالة السفيهة الظالمة المستكبرة العاتية عتواً كبيراً، التي يبعد عنها بسطاء الموحدين! فضلاً عن عظماء النبيين!.

قد يكون موسى عليه السلام محمّلاً في ذلك السؤال من قبل قومه كما يبدو من ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[5] والصاعقة لم تأخذ إلّا إياهم دون موسى عليه السلام فلو كان هو أيضاً سائلاً كما هم لكانت الصاعقة تأخذه كما أخذتهم، وآيات البقرة والنساء والأعراف تقول:

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٣.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

«أخذتكم. أخذتهم. أخذتهم» دون أخذة في هذه المجالة لموسى عليه السلام مما يدل على أن سؤال الروية كان لهم دونه(١).

فلمّا يسأل هو الرؤية ولا تأخذه الصاعقة ثم لا يسقّه ولا ينسب إلى

---

(١) نور الثقلين ٢: ٦٤ في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السلام حدثنا تميم بن عبد الله بن تميم القرشي قال حدثني أبي عن حمدان بن سليمان النيسابوري عن علي بن محمد الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول الله عز وجل: - إلى أن قال -: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران عليه السلام لا يعلم أن الله تعالى ذكره لا تجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟ قال الرضا عليه السلام: إن كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أن الله تعالى منزه عن أن يُرى بالأبصار ولكنه لما كلمه الله عز وجل وقربه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله تعالى كلّمه وقربه وناجاه فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته وكان القوم سبعمائة ألف فاختار منهم سبعين ألفاً ثم اختار سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى عليه السلام إلى الطور وسأل الله عز وجل أن يكلمه ويسمعهم كلامه فكلمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام لأن الله أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى يسمعوه من جميع الوجوه فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عليهم صاعقة وأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقاً فيما ادعيت في مناجاة الله عز وجل إياك، فأحياهم وبعثهم معه فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك ننظر إليه لأجابك وكنت تخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته؟ فقال موسى عليه السلام: يا قوم إن الله تعالى لا يُرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يُعرف بآياته ويُكلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى عليه السلام: يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى سلني ما سألوك فلن آخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى عليه السلام: رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه «وهو يهوي» فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل «بآية من آياته» جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] منهم بأنك لا ترى، فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن.

الظلم، فقد يتبيّن من ذلك أن السؤال إن كان للرؤية البصرية فهو عليه السلام محمّل عليه منهم فيسألها ربه بعد إذنه تعالى إتماماً للحجة وإنارة للمحجة.

والقول إن: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ دون «أرهم ينظروا إليك» يرد ذلك التحميل، يردّ بأنه جائز على هامش قصده الأصيل من الرؤية القمة، وأنه جمع في ذلك السؤال بين أمرين ثانيهما ما تطلبوه ولكنه خص نفسه ليظهر لهم أن استحالة رؤيتهم أحرى بعد استحالة رؤيته، فقد قدم نفسه فيما حمّل تثبيتاً للسلبية الأخرى لهم في حقل الرؤية البصرية، والقول بأنه كان عليه - إذاً - كرسول أن يوضّح لهم بطلان سؤالهم؟ مردود بأنه أبطله طول رسالته وهنا القصد إلى إبطاله عملياً حين تبطل رؤيته هو ربّه على محتده الرسالي!.

ثم الأظهر الأخفى أن الرؤية المسؤولة هي قمة المعرفة الممكنة بالله، اللائقة لأول العارفين والعابدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث إن تجليه تعالى «للجبل» لا «في الجبل» دليل تجلي القدرة الربانية التي لا يتحملها الجبل إلّا أن يندك، ولا بدّ للمثال أن يشابه الممثل في أهم مواضعه، وهو هنا لو كانت الرؤية البصرية لله، لكان تجليه تعالى نفسه في الجبل دون ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾.

ثم ما هي الصلة بين إمكانية رؤيته تعالى لموسى وبين أن يستقر الجبل مكانه في ذلك التجلي، إلّا أن يكون الجبل في ذلك التجلي مثالاً لموسى عليه السلام أنه لا يستطيع التجلي المعرفي القمة لله ما دام هو موسى الذي لم يبلغ مبلغ أول العارفين إلّا أن يموت في ذلك التجلّي، ثم لا يفيده الموت أيضاً أن يتجلى له ربّه في الحالة التجردية البرزخية، فإنما ذلك مخصوص بأول العارفين وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ . . . وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥﴾[١]

(١) سورة النجم، الآيات: ٨-١٥.

ولو لم يكن مُكلّفاً باستمرارية هذه الرسالة التي تتطلب مواجهة الخلق لم يخرج عن هذه الحالة التجردية المعرفية القمة، خارقة لكافة الحجب الظلمانية والنورانية بينه وبين الله، حتى حجاب نفسه، فلم يبق - إذاً - حجاب لتلك المعرفة، إلّا ذات الله التي لا ترتفع لأحد[١] وهنا:

أز آن ديدن كه غفلت حاصلش بود دلش در چشم وچشمش در دلش بود

والتفصيل راجع إلى آيات الأسرى.

ذلك، وعلّه سأل ربه بلفظة طلبة الرؤية التي ظاهرها طلبة قومه، وهو يعني بها طلبته نفسه، جمع جميل ما أجمله يجمع بين الأمرين الأمرين الإمرّين، فليس يؤنب موسى بالأول لأنه سؤالهم، ولا بالثاني لأنه سؤله قضية الشغف البالغ في سلك المعرفة الربانية[٢].

﴿رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ نفسك ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ في هذه الإراءة الربانية، فـ ﴿رَبِّ﴾ مما تلمح أنها رؤية معرفية بعناية ربانية.

وقد وردت الرؤية في العلم والمعرفة بغير البصر في آيات عدة، بل هي أقوى من رؤية البصر، ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٣] ليوسف حيث منعه عن أن يهمّ بها، ليست إلّا الرؤية المعرفية المعصومة لساحة الرب.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٦٦ في كتاب التوحيد خطبة للنبي ﷺ وفيها: فتجلى، ومن خطبة الرضا عليه السلام: متجلّ لا باستهلال رؤية، أقول: وتفصيل البحث حول الرؤية مذكور على ضوء ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ...﴾ [الأنعام: ١٠٣] فراجع.

(٢) وقد يساعد كون سؤاله عن الرؤية المعرفية ما رواه في العلل عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سُئل مِمَ خلق الله عز وجل الذر الذي يدخل في كوة البيت! فقال: إن موسى عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال الله عز وجل: إن استقر الجبل لنوري فإنك ستقوى على أن تنظر إلي وإن لم يستقر فلا تطبق إبصاري لضعفك، فلما تجلى الله تبارك وتعالى للجبل تقطّع ثلاث قطع فقطعة ارتفعت في السماء وقطعة غاصت في تحت الأرض وقطعة بقيت فهذا الذر من ذلك الغبار غبار الجبل، أقول: وإن كان في ذيله شيء من الغرابة.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

كما أن ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾(١) هي رؤية الفؤاد، وهو هنا القلب المتفئد بنور المعرفة التامة الطامة قلب العارف وكلّ كيانه، وهكذا ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾(٢) (٣).

ومن رؤية العلم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٤) ﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾(٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ

---

(١) سورة النجم، الآية: ١١.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٣) في معاني الأخبار للصدوق بإسناده عن هشام قال: كنت عند الصادق جعفر بن محمد عليه السلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعين فقال له معاوية بن وهب: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما تقول في الخبر المروي: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه؟ على أي صورة رآه؟ وفي الخبر الذي رواه أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة، على أي صورة يرونه؟ فتبسم ثم قال: يا معاوية! ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة وثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه ثم لا يعرف الله حق معرفته ثم قال: يا معاوية إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم ير الرب تبارك وتعالى بمشاهدة العيان وإن الرؤية على وجهين: رؤية القلب ورؤية البصر فمن عني برؤية القلب فهو مصيب ومن عني برؤية البصر فقد كذب وكفر بالله وآياته لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من شبه الله بخلفه فقد كفر، ولقد حدثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي عليه السلام قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له: يا أخا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: لم أعبد رباً لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان، وإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر فإن كلّ من جاز عليه البصر والرؤية فهو مخلوق ولا بدّ للمخلوق من خالق فقد جعلته إذاً محدثاً مخلوقاً ومن شبهه بخلقه فقد اتخذ مع الله شريكاً، ويلهم ألم يسمعوا لقول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقوله لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإنما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط فدكدكت الأرض وخرّ موسى صعقاً - أي ميتاً - فلما أفاق ورد عليه روحه قال: سبحانك تبت إليك من قول من زعم أنك ترى ورجعت إلى معرفتي بك أن الأبصار لا تدركك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بأنك ترى ولا ترى وأنت بالمنظر الأعلى.
أقول: غير المصدق من هذا الحديث هو موت موسى ثم حياته لمخالفة النص.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

(٥) سورة هود، الآية: ٢٩.

ٱلْمَوْتِ﴾[١] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[٢].

ومن رؤية المعرفة بالتدبر ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[٣] - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤] - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[٥].

وهكذا نجد استعمال الرؤية في مثلث العلم، والمعرفة بالتدبر، والمعرفة بالجهاد، والأخيرة هي المعنية من رؤية الله، ولأنها درجات حسب درجات العارفين فهنا الجواب لموسى:

﴿. . . قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ فـ ﴿لَن﴾ تحيل الرؤية المطلوبة وهي بين إحالة أصلية فيما يراد رؤية البصر، ورؤية نسبية في رؤية البصيرة - القمة - الخاصة بأوّل العارفين، فأنت يا موسى ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ لا هنا ولا في الأخرى ما دمت أنت موسى المحدود بحدودك، فلو رقيت إلى مرقى محمد ﷺ لكنت تراه كما راه هو بنور المعرفة القمة، ولكن رؤية البصر مستحيلة على أية حال وبأي مجال.

إذ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فالهرطقات الغائلة القائلة أن «وعده الله أن يقعد في موضع ليراه»[٦] وما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

(٢) سورة الفيل، الآية: ١.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.

(٤) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٥) سورة النور، الآية: ٤١.

(٦) كما في نور الثقلين ٢: ٦٣ عن تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن موسى بن عمران عليه السلام لما سأل ربه النظر إليه وعده الله أن يقعد في موضع ثم أمر الملائكة أن تمر عليه موكباً موكباً بالبرق والرعد والريح والصواعق فكلما مر به موكب من المواكب ارتعدت فرائصه فيرفع رأسه فيسأل: أفيكم ربي؟ فيجاب: هو آتٍ وقد سألت عظيماً يا بن عمران.

أشبه، هي مضروبة عرض الحائط لمضادتها نصوص الكتاب ودليل العقل والفطرة.

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ جبل الطور وهو مهبط الوحي ومحطه ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بتجلي الرب له في قدرة وقوة لا يتحملها ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ في تجلي المعرفة القمة التي لا تتحملها وهنا ﴿سَوۡفَ﴾ في معاكسة الأمر تسلب تلك الرؤية في طليق المستقبل في الأولى والأخرى وإلّا كان الصحيح «فستراني» أو «تراني».

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ ما لا يتحمل ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾[(١)] لا يستقر مكانه حيث تمزق وتفرق أيادي سبأ، وبالنتيجة ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ من تلك الوقعة القارعة ﴿صَعِقٗاۚ﴾ إذ خرّ مغشياً عليه ولم يمت إذ ليست الصعقة هي الموت ثم هو الذي قال لما أخذتهم الرجفة ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾[(٢)] وذلك رغم أن التجلي كان للجبل دونه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ عن صعقته، والإفاقة ليست إلّا عن الغشوة والخروج عن الوعي دون الموت، فمهما استعملت الصعقة أحياناً في الموت ولكنها هنا الغشية دون الموت وكما قال: لو شئت أهلكتهم وإياي، ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ أن ترى بعين البصر، أم أن ترى بعين

(١) نور الثقلين ٢: ٦٦ عن كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه - وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات - وسأل موسى عليه السلام وجرى على لسانه من حمد الله عز وجل: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فكانت مسألته تلك أمراً عظيماً وسأل أمراً جسيماً فعوقب فقال الله تبارك وتعالى: لن تراني في الدنيا حتى تموت فتراني في الآخرة ولكن إن أردت أن تراني في الدنيا فانظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فأبدى الله سبحانه بعض آياته وتجلى ربنا للجبل فتقطع الجبل فصار رميماً وخرّ موسى صعقاً ثم أحياه الله وبعثه فقال عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني أول من آمن بك منهم أنه لن يراك، أقول: هذا الحديث مخدوش في مواضيع عدة منها «فعوقب» كأنه سأل الرؤية البصرية، فلو سألها وكان عصياناً فكيف وعده أن يراه في الآخرة؟.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

البصيرة فوق ما أتحمل ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما سألت ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك أنك لا ترى.

وهذه الأوّلية ليست زمنية، بل هي في المكانة الإيمانية - ولأقل تقدير - بالنسبة لمن يعيشهم، ثم ومن قبله دون من بعده، إذ إن محمداً ﷺ هو «أول العابدين» على الإطلاق، ولو كان موسى أوّل المؤمنين في مثلث الزمان لكان يريه ربه نفسه في حقل المعرفة القمة وأحرى من محمد ﷺ، ولكن أين موسى عليه السلام من محمد ﷺ وهو الرسول إلى الرسل أجمعين.

فالله تعالى يتجلى بقدرته لخلقه قدر ما يتحملون، فإن تجلى فوقه فدكّاً دكّاً، كما يتجلى بآياته وكما يُروى عن النبي ﷺ: «فتجلى لخلقه من غير أن يكون يرى وهو بالمنظر الأعلى»(١): منظر البصر - فهو أعلى من أن ينظر إليه على الإطلاق - ومنظر البصيرة الأعلى وهو المعرفة القمة العليا الخاصة بمحمد ﷺ (٢).

أجل، إن الله متجلٍّ لخلقه قدر المقدور لهم والمقدر لباقة ولياقة في مسالك المعرفة، ثم التجلي القمة خاصة بمحمد ﷺ وذويه من بعده.

ذلك، فسؤال الرؤية البصرية لذات الله ليس إلّا من أجهل المجاهيل بكيان الألوهية، فالذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٣) فـ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾(٤) كيف بالإمكان أن يُري نفسه للأبصار، إلّا بتحويل الإله المجرد عن كيانه إلى كيان خلقه، أم تحويل خلقه إلى كيانه لتتسنى الرؤية بتلك المماثلة.

---

(١) تفسير روح البيان ٣: ٢٣١ روي عن ابن عباس.

(٢) التوحيد عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

وحين لا تُحس أية حاسة أيّ محسوس إلّا ما يساميه أو يساويه في حقل الإحساس، فلا يحس الطعم باللّامسة ولا يلمس بالباصرة ولا يبصر بالسامعة، ولا يسُمع بالباصرة، فكيف يرجى أن يحس أو يمس أو يجس غير المحسوس بأحد من الحواس الخمس، في أيّ من عوالم الوجود.

ولأن المستحيل ذاتياً لا تتعلق به القدرة فلا يمكن أن يري الله نفسه رؤية البصر، اللّهم إلّا رؤية البصيرة المستطاعة لمن يبصر.

فرؤية الرب منها مستحيلة ذاتية هي بإبصار ذاته تعالى حيطة ببصر أم بصيرة، إدراكاً إياه، إذ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، أم نسبية هي البصيرة معرفة بالقلب، بمرتبة هي أعلى من محتد الرائي، كما المعرفة القمة لموسى عليه السلام، أم ممكنة مأمور بها وهي سائر درجات المعرفة الربانية لسائر الخلق أجمعين، فعلى كلّ قدر مستطاعه من معرفة الله وعبوديته و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١).

فمثل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾(٢) موجهة إلى وجوه القلوب، وكما تؤيده ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾(٣) حيث الظن هو من أفعال القلوب.

فمهما يكن من شيء هنا، من أقصى دلالة النص، أن موسى تطلّب الرؤية وهي بين مثلثها، فلتفسر بمحكمات كـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ ويجنبها محكمات أدلة العقول والفطر، التي تحيل الرؤية بالبصر، ثم رؤية المعرفة المستطاعة بحول العارف وقوته لا تحتاج إلى ﴿أَرِنِىٓ﴾ كما وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ دون تطلب لها: ﴿أَرِنِىٓ﴾ فلم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٣) سورة القيامة، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

تبق إلّا الرؤية فوق المستطاعة، الممكنة في ذاتها وهي المعرفة القمة، ويجنبها نقل لتطلّب قومه بما أذن الله.

ذلك، وليست الرؤية المعرفية تعني كلّ درجة منها، وإنما البالغ فيها ذروة من اليقين لحدٍّ يصح التعبير عنها بأنها رؤية فـ «اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فالرؤية الأولى هي محسوبة بحساب الرؤية المعرفية البالغة ولها درجات أعلاها الرؤية المحمدية إذ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[1] [2].

فالحجاب عن الرب الممكن خرقه هو حجاب المعرفة برين القلوب: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[3] فتلك إذا هي رؤية القلب المحجوب برينه.

ذلك، وموسى الرسول الذي لا تصعقه الآيات الكبرى الربانية إلّا خوفاً مّا لأول وهلة، انقلبت عصاه حية تسعى، هذا الرسول يصعقه اندكاك الجبل بما تجلى له ربه، حيث كانت سائر الآيات تجلّيات مستطاعة لما تجلى له مهما كانت خارقة العادة، وهذه غير مستطاعة للجبل بذلك التجلي فوق الطاقة له.

هذا، ويعاكس نصّ القرآن في استحالة الرؤية المطلوبة نصّ التوراة في واقعها كما في سفر الخروج ٢٣: ٩ ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا!.

---

(١) سورة النجم، الآيات: ١١-١٤.

(٢) المصدر.

(٣) سورة المطففين، الآيتان: ١٤، ١٥.

وحصيلة البحث في حقل الرؤية أنها - على أية حال - هي الوصول إلى المرئي بعين اليقين فوق علمه، ثم وحق اليقين بمراتبها، فإن كانت بالبصر فكما تناسبه، وإن كانت بالبصيرة فكما تناسبها، والرؤية الحيطة المعرفية بالله مستحيلة على من سوى الله في كافة النشآت إذ لا يحيط المحدود باللّامحدود، والمعرفة القمة العليا التي لا تساوى ولا تسامى هي خاصة بأوّل العابدين محمد ﷺ في كافة النشآت مهما كانت في الأولى أضيق دائرة قضية ضرورة المواجهة الرسالية مع المرسل إليهم، ولا يشاركه ﷺ أيّ من السابقين والمقربين من جبريل الأمين والروح وسائر المعصومين عليهم سلام الله أجمعين، وهذه هي التي تطلّبها موسى من ربه - كما سمع الكلام فطمع في الرؤية - فأجيب بـ ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ المحيلة لتلك الرؤية له في الدنيا والآخرة، والرؤية البصرية هي بديهية الاستحالة في كافة الموازين والمقاييس.

و﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ هي أظهر في استحالة تلك الرؤية المطلوبة المعرفية من البصرية، فإن كان القصد إلى الرؤية البصرية لكان النص «لا أرى» دون ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ و﴿لَن﴾ إذاً تحيل تلك الرؤية الخاصة لموسى عليه السلام لأنه أدنى محتداً منها، وحين لا تصل بصيرة المعرفة الربانية الموسوية إلى تلك القمة السامقة فهل يصل بصر المعاينة لقومه وأضرابهم إلى رؤية ذاته القدسية؟!.

وعدم استقرار الجبل مكانه لما تجلّى ربه له يقرر الاستحالة النسبية لتلك الرؤية المعرفية لموسى عليه السلام. ومما يؤكد عناية الاستحالة لمدخول ﴿لَن﴾ - ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لله أن يكون يرى، ولا تتقيد «سبحان» بزمان دون زمان وإلّا فلا سبحان، فـ «سبحان» في كلِّ مجالاتها تنزيه لله عما يمس من كرامة ألوهيته وربوبيته، كما و﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هما الأخريان من آيات استحالة تلك الرؤية بصراً أم بصيرة.

ذلك ولقد حاول جمع بمختلف المحاولات أن يجعلوا هذه الرؤية التي تطلبها موسى إدراكاً بالبصر أم بالبصيرة، دون إبقاء لكيان من المدرك إلّا أن يدركه.

فمن قائل غائل إن الله لا يعجزه أمر لمكان قدرته الطليقة الحقيقية لإجابة أي أمر وسؤل، فهنا ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ له جانبان اثنان، أرني بترفيعي إلى مكانة الرؤية، أم تنزيلك إلى مكانتي في الرؤية، وهما مستحيلان ذاتياً أو نسبياً، ففي الرؤية البصرية يعني الترفيع التجريد الطليق عن حالة الإمكان لكي يتمكن من رؤية المطلق، ويعني التنزيل تجريده عن التجرد حتى تتسنى الرؤية قضية المجانسة في الجسمانية والمحدودية، وفي الرؤية المعرفية القمة أن يترفع إلى تلك القمة أو يتنزل ربنا إلى هذه المحدودية المعرفية، فالأول مستحيل نسبياً ما دام موسى هو موسى، والثاني مستحيل ذاتياً إذ لا يتغير ربنا سبحانه وتعالى بأي غيار وبأي معيار.

ذلك وكافة المحاولات الفلسفية أو العرفانية هي محاولات خرفانية إلّا ما أشرنا إليه على ضوء الآية وما يفسرها من آيات.

وفي حقل المعرفة القمة التي هي مرغوبة لكلِّ عارف ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ هي كلمة واحدة لكافة المقربين إلّا خاتم النبيين وأول العارفين والعابدين محمد ﷺ وقد يُروى أنه لما قال موسى عليه السلام: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ كشف الحجاب وأبرز له الجبل وقال انظر فنظر فإذا أمامه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي محرمين ملبين كلهم يقول: «أرني أرني» (٤٣) وفي الحديث «ما رأيت شيئاً إلّا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» (٤٤) و«لم أعبد رباً لم أره» «لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان» «. . . وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون» (٤٥)، و«كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى ربه بقلبه جعله في نور مثل نور الحجب حتى يستبين له ما في الحجب» (٤٦).

ذلك، وفي نظرة أخرى إلى الآية ﴿قَالَ رَبِّ﴾ لمحة لاستدعاء ما لم يصل هو إليه وليس يصله بنفسه فاستدعاه تعالى أن ينعم عليه في تلك الرؤية المعرفية بنعم.

ثم ﴿أَرِنِي﴾ دون متعلّق من «نفسك وما أشبه» تحاش أدبي أمام ربه سبحانه، وكأنه يستدعيه ما يراه صالحاً من درجات الرؤية غير الحاصلة له، وكما يراه ربه.

ومن ثم ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ربّاً، نظراً يناسب محتدك الربوبي، فقد يقرب أنه كـ«ناظرة» في ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾[١] نظرة بوجه القلب الفؤاد.

وحين يؤنّب نوح عليه السلام بعرضه: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[٢] عرضاً - ولمّا يسأل - بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣] ولا يؤنب موسى بسؤاله الرؤية، فقد نتأكد قطعياً أنه لم يكن سؤالاً محظوراً في أصله، به مس من كرامة ربه، وإنما سأل فوق قدره، فأجيب بمثال فوق قدر للجبل.

ذلك، والرؤية هي أعمّ من رؤية البصر، بل البصيرة فيها أحرى لأنها أمكن وأقوى كـ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[٤] و﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[٥] ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾[٦].

وعلى أية حال لأن الرؤية هي الإدراك أو ما دونه وهما يعمان رؤية

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٥.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٥) سورة النجم، الآية: ١١.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٤٩.

البصر والبصيرة، لذلك ليست لتختص برؤية البصر ولا رؤية البصيرة اللّهم إلّا بكلّ بقرينة، ولأن إفراد النص ﴿أَرِنِي﴾ دون «أرنا أو - أرهم» يرينا أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما تطلب الرؤية لنفسه، فقد نتأكد أنها كانت رؤية معرفية بصيرة، دون المعاينة بصراً، إذ لو كانت بصراً لكان يجمع:

«أرنا» حيث الأصل في ذلك التطلبة الحمقاء هم قومه دونه، أم وإذا شملت الرؤية البصرية فلماذا سألوها وأذن الله، وإنما أفرد لكي يعرفوا بسلبيتها عن نفسه سلبها عنهم بأحرى، ولقد كان سؤال الرؤية البصرية بإذن الله حملاً عليه ثقيلاً عله أثقل من حمل ابتلاء إبراهيم بذبح ولده إسماعيل.

ذلك، وهنا ﴿أَرِنِي﴾ دون «أرنا - أو - أرهم» كما بينا، تجعل الأصل في السؤال الرؤية الممكنة الصالحة وهي المعرفة القمة، وعلى هامشها الرؤية المسؤولة الحمقاء، فحين سمع - أم وسمعوا -: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ...﴾ تأكدوا من عدم إمكانية رؤيته المسؤولة لهم، فحين لا يستجاب موسى الرسول في تطلب هكذا رؤية فبأحرى هؤلاء البعيدون.

فقد جمع موسى في سؤاله بين مستحيل الرؤية بناء على طلبهم بإذن الله، وبين الرؤية الممكنة لمن سوى الله في قمتها، فلم يستقل في سؤاله كلًّا منهما لوحدها، تحاشياً عن محظور، ولكنه هيماناً لمعرفة علياً، وتطبيقاً لأمره تعالى بسؤاله الرؤية المقترحة، يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فإن فيه جماع الأمرين الأمرين، ثانيهما أمر من الأوّل لأنه سؤال الجاهلين، وأولّهما يحمل رجاء إذ لم يرهو من نفسه أن يصل بجهاده وجهوده إلى المعرفة القمة المحمدية، فتطلب من ربه أن ﴿أَرِنِي﴾ فجاء الجواب كلمة واحدة ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أنت كموسى على محتدك المحدد بالمعرفة الموسوية، ولا هم أياً كانوا بالرؤية البصرية.

وقد ترتسم رؤية الرب في مربع: ١ - مستحيلة ذاتياً ببصر العين

المعاينة، ٢ - أم ببصيرة مدركة محيطة بالرب، ٣ - أو مستحيلة نسبياً كالرؤية المعرفية ما فوق الطاقة والمقدرة المقررة لمن دون المعصومين ﷺ. ٤ - ثم ممكنة مأمور بها كأصل المعرفة، وقد تطلب موسى لنفسه الرؤية القمة التي هي فوق كيانه المعرفي، وعلى هامشها الرؤية البصرية المقترحة من قومه فجاء الجواب ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ والأصل رؤيته الخاصة، وهي المناسبة لـ ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ...﴾ دون المستحيلة، فإنها مبرهنة البطلان والاستحالة دون حاجة إلى برهنة حسية.

ذلك، فلا موقع لعرفانيات خرفانيات وفلسفيات تتعدى عن طور المعرفة الصالحة إلى خرافة الحلول، أو الوحدة الحقيقية للوجود خالقاً ومخلوقاً وما أشبه من هذه الهرطقات البعيدة عن العقلية والفطرة السليمة، وعن نصوص الكتاب والسنة. فثالوث الصلاحات المنطقية والفلسفية والعرفانية، هي خارجة عن دور معرفة الله الصالحة[1].

(١) من قيلاتهم الغيلات الويلات «بسيط الحقيقة كلّ الأشياء» توحيداً بين الحقيقة البسيطة الإلهية وكافة المركبات الخلقية! ويقول ابن العربي: «سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها» اعتباراً أنه التوحيد الحقيقي وكما يعتبر الثالوث عند المسيحيين هو التوحيد الحقيقي المعبر عنه بتوحيد التثليث ويقول: فإن قلت بالتشبيه كنت مشبهاً وإن قلت بالتنزيه كنت معطّلاً وإن قلت بالأمرين كنت مسوداً وكنت إماماً في المعارف سيداً.

ويقول صدر الدين القونوي: «فقل الله وما سواه عدم بحت» وعلى ضوء وحدة حقيقة الوجود والموجود يقولون ما يعنيه: اگر مسلم بدانستی که بت چیست یقني كردى كه دين در بت پرستی است.

ويقول ابن العربي «إن الله شاء أن يعبد في كلّ صورة» وقال في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] بأن: «هذه قضاوة تكوينية، أي واقع الأمر كذلك، فعبدة الأوثان والأصنام عبدة الله» وقال أيضاً: إن فرعون قد غرق في بحر التوحيد، وقال في الفص الهاروني من كتاب فصوص الحكم: إن غضب موسى على هارون إنما كان لأجل منع هارون بني إسرائيل عن عبادة العجل، وعن إلقائه التفريق بينهم حيث كانوا عبدة الله، فلهذا أخذ موسى بلحية هارون!.

ذلك، فليس التدلي المعرفي انمحاء الذات المحمدية عن بكرتها أو اتحادها بذات الله، أو تبدلها بها، فإن تبدّل الممكن بالواجب قوساً صعودياً، كتبدل الواجب بالممكن قوساً نزولياً، كلّ منهما تجاف عن كيانه ممكناً أو واجباً، والتجافي غير التبدل، والتبدل تناقض حين يراد منه التحول على حالته إلى الحالة الأخرى وانمحاء حيث يراد زوال كل وحدوث الآخر.

إنما هي غاية المعرفة الممكنة بإزالة كافة الحجابات تفاضلاً دون إزالة حقيقية، فحين يتغافل الإنسان عن كلِّ شيء يتجلى له ربه كما يصح ويمكن.

فلا يتصاعد الخلق إلى كيان الخالق، وكما لا يتنازل الخالق إلى كيان الخلق. وكلّ ما في الدور هنا تقرب الخلق إلى الخالق معرفة وعبودية، دون وصول أو اتصال أو فناء حقيقي، اللّهم إلّا التناقل القاصد عن كافة الحجابات الممكنة الزوال.

ذلك، وعلى رغم البراهين الفطرية والعقلية ونصوص الكتاب والسنة نرى مختلقات توراتية - هي من مصادر روايات الرؤية البصرية - تقول:

«إن الله خلق آدم على صورته كما في (التكوين ٥: ١: ٣)» هذا كتاب مواليد آدم. يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله. ذكراً أو أنثى خلقه وباركه ودعا اسم آدم يوم خُلِق».

وما يُروى عن النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» هي بين مقطعة ومأولة[1] ذلك، والرؤية البصيرة - إضافة إلى جسمانية المرئي - هي

(١) ففي التوحيد والعيون بإسناده عن الحسين بن خالد قال قلت للرضا عليه السلام يا بن رسول الله ﷺ! إن الناس يروون أن رسول الله ﷺ قال: إن الله خلق آدم على صورته! فقال عليه السلام: قاتلهم الله لقد حذفوا أوّل الحديث، إن رسول الله ﷺ مرّ برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبح الله وجهك ووجه من يشبهك، فقال ﷺ: «يا عبد الله =

بحاجة إلى فاصل الهواء، وكما يُروى عن أبي الحسن الثالث عليه السلام قوله: «لا تجوز الرؤية ما لم تكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء وعدم الضياء بين الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه وكان في ذلك التشبيه، لأن الأسباب لا بدّ من اتصالها بالمسببات»[1].

= لا تقل هذا لأخيك فإن الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته» وفيه عن علي عليه السلام مثله، وروى الزهري عن الحسن أنه كان يقول: مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برجل من الأنصار وهو يضرب وجه غلام له ويقول: «قبح الله وجهك ووجه من يشبهك»، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بئس ما قلت، فإن الله خلق آدم على صورته».

ذلك ومن تأويله ما رواه الصدوق في التوحيد عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته؟ قال: هي صورة محدّثة مخلوقة اصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح إلى نفسه...

(١) مشكلات الأخبار (١: ١٩٨) للسيد عبد الله شبّر.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ
ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ
شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟
بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ
خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟
ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن
لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ
مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ
رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ
ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ

عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ
رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ
وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ
وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾
وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ
عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

هنا طمأنة لخاطر موسى المحروم عن الرؤية القمة المعرفية بـ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا على المرسلين ككلّ ﴿بِرِسَـٰلَـٰتِى﴾ التي تحملها إلى الناس ﴿وَبِكَلَـٰمِى﴾ إياك، وذلك حدّك الذي حددته لك ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ دون ما ليس لك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ ما آتيتك من الرزق المقسوم، فلا تحزن ولا يضق صدرك بحرمانك عن تلك الرؤية القمة، واكتف بما أُعطيت، وكن من الشاكرين الله عليه.

﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾ لـ«إني قلبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذل لي نفساً منك...»[(١)].

(١) نور الثقلين ٢: ٦٧ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام أن يا موسى أتدري لِمَ اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب ولم ذاك؟=

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة الصالحة بين الناس ومن أشبه، وهكذا يكون كلٌّ رسل الله أنهم مصطفون على كلِّ الناس الذين هم أرسلوا إليهم، من مرسلين ككلّ مثل خاتم النبيين ﷺ أم نبيين إسرائيليين ومن سواهم من المكلفين أجمعين كموسى عليه السلام.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥)﴾:

﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ هنا هي ألواح التوراة، ثم ﴿وَكَتَبْنَا﴾ هي كتابة ربانية كما الكلام رباني، فلم يكن هنا وهناك وسيط غير رباني في الكتابة والكلام، فقد «كلمه ربه» وكتب ﴿فِي ٱلْأَلْوَاحِ﴾ وفيه ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ تحتاجه الأمة التوراتية من شرعة ﴿مَّوْعِظَةً﴾ هي جانب العظة التوراتية ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام وسائر المعارف الربانية لدور الشرعة التوراتية ﴿فَخُذْهَا﴾ ما كتبناها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ إيمانية رسولية ورسالية علمية وعقيدية وعملية ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ وكلّها الحسنى لردح الزمن الرسالي التوراتي ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هنا ويوم الدين، والفاسقون هنا هم المتخلفون عن التوراة، المستكبرون أمامها، وترى كيف ﴿يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾؟ وهي كلها الحسنى!.

هنا ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ قد تعني أحسن قوة، أن خذوها بأحسن قوة فإنها أقرب

= قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه يا موسى...

يا موسى إنك إذا صلّيت وضعت خدك على التراب - أو قال - على الأرض، وفيه عن علل الشرائع بإسناده إلى محمد بن سنان عن إسحاق بن عمار قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن موسى عليه السلام احتبس عنه الوحي أربعين أو ثلاثين صباحاً، قال: فصعد على جبل بالشام يقال له: أريحا فقال: يا رب إن كنت حبست عني وحيك وكلامك لذنوب بني إسرائيل فغفرانك القديم، قال: فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى بن عمران أتدري لِمَ اصطفيتك لوحيي ولكلامي دون خلقي؟ فقال: لا علم لي يا رب، فقال: يا موسى إني اطلعت إلى خلقي اطلاعة فلم أجد في خلقي أشد تواضعاً لي منك فمن ثم خصصتك بوحيي وكلامي من بين خلقي قال: وكان موسى عليه السلام إذا صلّى لم يتنفل حتى يلصق خده الأيمن بالأرض والأيسر.

مرجعاً وأصلح معنى، وهنا ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ دون موسى فإنها له ﴿بِقُوَّةٍ﴾ فإن قواتهم كانت مادية ناحية منحى الشهوات، وأما موسى فـ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ رسولية ورسالية عاصمة عن كل زلة وعلة.

أم تعني أحسن أخذة، دون أن يأخذوها علمياً ويتركوها بغيره، أم يأخذوها عقيدياً ويتركوها عملياً، فهي إذاً أخذة شاملة كاملة تحلّق على كلِّ واجهات التوراة علمياً وعقيدياً وتطبيقياً ودعائياً.

هذا ومن ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ هو أحراها بالأخذ في دوران الأمر، ففي الواجبات أوجبها، وفي المندوبات أندبها، ثم في المحرمات تركاً لها أشدها وكذا في المرجوحات، ومن ثم فيما يتقرب به إلى الله على ضوء شرعة الله يأخذوا بأشقها فإن أفضل الأعمال أحمزها.

وباحتمال خامس القصد من أحسنها كلّها، لأن كلها هي الحسنى فهي من إضافة الشيء إلى نفسه، فموعظة التوراة وتفصيلها لكلّ شيء، هما أحسن مما في سواها من كتابات الوحي على مدار الرسالات حتى اختتام شرعة التوراة.

ثم الأحسن المطلق هو وحي القرآن: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(١).

ومن الفوارق بين التوراة والقرآن أن التوراة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: بعضاً منهما، والقرآن ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ كما أن رسول القرآن هو شهيد الشهداء رسولياً ورسالياً: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢) فـ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[(١)] وكما يذكر بعد التوراة والإنجيل مهيمناً عليها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[(٢)].

ثم اللوح هو صحيفة معدّة لأن يُكتب فيها، لائحة ظاهرة لمن يقرؤها، من لاح البرق إذا لمع، إذاً فألوح الألواح هنا هو لوح قلب موسى عليه السلام له ولمن يقرأ الرسالة التوراتية من قاله وحاله وأعماله، ثم هو لوح التوراة حيث كتبه الله بيده، ومن ثم ألواح صدور وقلوب المؤمنين بها، وألواح قالاتهم وفعالاتهم، فالكتابة هنا - إذاً - تعم أصلها من الله، وفصلها من أهل الله رسلاً ومرسلاً إليهم.

ذلك، وأما ما هي نوعية الألواح المكتوب فيها التوراة؟ فقد أجمل عنها القرآن، فلا علينا أن نعرف ماهيه؟ بعد ما نعرف التوراة التي هي الأصل فيها، وقد وردت فيها آثار مستغربة وأخرى مستقربة إلى التصديق[(٣)].

ثم ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الموعودة إراءته لهم قد تعني إلى دور الفسوق هنا[(٤)]

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ٦٨ في كتاب الاحتجاج عن عبد الله بن الوليد السمان قال قال أبو عبد الله عليه السلام: ما يقول الناس في أولي العزم وصاحبكم أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال قلت: ما يقدمون على أولي العزم أحداً، قال فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً...﴾ [الأعراف: ١٤٥] ولم يقل: كلّ شيء، وقال لعيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] ولم يقل: كلّ شيء وقال لصاحبكم أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وعلم الكتاب عنده.

(٣) كما في الدر المنثور ٣: ١٣٠ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً.

(٤) نور الثقلين ٢: ٧٠ في تفسير العياشي عن محمد بن سابق بن طلحة الأنصاري قال: كان =

والدار الدنيا لأهليها الفسقة وفي الأخرى، تعني الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وقد كانت دار الفاسقين من العمالقة المشركين.

ذلك، وفي نظرة أخرى إلى الآية ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا تعني ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ على الإطلاق، ولا كل شيء من دين الله الموزع على الشرائع الخمس، بل هو ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ تصلح للشرعة التوراتية لزمنها، ف ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في حقل شرعة الله تعني الدين كله، و﴿مِن﴾ هنا تعني بعضاً منه يختص بالدور التوراتي وكما تعنيه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾(1).

ثم ﴿مَّوْعِظَةً﴾ تليينا لهم بعد بالغ الحجة التي تحويها هذه الألواح، ومن ثم ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ تخص الشرعة التوراتية، دون كلّ شيء كما القرآن، المهيمن على ما بين يديه من كتاب، الحاوي لزيادة عليه يحتاجها المكلفون إلى يوم الدين.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ في بُعْدي العصمة البشرية التي حصلت عليها قبل العصمة الرسالية، وهذه العصمة الرسالية، تكريساً لكلّ قواتك لأخذ الألواح علمياً وعقيدياً وعملياً رسولياً ورسالياً.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ وهنا مفعول ﴿يَأْخُذُوا۟﴾ محذوف معروف من ذي قبل وهو الألواح، فالباء في ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ لا تعني التعدية، فهي في مثلث العناية: ابتداء ومصاحبة وسببية، أن يكون بازغ أمرهم «أحسنها» مصاحبين إياه ومتسببين به إلى كلّ خير.

= مما قال هارون لأبي الحسن موسى عليه السلام حين دخل عليه: ما هذه الدار؟
قال: هذه دار الفاسقين، قال: وقرأ هذه الآية، فقال له هارون: فدار من هي؟ قال: هي لشيعتنا قرة ولغيرهم فتنة قال: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟ قال: أخذت منهم عامرة ولا يأخذها إلّا معمورة.

(1) سورة الشورى، الآية: ١٣.

و«أحسنها» كما أسلفناه هو أحسن أخذة وأحسن قوة، وأحسن نفسية ونفاسة حيث الألواح كلها أحسن، ثم وأحسن عند دوران الأمر بين المهم والأهم فيها، أم والأخذ بالأحسن هو أقل تقدير في تلك الأخذة بالقوة، دون وخزة.

فيقرب خماسية بأحسنها في مثلث معاني الباء تصبح المحتملات خمسة عشر احتمالاً: أخذاً بأحسن أخذة ابتداءً ومصاحبة وسببية، وبأحسن قوة كأخذة، وبأحسنها ككلّ، ابتداءً بالكلِّ ومصاحبة للكلّ وتسبباً بالكلّ، وبأحسنها عند دوران الأمر، ابتداءً به ومصاحبة وتسبباً، وبأحسنها نسبياً.

والمحتملات الخمسة عشر كلها صالحة للعناية من ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أدبياً ومعنوياً.

وإذا كان الأخذ بأحسنها فريضة توراتية، فبأحرى الفريضة القرآنية، يجب أخذها بأحسن أخذة وأحسن قوة وسائر الأحسن دون أي فتور.

استقطاباً وتكريساً لكافة الطاقات الحاضرة والمستحصلة لتحقيق حقيق بالقرآن بكلِّ حقوله الدراسية والعقيدية والعملية والدعائية.

وأين هذا مما تعيشه الحوزات الإسلامية من رفض القرآن، مهما خيّل إليها أنه أول الأدلة الشرعية، ولكنك لا تجده وجداً صالحاً في العلوم الحوزوية عن بكرتها!.

وهنا ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ - وهي الجحيم بدركاتها - تهديد مديد بهؤلاء الذين لا يأخذونها بأحسنها، تركاً لأية أخذة بأية قوة، أم أخذة بوخزة.

ومن المسائل المستفادة هنا أن الأمر هو برهان الفرض، فإن تاركي هذه الأخذة التوراتية مهددون بدار الفاسقين، الذين يفسقون عن أمر الله بلسان رسوله، وأن الأمر بالأمر كما الأمر من أدلة الفرض.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾:

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ كلها، رسولية ورسالية، تكوينية وتشريعية، صرفاً عن نقضها أو النقص منها، وصرفاً عن الإيمان بها قضية استكبارهم في الأرض بغير الحق.

فهنا صرف عن آيات الله حفاظاً عليها من دوائر المتكبرين، وصرف لهم عنها ألا يؤمنوا بها حيث عاشوا تكذيبها والتغافل عنها، جزاءً وفاقاً.

فالمتكبّر في الأرض بغير الحق - وكل تكبّر في الأرض هو بغير الحق وليس التكبر مع المتكبر تكبُّراً في الأرض بل هو خاص بحقله الخاص - هو مصروف عن آيات الله، ومن منتجات ثاني الصرفين - الذي هو من منتجَات ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ بعد تكبُّرهم في الأرض وقضيّته - إن منها ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ كرأس الزاوية من ثالوث منتجاتهم ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ رغم رؤيتهم ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ جبلة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأته، وتجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح لها.

إذاً فهي جبلة الغي والضلال إذ هي تُعاكس الحق إلى الباطل والباطل إلى الحق: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾(١).

فهنا سببان اثنان تلو بعضٍ، ونتيجةَ بعضها البعض، هما «يتكبرون - كذبوا...» وهما الموجبان لصرفهم عن آيات الله، ولثاني الصرفين ثالوث «لا يؤمنوا بها - لا يتخذوه - يتخذوه».

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

هذا، وذلك تهديد شديد مديد بما يحاوله المتكبرون من نقض القرآن ونقصه أو نقده، ولحدِّ الآن ما استطاعوا على شيء من ذلك ولن، وكذلك يهدّدون أن يصرفوا عن تفهّم القرآن كما يحق نتيجة تكذيبهم به، فهم في ريبهم يترددون.

ذلك وهنالك صروف أخرى ﴿عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ أن يصبحوا فاضي الأيدي والأبصار عن آيات الله البينات بكلِّ حصائلها ووسائلها، صرفاً عن بيناتها، وزياداتها، ونقضها، والنقص فيها، والصدّ عنها، ثم واجتياحهم واصطلامهم صدّاً عن كلِّ ما يريدون من دوائر السوء بها، فتصبح الآيات النافعة لمن يبصرون إليها وبها، اليافعة لهما في الأولى والأخرى، تصبح لهم ضارة فيهما.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾:

أولئك ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الصالحة عن آثارها الأخروية مهما كانوا موحدين فضلاً عن المشركين والملحدين حيث الحبط في مقام العقوبة ليس إلّا في حقل الحسنات، فتتمحض الأعمال في السيئات، وأصل الحبط من قولهم: حبطت الناقة إذا رعت نباتاً سامّاً فانتفخ بطنها ثم نفقت، فهؤلاء الأنكاد يتنفخون ويتنفجون بمظاهر من زخرفات الحياة، فيحسبهم الجاهل على شيء من القوة والمكانة، ثم ينفقون كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السامّ، فالتكذيب بآيات الله يعم مثلث التخلف في حقل الإلحاد: ١ - تكذيباً بالله، ٢ - والإشراك تكذيباً بتوحيد الله، ٣ - والتوحيد تكذيباً بشرعة الله المحكّمة.

ثم ﴿وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ تكذيباً لأصل لقائها، أم حق لقائها إلى باطله كمن يخيّل إليهم أن الله لا يحاسب عباده يوم لقائها أم يعفو عنهم جميعاً، أماذا من الضلال تصوراً خاطئاً عن لقاء الآخرة.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فإن حبط أعمالهم في الأخرى هو نفسه حبطها في الأولى، لخبطها بفراغها عن الإيمان الصالح، إذاً فالجزاء هو نفس العمل دون مغايرة بينهما أو زيادة، وهذه الضابطة برهان لا مردّ له على أن لا جزاءَ بمجرد النية في حقل العقوبة، مهما كان الجزاء بصالح النية، فإنه قضية فضله تعالى، وذاك قضية عدله، فلا جزاءَ في قسطاس العدل لمجرد النية الطالحة إلّا مجرد النية الطالحة دون أية عملية عقوبية، فالقصد من العمل هو الحالة الفعلية من قالة أو عقيدة أو عملية، وليست النية بالنسبة لها إلّا حالة شأنية، إذاً فقضية العدل هي فعلية بفعلية وشأنية بشأنية، اللهم إلّا في نية الخير فإن فعلية الثواب لها هي من قضايا فضله تعالى.

أجل، قد يصح القول إن نية السوء محرمة فيما إذا أدت إلى فعل السوء لأنها - إذاً - من الإثم - وهو كلّ ما يبطئ عن الثواب -، ولكن الجزاء هنا يختص بواقع السوء.

فحتى لو شملت ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ النية الطالحة ف ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تقرر الجزاء بظهور نفس النية مظهر العذاب النفسي دون واقع له آخر خارج عن نفس النية.

فذلك الاستنكار يستنكر القول: إن المخلدين في النار مؤبدون فيها لغير نهاية مهما كانت أعمالهم محدودة، إذ كان من نيتهم السوء أن لو ظلوا أحياء لغير النهاية لاستمروا في سوء أعمالهم، حيث تدلنا هذه الآية وأضرابها أن لا دور للنية الطالحة في حقل العقوبة العملية قضية العدالة مهما كان للنية الصالحة دور في حقل المثوبة بفضل من الله ورحمة!.

وهنا احتمال آخر في ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ هو أن الجزاء حسناً وسيئاً ليس إلّا بالعمل، فلما حبطت حسناتهم فلم تبق لهم إلّا سيئات فهم - إذاً -

مجزيون - فقط - بسيئات حيث ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[(١)].

وترى أن حصر الجزاء فيما كانوا يعملون كما ينفي العقاب عن نية السوء، كذلك ينفيه عن ترك الواجب لأنه ليس عملاً، فيختص بفعل الواجب والحرام دون تركهما؟.

كلّا حيث العمل يشمل الإيجاب والسلب، فكما أن فعل الواجب عمل كذلك تركه لأنه باختيار، وهكذا فعل الحرام وتركه، فالمعنيُّ من العمل في موقف الثواب والعقاب هو الفعل والترك، اللذان هما بالفعل فعل إذ لا يتحققان إلّا باختيار الواقع فعلاً وتركاً.

ولو أن العمل يختص بالموجب دون المنفي فقد تكفي الآيات المهدّدة لترك الواجبات والمرغّبة إلى ترك المحرمات، تكفي توسعة في حقل الجزاء من العمل إلى تركه.

وبوجه ثالث قد تعني هنا «بما تعملون» فقط الحسنات بقرينة الإحباط، فالذين تحبط حسناتهم فبماذا يثابون وليست لهم حسنات، فإنما يعاقبون عقاباً خالصاً بعد فالس الحسنات وكالسها، بما فعلوا من عصيانات وتركوا من واجبات.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾:

قصة العجل الجسد الذي له خوار مفصلة بحذافيرها في «طه»[(٢)] فلا نُعيدها، ولا نُعيد هنا إلّا قصة الحلي المذكور هناك بصيغة «زينة القوم» أنها كانت من حليّهم دون حلي آل فرعون، لمكان ﴿حُلِيِّهِمْ﴾.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.
(٢) الفرقان ١٦ : ١٦٧ - ١٨٥، فيه تفصيل مشبع عن تمام القصة بتمامها.

وهنا ﴿جَسَدًا﴾ وصفاً متميزاً لـ ﴿عِجْلًا﴾ تخرجه عن كونه حياً، فإن ﴿عِجْلًا﴾ تكفي لكونه حياً، فلا دور إذاً لـ ﴿جَسَدًا﴾ إلّا تجسيد العجل الذهبي ذهبياً كما «أخرج لهم السامري» ولأن السامري لم يكن ليُخرج لهم إلّا ما أخرج، دون معجزة تحويله إلى عظام ولحم، فضلاً عن إحيائه كسائر العجل التي يخلقها الله، فقد نتأكد بهذا أو ذاك أن العجل لم يتحول عن البنية الذهبية إلى غيرها بحياة وغير حياة، وأما ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ فلأن ﴿خُوَارٌۚ﴾ هو صوت العجل الحقيقي فليكن خواره الحقيقي، إلّا أن ﴿جَسَدًا﴾ يفصل عن ذلك.

ولأن ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ دون «للسامري فيه خوار» أم بجري الريح من دبره إلى فمه خوار، لذلك فليس - إذاً - خواره إلّا بما أخار الله من صوت العجل الحي في العجل الجسد، وهذه هي أقل فتنة شرّ لهؤلاء الأنكاد البعاد، وليعلموا من هم أولاء في حقل المعرفة الربانية، بعد تواتر الآيات البينات التي رأوها منذ الرسالة الموسوية.

أجل ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ بما الله أخار[1] فتنة لهم وابتلاء بما يستحقون وكما قاله موسى عليه السلام:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُۖ﴾[2].

فهي - إذاً - فتنة شرٍّ للشريرين وكما افتتنوا بها وتبلبلوا، وفتنة خير للخيّرين كما نجحوا فيها حيث تبلور الإيمان ولم يتبلبل، كما ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٧٠ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال موسى: يا رب ومن أخار الصنم؟ فقال الله: يا موسى أنا أخرته فقال موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾ [الأعراف: ١٥٥] وفيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن فيما ناجى الله موسى عليه السلام أن قال: يا رب هذا السامري صنع العجل فالخوار من صنعه؟ قال: فأوحى الله إليه يا موسى إن تلك فتنة فلا تفحص عنها.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ ولو كان إلهاً لكلّمهم ليهديهم سبيلاً ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فهل هو بعد إله يعبد على كونه ميتاً ليس له صوت حتى صوته، فضلاً عن صوت يهدي سبيلاً ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم إذ ضلوا دونما حجة، وإنما لجاجاً أوقعهم في لجة، فكانوا صراحاً، إذ لا يقيل الإشراك بالله إلّا أنه ظلم غير قاصر ولا معذور، فحتى الحشرة تميز بين الفاضل والمفضول في حقل معرفتها، وهذا الإنسان الذي جعل نفسه في أسفل سافلين انقلب إلى أدنى من الحشرة حيث يترك خالق الكون أجمع ويعبد عجلاً جسداً له خوار!.

وإنما ذكر هنا من شؤون الألوهية التكليم والهداية، دون شؤون أخرى لها كالتجرد واللّامحدودية والحياة وما أشبه؟ لأن حصيلة الألوهية الصالحة للمألوهين هي التكليم بما يسعدهم، والهدى بما يتبعونه، فحتى إذا وجد كائن له كافّة ميّزات الألوهية دون هداية فهي - إذاً - ألوهية خاوية غاوية!.

لست أقول: إن كل من كلّم وهدى هو إله، إنما أقول: من لا يكلم ولا يهدي ليس إلهاً، فللألوهية ميّزات أبرزها في حقل الربوبية التكليم بما يُرشد ويهدي المألوهية، فالربوبية لزامها التكليم بالهدى وليس هو لزامه الربوبية لأن لها ميزات أخرى معها، كأن تكون هدى طليقة لا يخلطها خطأ فضلاً عن أن تخلص في خطأ، وترى ﴿قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ هم كلهم في اتخاذ العجل إلهاً، علّه نعم لإطلاق القوم عليهم كلهم، وأن دعاءه اختصه وأخاه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾[1]! ولكنه لا، حيث القوم لا يدل على الاستغراق، وموقف الدعاء هنا خاص بمنزلة الرسول وخليفته، ثم ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[2] تبعّض قومه إلى صالحين مصلحين وإلى طالحين مفسدين.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾:

هنا لا نعرف من آية الأعراف كيف ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ إنما هي آية طـه: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾(١) فقد سقط محروقاً أمامهم ثم نسف في أليم نسفاً، إحراقاً ونسفاً له ولضلالهم المبين فـ ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بأم أعينهم حسيّاً، بعد ما كانوا يرونهم ضلّالاً فطرياً وعقلياً وشرعياً، ولكنهم ما أمروا بضلالهم إلّا على ضوء الحس وكما عبدوا العجل الجسد قضية أصالة الحس.

ذلك، وعند ضلالهم بحاضر الإحساس ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ فغضب علينا بما ضللنا «و» لم «يغفر لنا» خطايانا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم إذ ماتوا عطاشاً يمّ اليمّ الزاخر من دلالات آيات ربنا البينات.

ذلك، فقد سقط كثير من الوجوه المذكورة في المفصلات لـ ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ في أيديهم، حيث الساقط البين هنا هو العجل الذهبي الإله بزعمهم، إذ أحرق ونسف في اليم نسفاً.

وقد يُعنى معه ﴿سُقِطَ﴾ ذلك الاتخاذ في أيديهم المحاولة لأخذه إلهاً بما بينه موسى بلسان الوحي، وبما أحرق ونسف في اليم نسفاً.

وثالثة لما ندموا بأشُده وأشَده حيث يقال لمن ندم «سقط في يده» إذ نفض يده عما كان يرجوه، ففند ونفد ما كان يرجوه.

ورابعة بمعنى وقع في يده السقيط كالسُّقاطة والنفاية، فقد كانت ألوهة العجل سقاطة مقيّتة ونفاية منفية في كافة الموازين المعنية ولكنها لما سقطت في أيديهم بحقل الإحساس حين أحرق ونسف رأوا أنهم قد ضلوا.

---

(١) سورة طه، الآية: ٩٧.

وعلى أية حال ﴿سُقِطَ﴾ العجل ﴿فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ حرقاً ونسفاً أمامهم، فسقط ما بأيديهم من زعم ألوهته ورأوا أنهم قد ضلوا.

أجل، هذا العجل الذهبي الذي عبدوه لأنه له خوار ومن الذهب الذي هو معبود إسرائيل على طول الخط، هذا العجل سقط في أيديهم فسقط ما اتخذوه إلهاً عن ألوهته أمامهم.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾:

﴿... قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾[1].

«رجع غضبان» على ما حصل ﴿أَسِفٗا﴾ لماذا حصل؟ أم وأسفاً مما عنهم أعجل ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ من الخُلف دون الخَلف حيث الخَلف هو الخُلف المخالفة أن يجعل خلفه أمامه: وخلفتم إياي إذ أخلفتم موعدي فما تبعتموني إلى الطور، ثم لما ظللتم في خلفكم ضللتم بخُلفي في شرعة التوحيد، خلفاً في تخلُّفين اثنين ثانيهما أخلف، ولماذا أخلفتموني هكذا؟.

﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ من وعده الذي. وعدكم من إنزال التوراة بمواعدة الثلاثين المتمّمة بعشرة، ومن وعيده ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾، وهما ينتظمان هكذا في ﴿أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾.

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ بما ألغوها فيما خلفوا من بعده وخالفوه، وقضية

(١) سورة طه، الآيتان: ٨٥، ٨٦.

الغضب والأسف على ما حصل، حيث القصد منها هداهم وهم قد عبدوا العجل الجسد!.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ غضبان أسفاً من خلفية هذه الخلافة ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾[1].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ بكثرتهم وقلتي ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ لماذا أمنعهم ولا أتبعهم فيما ضلوا وظلوا عليه عاكفين ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الذين ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ أن يرونني مذللاً بين يديك ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى﴾ في ذلك التأنيب الشديد ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هنا ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ وقد كانت «أماه» لمكان الفتح، وليستجيش في نفس موسى الغضبان الأسف عاطفة الأخوة الرحيمة من ناحية الأم الحنونة - مهما كان هناك والد[2] واحد أم اثنان[3] فهذا النداء الرقيق الرفيق، وتلك الوشيجة الرحيمة الحميمة يريد التخفيف عن هياجه واندفاعه أمام ذلك الواقع الجلل المرير.

---

(١) سورة طه، الآيات: ٩٢-٩٤.

(٢) في خطبة الوسيلة لعلي عليه السلام: كان هارون أخاه لأبيه وأمه.

(٣) نور الثقلين ٢: ٧٢ في العلل بإسناده إلى علي بن سالم أخبرني عن هارون لِمَ قال لموسى: يابن أم. . ؟ ولم يقل: يابن أبي؟ فقال عليه السلام: إن العداوات بين الإخوة أكثرها يكون إذا كانوا بني علات ومتى كانوا بني أم قلّت العداوة بينهم إلّا أن ينزغ الشيطان بينهم فيطيعوه فقال هارون لأخيه موسى عليه السلام: يا أخي الذي ولدته أمي ولم تلدني غير أمه لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، ولم يقل يابن أبي لأن بني الأب إذا كانت أمهاتهم شتى لم تستبعد العداوة بينهم إلّا من عصمه الله منهم وإنما تستبعد العداوة بين بني أُمّ واحدة، قال قلت له: فلِمَ أخذ برأس أخيه يجره إليه وبلحيته ولم يكن في اتخاذهم العجل وعبادته له ذنب؟ فقال: إنما فعل ذلك به لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك ولم يلحق بموسى وكان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب ألا ترى أنه قال لهارون: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢-٩٣] قال هارون: لو فعلت ذلك لتفرقوا ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤].

فلقد تهدرت أعصاب موسى عليه السلام بهذه الجيئة الفجيعة إذ رأى تهدرت كلّ دعواته الرسالية في قومه، فلم يتمالك نفسه، إلّا أن يفعل ما فعل، وهو قضية الموقف المحتار، وعلّه هكذا فعل بأخيه المختار من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، أنه إذا كان دوره مع خليفته المعصوم العزيز الحفيظ هكذا، فما هو دوره - إذاً - مع هؤلاء الذين ضلوا واستضعفوه وكادوا يقتلونه، تعبيداً لجوّ التأنيب الشديد بهم وأمرهم الإمر أن «اقتلوا أنفسكم..».

ذلك، وليعلموا أن شرعة العدل لا تعرف قرابة وآصرة إلّا قرابة الإيمان وآصرته، وحين يؤنّب أخاه البريء هكذا فماذا هو فاعل بهم وهم خونة مجرمون؟.

ذلك وقد يعني من أخذه رأس أخيه يجره إليه معذلك التخفيف عن غضب أخيه والتحبب إليه، ولذا ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ دون أن «يبعده عنه» فلذلك الجر معنيان اثنان، تأنيب من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» وتحبيب أنه - فقط - «إليه» في هذه المعركة الصاخبة، فقد هدّموا بعبادتهم العجل الثقلين، وعلّ من غايات ذلك الإلقاء والأخذ هو بيان ذلك التهدير الحذير.

وقد يضرب الإنسان على وجهه نفسه ورأسه ويعض على يديه عند الغضب والأسف وليس له ذنب فيما حصل، وهكذا فعل موسى بأخيه اعتباراً له أنه نفسه تحسراً وغضباً على ما حصل، ولكنه على أية حال لا يخلو من تأنيب بهارون كما يعرف من جوابه.

ذلك وقد يوجه ما فعل موسى عليه السلام بالثقلين: الألواح وأخيه، بأنه رأى أنهما ألغيا في رأس الزاوية لهما وهو التوحيد، فألقاهما تأشيراً أنهم ألغوهما، ثم أخذ الألواح واستغفر لنفسه ولأخيه إعادة لكيانهما استمراراً للدعوة التوحيدية في قومه[1] ذلك، وهذه المواجهة المُرة في ظاهر الحال مع

(١) تجد التفصيل على ضوء الآيات في طه من الفرقان ١٦: ١٧٣ - ١٧٨.

هارون عليه السلام كانت: ١ - أن ملكه الغضب إذ رأى أن رسالته كلّها تهدرت في تلك الفترة الفتيرة القصيرة وفيهم هارون أخوه وخليفته! ٢ - وأن هذه بعناية قاصدة بإياك أعني واسمعي يا جارة لكي يعلم بنو إسرائيل ماذا عليهم من عقوبات بفعلتهم القاصدة الحمقاء العاندة، حين يواجه هارون بتلك المواجهة المرة وكما يخاطب الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بخطابات قاسية تعني ما تعنيه كـ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾(٢) ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾(٣) وما أشبه، والمقصود غيره، والزاوية الثانية - وهي غير معنية - أنه هتك أخاه كأنه قصّر فيما حمّل من خلافته الرسالية، فأعذر نفسه من هذه الزاوية، لكي يعلموا أنه ليس هو المقصود بالمهانة.

ذلك، وعلى أية حال، كما ملكت النبوة موسى عليه السلام بكلِّ كيانه وشراشر كونه، كذلك يملكه الغضب حين يرى نبوته ودعوته الطائلة ساقطة بين يديه من هؤلاء الذين عبدوا العجل، إذاً فحق له أن يلقي الألواح - دون إلغاء - وإنما إلقاءً لقاءَ ما رأى نبهة لهم أنكم القيتموها إلغاءً، وحق له أن يأخذ برأس أخيه يجره إليه - دون أن يبعده عنه - حين لا يرى حاصلاً صالحاً لكونه فيهم حيث استضعفوه وكادوا يقتلونه.

وحق لهارون أيضاً أن يُدافع عن نفسه تبييناً لموقفه المرير أمام ذلك الواقع الشرير.

ولما أعذر هارون نفسه من هذه المزرأة المضلّلة: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ فلم يكن لي عليهم من سلطان حتى أمنعهم عما ضلّوا، بل قد أبلغت

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

خلافتي الرسالية لمنتهاها، وحتى ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾، عذره موسى ودعا له ولنفسه[١].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾:

﴿اغْفِرْ لِي﴾ ما عجلت عن قومي وما صاحبتهم إلى الميعاد فحصل ما حصل، و﴿اغْفِرْ لِي﴾ ما فعلت بأخي حيث لم يستحق ذلك التأنيب الشديد، واغفر ﴿وَلِأَخِي﴾ إذ لم يستطع أن يخلفني كما يجب قصوراً ولا تقصيراً إذ قدم ما قدم بطوعه وقوته على ضعفه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾[٢] مما يلمح إلى مدى عذره بدوره خليفة الرسول بغيابه، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الخاصة بعد ما خرجنا منها فترة الابتلاء ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فقد نرى أن هارون لم يقصّر في خلافته، اللّهم إلّا قصوراً باستضعافه وخوف قتله، إلّا أن واقع الحال يتطلب تلك الظاهرة الغضبانة الأسفة من موسى عليه السلام بهارون، ورغم أنهم استضعفوه وعظهم وندّد بهم: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ...﴾ حتى كادوا ليقتلوه، وقتل الداعية قد يسمح له في سبيل الدعوة إن أثّر في تحقيقها أم في مزيد الحجة وإنارة المحجة، ولكن بني إسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلّا حظوة لهم في خطوتهم الخاطئة هذه، إزالة لمن يصدهم عنها، وتقليلاً لساعد الداعية ومساعده، فتعريض هارون نفسه للقتل - إذاً - لم يكن إلّا تعريضاً

(١) نور الثقلين ٢: ٧١ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى لما أخبر موسى عليه السلام أن قومه اتخذوا عجلاً له خوار فلم يقع منه موقع العيان فلما رآهم اشتد غضبه فألقى الألواح من يده وللرؤية فضل على الخبر.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٩٠، ٩١.

للرسالة التوراتية إلى الخمول بفقد وزيرها الحزير الحريز العزيز ودونما فائدة وعائدة إلّا لعمق الضلال وحمقه لهؤلاء الأنكاد الأوغاد.

ترى ولماذا لم يلق الألواح في الطور إذ قال له ربه ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾[1] ولم يغضب غضبه إلّا هناك بعد ما رجع إلى قومه؟ لأنه لم يقع هناك موقع العيان وللرؤية فضل على الخبر»[2] ثم وإلقائه الألواح وأخذه برأس أخيه هما ظاهرتان دعائيتان أمام القوم فلم يكن لهما موقع في الطور إلّا باطن الغضب.

وفيما يُروى عن النبي ﷺ «رحم الله أخي موسى عليه السلام ليس المخبر كالمعاين، لقد أخبره الله بفتنة قومه وقد علم أن ما أخبره ربه حق وأنه على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع إلى قومه ورآهم فغضب وألقى الألواح[3].

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٥.

(٢) المصدر عن المجمع روي أن النبي ﷺ قال: . . وفي الدر المنثور ٣: ١٢٧ عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ: يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فُتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر، أقول: مثل هذا الإلقاء إلغاء لكتاب الله فلا يصدّق على رسول الله، فإنما ألقى الألواح بكلٍّ حرمة ورعاية تدليلاً على أنهم ألغوها في غيابه برأس الزاوية التوحيدية فيها.

وفي المصدر في بصائر الدرجات عن رجل عن أبي جعفر عليه السلام قال: دخل رجل من أهل بلخ عليه فقال له: يا خوزستاني تعرف وادي كذا وكذا؟ قال: نعم قال: من ذلك الصدع يخرج الدجال قال ثم دخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: يا يماني تعرف شعباً كذا وكذا؟ قال: نعم. قال له: تعرف شجرة في الشعب من صفتها كذا وكذا؟ قال: نعم قال له تعرف صخرة تحت الشجرة؟ قال: نعم قال: تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى على محمد ﷺ، وفي آخر عنه عليه السلام قال لي أبو جعفر: يا أبا الفضل تلك الصخرة التي حين غضب موسى عليه السلام فألقى الألواح فما ذهب من التورية التقمته الصخرة فلما بعث الله رسوله ﷺ أدته إليه وهي عندنا.

أقول: ألم تكن تلك التي التقمته تحمل شرعة توراتية، فكيف ظلت في الصخرة فما أدته إلى موسى ولا المسيح عليه السلام وهي تحمل شرعتهما، ثم أدتها إلى محمد ﷺ ولا تحمل شرعته؟!.

(٣) نور الثقلين ٢: ٧٤ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سلمان الفارسي عن =

أجل فحينما يملك الغضب موسى عليه السلام لحدٍّ يلقي ألواح التوراة فهلا يأخذ - إذاً - برأس أخيه، حيث يرى سحقاً ومحقاً للرسالة والرسول في تلك الفترة القصيرة الفتيرة، فأين الرسالة - إذاً - وأين الرسول؟!.

فكما أن إلقاءه الألواح لا يعني إهانة لها، كذلك أخذه برأس أخيه لا

= النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل يقول فيه لعلي عليه السلام: . . .
وفيه عن روضة الكافي خطبة لعلي عليه السلام وهي الخطبة الطالوتية وفي آخرها: ثم خرج من المسجد فمر بصبرة فيها نحواً من ثلاثين شاة فقال: والله لو أن رجالاً ينصحون لله عز وجل ولرسوله بعدد هذه الأشياء لأزلت ابن آكلة الذبان - جمع ذباب - عن ملكه فلما أمسى بايعه ثلاثمائة وستون رجلاً على الموت فقال أمير المؤمنين عليه السلام: اغدوا بنا إلى أحجار الزيت محلقين وحلق أمير المؤمنين عليه السلام فما وافى القوم محلقاً إلّا أبو ذر والمقداد وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وجاء سلمان في آخر القوم فرفع يده إلى السماء فقال: إن القوم استضعفوني كما استضعفت بنو إسرائيل هارون عليه السلام، وفيه عن الاحتجاج في رواية سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي حديث طويل وفيه قال قال أمير المؤمنين عليه السلام لأبي بكر وأصحابه: «أما والله لو أن أولئك الأربعين الرجل الذين بايعوني وفوا لي لجاهدتكم في الله حق جهاده، أما والله لا ينالها أحد من عقبكم إلى يوم القيامة ثم نادى قبل أن يبايع: يابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني».
وفيه بإسناده إلى محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: لما حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة وبلغ من حج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل المدينة وأهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألفاً الذين أخذ عليهم بيعة هارون عليه السلام فنكثوا واتبعوا العجل والسامري، وكذلك أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البيعة لعلي عليه السلام بالخلافة على عدد أصحاب موسى عليه السلام فنكثوا البيعة واتبعوا العجل والسامري سنة بسنة ومثلاً بمثل. . .
وفيه عن العلل بإسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما لأمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية؟ فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأمر أن يُنادى الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس إنه بلغني عنكم كذا وكذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] قالوا: ومن هم يا أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: أولهم إبراهيم عليه السلام - إلى أن قال -: ولي بأخي هارون عليه السلام أسوة إذ قال لأخيه: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠] فإن قلتم: لم يستضعفوه ولم يشرفوا على قتله فقد كفرتم، وإن قلتم استضعفوه وأشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم فالوصي أعذر.

يعني مهانة، إنما هو هو الغضب الذي لا يتمالك صاحبه نفسه فضلاً عمن سواه، ولا سيما الغضب في الله حيث يراه يُشرَكُ به!، وإن كان عن غير تقصير من الداعية الرسولية، إنما ذلك لواقع الأمر الإمر.

وفي نظرة أخرى إلى مسرح الآيات التي تستعرض قصة موسى وهارون هنا وفي طه لا نجد أية لمحة مركزة إلى تقصير لموسى وأخيه عليهما السلام.

ففي طه ﴿قَالَ يَهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾[1] لا يعني ذلك السؤال إلّا كما يعنيه لإبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2] حيث يعني معرفة الجواب من إبراهيم حتى لا يخيل إلى أحد أنه سأل لكونه لم يؤمن.

فقد يسأل موسى أخاه حتى يبين موقفه المعصوم السليم في خلافته لهؤلاء الأنكاد، ولمن قد يخيّل إليه من أتباعه أنه عصى موسى إذ لم يتبعه، فجاء الجواب: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[3].

فقد تفرقوا في حقل عبادة العجل بين ثلاث، عابدة له وتاركة للنهي عنه، وناهية عنه، وهو من خلفيات الدعوة الهارونية وكما تخلفه كافة الدعوات الرسالية.

فإذا اختلفوا هكذا بغياب موسى وحضور هارون والذين معه، فقد يتوسع خلافهم بغياب الداعية الرسولية والذين معه، إكباباً أكثر من رؤوس زوايا الضلال والإضلال، والتحاقاً بهم للمترددين بين الأمرين حيث لا يلتحقون بهارون والذين معه، وتوانياً قد يحصل للبعض من الذين معه،

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٩٢، ٩٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.
(٣) سورة طه، الآية: ٩٤.

فيخلو الجو - إذاً - لتوسع الضلال من السامري بعجله، والذي عبدوه أو كاد أم يكاد.

وذلك التفريق بين بني إسرائيل ليس إلّا باتباع هارون موسى أن يلتحقه في ذلك الجوّ المحرج المخرج عن الهدى، وما كانت وصية موسى لهارون إلّا ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وخروجه عنهم إفساد واتباع لسبيل المفسدين الذين يحبون تخلية الجو وتصفيته عن الداعية الرسولية والرسالية.

ذلك، ثم وليس في آيات الأعراف آية مزرأة بموسى وهارون، إلّا بياناً لعصمتهما وبراءة هارون عن أي، تخلف فإن تلك المواجهة الموسوية لهارون أوجبت بيان البراءة التي لم تكن باهرة للكل إنهم ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى. . .﴾!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ عنوان مشير يشير إلى هؤلاء اليهود، ورأس زاوية الضلال فيهم هو العنوان الذي يشير إليهم - اتخذوا العجل - بما لهم من كافة السيئات والنكبات بدءَ ختم.

إذاً فـ ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ ليست لتنافي توبتهم عما عبدوا العجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

إذ إن توبتهم هذه مهما كانت مقبولة فليست لتردع عن حاضر الغضب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

والذلة في الحياة الدنيا، لعمق الجريمة المحتاجة إلى كفارة كمثل ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ ولسائر الجرائم المتواصلة منهم من تكذيب آيات الله، وتقتيل أنبياء الله، وقلب وتحريف أحكام الله.

إذاً فقد ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾(١) و﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾(٢). كما ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾(٣) ذلك، والعذاب قد يكون مثناه دنيا وعقبى، أم في الأول دون الأخرى أم في الأخرى دون الأولى، أم لا عذاب فيهما، وأقل العذاب للذين اتخذوا العجل هو ﴿غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾.

أجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ هم مغضوب عليهم في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا عن عبادة العجل، أم تابوا ولكنهم استمروا في سائر الضلال والإضلال، ولا أقل من أنهم ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ فإنهم تختصهم اللعنة بين سائر الملعونين: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾(٤) ولقد ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾(٥) أن كذبوا بما كانوا به يستفتحون على الذين كفروا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٩٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

ذلك، وبوجه آخر قد تعني ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ...﴾ حكاية حال الماضي أنه تعالى قرر وقدر عليهم نيل الغضب والذلة، وكما نراهما مستمرّين عليهم منذ بداية تأريخهم المنحوس المركوس.

فمن نيل الغضب ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ...﴾ إذاً فمن: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ عنواناً خاصاً لبني إسرائيل، ثم من ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ...﴾(1).

ومن ثم سكوت الآيات بحق المرتدين عن هكذا قتل قضية الارتداد، من هذه الزوايا الثلاث نتأكد أنه ليس إلّا حكماً توراتياً يختص ببني إسرائيل، فلا يشمل المسيحيين فضلاً عن المسلمين.

إذاً فـ ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قد تعني مثنى الغضب ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ وسائر الغضب والذلة السائران عليهم طول حياتهم الدنيا، مستمراً إلى يوم القيامة من المجاهدين الأحرار على هؤلاء الأشرار، لا فقط لأنهم عبدوا العجل، بل ولاستمرارهم في كلّ إفساد لحدٍّ يشمل العالم مرتين، وفي خلالهما هم أفسد المفسدين في الأرض، فهم بتخلفاتهم وإفساداتهم الدائمة يختزنون النقمة في قلوب الشعوب، ويهيئون الرصيد الوصيد الذي يدمّرهم - أخيراً - عن بكرتهم.

ذلك، وليست سلطاتهم منذ بدأت واستمرت باحتلال القدس وفلسطين إلّا لغيبوبة المسلمين المحليين وسواهم عن السلاح الوحيد الإسلامي والراية الوحيدة الوطيدة، وهي فترة الغيبوبة بحكم السموم التي بثتها الصهيونية والصليبية العالمية، ولكن سوف تجيء الصحوة من هذه الغفلة والغيبوبة وكما وعد الله في آيات الأسرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا... فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾(2) فراجع.

(1) سورة النساء، الآية: ٦٦.

(2) سورة الإسراء، الآيات: ٥-٧.

فهؤلاء هم اليهود، المعرقة في عقولهم المخبولة المدخولة، وقلوبهم المقلوبة، فكرة التجسد الرباني، فإن لم يستطيعوا أن يرووا الله بأم أعينهم فليتحولوا إلى ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ وليؤوّلوا قصة الميعاد عن أصلها إلى معاكس فيه مسّ من كرامة الله - خلافاً للقرآن: وهكذا نراهم يحرفون التوراة حسب المزاعم المادية، كما في (سفر الخروج ٢٤: ٩ - ١٨): «ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا. وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل، وكن هناك فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها. فقام موسى ويشوع خادمه. وصعد موسى إلى جبل الله. وأما الشيوخ فقال لهم: اجلسوا هاهنا حتى نرجع إليكم. وهو ذا هارون وحور معكم. فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما. فصعد موسى إلى الجبل. فغطى السحاب الجبل. وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام - وفي اليوم السابع دعى موسى من وسط الحجاب. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل. ودخل موسى في وسط الحجاب وصعد إلى الجبل. وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة».

ثم في الفصل (٢٥) أن «مما كلم الرب موسى أن كلم بني إسرائيل يصنعوا لي مقدساً من ذهب وفضة وكأس واسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تُخسَ وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة والبخور العَطِر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم، وتصنع غطاء من ذهب. . وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من الكردّ بين للذين على تابوت الشهادة بكلِّ ما أوصيك به إلى بني إسرائيل»!!!.

ذلك، ولئن استضعف بنو إسرائيل خليفة موسى في تغيّبه، فقد استضعف المسلمون خليفة الرسول ﷺ بعد موته وانطبق عليه كما هو: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾(١) وكما يُروى عن النبي ﷺ قوله لعلي عليه السلام: يا أخي أنت سيفي بعدي وستلقى من قريش ومن تظاهرهم عليك وظلمهم لك، فإن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وافقك، وإن لم تجد أعواناً فاصبر وكفّ يدك ولا تلق بها إلى التهلكة فإنك مني بمنزلة هارون من موسى عليه السلام ولك بهارون أسوة إذ استضعفه قومه وكادوا يقتلونه فاصبر لظلم قريش وتظاهرهم عليك فإنك بمنزلة هارون ومن تبعه وهم بمنزلة العجل ومن تبعه.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

هنا ﴿سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ دون «سكت موسى عن الغضب» شاهد صدق على بالغ ذلك الغضب حيث ملك موسى فلم يملكه موسى حتى ألقى الألواح وأخذ برأس أجنة يجره إليه، وذلك لأنه ملكه التوحيد بعد أن ملك هو التوحيد، فلم يستطع أن يتمالك نفسه إذ رأى القوم قد ضلّوا ضلالاً بعيداً، فذلك التعبير العبير يشخص آماد الغضب وأبعاده لحدٍّ يملك موسى رسول الله في الله.

ثم ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ واللام للعهد، تعني نفس الألواح التي ألقاها دون أن تتكسر أو بعضها، ودون أن يرفع بعضها، خلافاً لمختلقات الروايات، وعلى أية حال ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ وهي زبرها وخطها ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هما نفس ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(٢) إذ لم يكن

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

الله ليلغي نسخة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يلقيها موسى غضباً لله وأسفاً على الإشراك بالله.

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فهما واقع ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ حيث هما من أصول الحصائل ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وأما الذين لربهم لا يرهبون فهما - فقط - دلالة هدى ورحمة دون واقعهما، فهنا واقع بواقع وشأن بشأن، واقع ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وشأن للذين لا يرهبون ولهم شأن الاهتداء والاسترحام ولكن لا حياة لمن تُنادي.

وهنا ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دون «يرهبون ربهم» للتأشير إلى واجب حصر الرهبة لربهم فلا يرهبون سواه إلّا فيه، ثم وهم يرهبونه لأنه ربهم لا لطوارئ أخرى مصلحية الحفاظ على ما يعنون.

ذلك، وإلى مشهد جديد في تفصيله هو مديد لمشهد سؤال الرؤية حيث هما واحد:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾:

لقد تطلبوا إليه أن يروا الله جهرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾(١).

وهنا يختار موسى سبعين رجلاً لميقات ربه بعد ما سألوه الرؤية جهرة ولكن خيرته لم تكن خيّرة إذ لم تكن باختيار الله، إذاً فكيف يكون أمر خيرة

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

الأمة الإمر في انتخاب صاحب الأمر بعد الرسول ﷺ؟ كما يُروى عن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف(١).

وهنا الرجفة ليست إلّا لما اختاره هؤلاء المختارون من اقتراح هارف جارف هو سؤال الرؤية كما في آية البقرة، واللّائح من آية النساء أنه كان قبل اتخاذهم العجل: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾(٢) وهذه المجاهرة في ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ بعد ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ كما في البقرة، كانت قريبة الصلة بأمر الوحي المكالمة، أن لن نؤمن لك، أن الله هو الذي كلمك، إلّا أن نرى الله جهرة.

فقد يكون السبعون المختارون المصعقون من ضمن هؤلاء الذين اتخذوا العجل، وكأنه بديل عن رؤية الله جهرة!.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٧٦ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه: قلت: فأخبرني يا بن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟ قال: مصلح أو مفسد؟ قلت: مصلح، قال: فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال: فهي العلة وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك، ثم قال: أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالوحي والعصمة وهم أعلام الأمم وأهدى إلى الاختيار منهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذ هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنه مؤمن؟ قلت: لا، قال: هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عزّ وجلّ سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم فوقع خيرته على المنافقين قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] إلى قوله: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله عزّ وجلّ للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه الأصلح دون الأفسد علمنا أن الاختيار لا يجوز إلّا لمن يعلم ما تخفي الصدور وما تكن الضمائر ويتصرف عليه السرائر وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا الصلاح.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ المهلكة إياهم ﴿قَالَ﴾ موسى رب ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ كيلا يحتج عليّ الباقون أنك أهلكتهم بديلاً عن إجابتهم في سؤلهم ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾(١).

وترى السبعين المصعَقين لم يكونوا من السفهاء لئلا يستحقوا الإهلاك؟ وهم السائلون: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾! أم تعني السفاهة هنا عبادة العجل؟ وقد تأخرت عنها حسب آية النساء!.

﴿مِنَّآۖ﴾ هنا تعني من السبعين المختارين وسائر السائلين، مع موسى عليه السلام، و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمعاً، تدل أن السفاهة هنا حصلت من جمع من الثلاث لا كلهم، فلم يكن سؤال الرؤية إلّا من الجلّ دون الكّل، إذاً ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ وارد مورد السائلين منهم الرؤية أن كيف تهلك غير السفهاء معهم بما هم دونهم ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ الميعاد وحاضر السؤال فيه.

وهنا ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ ثم من قبلها «لو» إضافة إلى ﴿مِنَّآۖ﴾ هي زوايا ثلاث في هندسة القصة تدل على أن القصد ليس هو الإهلاك الواقع، بل هو المستدعي أن يكون ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ حضور الميعاد، أو ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ سؤال الرؤية فيه بعد ما سألوه مرة أولى، وهنا «لو» تحيل هذه المشية، ثم ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ متفرع على تلك المشية المستحيلة، فـ ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ تعني السفهاء الذين

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٢١٧ - ١٠ في أسئلة الزنديق عن الصادق عليه السلام قال: إن الله أمات قوماً خرجوا مع موسى عليه السلام حين توجه إلى الله فقالوا: أرنا الله جهرة فأماتهم الله ثم أحياهم.
وفي نور الثقلين ٢: ٧٦ في كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا عليه السلام مع أصحاب المقالات والأديان قال عليه السلام: .. ثم موسى بن عمران عليه السلام وأصحابه السبعون الذين اختارهم وصاروا معه إلى الجبل فقالوا له: إنك قد رأيت الله فأرناه سبحانه كما رأيته فقال لهم: إني لم أره فقالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البَقَرَة: ٥٥] واحترقوا عن آخرهم وبقي موسى وحيداً فقال: يا رب اخترت سبعين رجلاً من بني إسرائيل فجئت بهم وأرجع وحدي فكيف يصدقني قومي بما أخبرتهم به؟
فلو شئت أهلكتهم وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟.

يستحقون الإهلاك وهم الذين سألوا الرؤية، دون سائر السفهاء في ذلك الحقل، من الذين سكتوا عن النهي عن المنكر، والذين سألوها نيابة عن الباقين السائلين، ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ جميعاً الشامل لموسى و﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ والذين سكتوا والذين سألوا نيابة ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ وهم السائلون الرؤية، أم والقائلون لما نجوا عن البحر ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

فلو أن هناك عذاباً من ذي قبل لم يكن على سواء بالنسبة للسفهاء، فضلاً عن أن يشمل غيرهم بمن فيهم موسى نفسه.

وكما في قصة السبت ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾[2] فلم ينج التاركون للنهي عن السوء كما الفاعلين للسوء مهما تفارقا في نوعية العذاب، حيث اختص ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[3] بالذين صادوا يوم السبت باحتيال، وللذين تركوا النهي عنه دون ذلك.

أجل إن هي: ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الواقعة - أم والمتوقعة بـ«لو» - الشاملة المزمجرة ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ امتحاناً لمن سكت وامتهاناً لمن سفه، وعبرة لمن غاب، وتذكرة لأولي الألباب.

فسماحه سبحانه لذلك السؤال، وأخذهم جميعاً سائلين وسواهم بالرجفة، هذا وذاك فتنة ربانية ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ إضلاله وهو الذي يشاء الضلال ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ هداه وهو الذي يشاء الهدى، وترى كيف حذفت الباء في تهدي؟ علّه لأن الهداية أعم مورداً من مثل هذه الفتنة الصعبة وسواها، وأما الإضلال فهي بصعاب الفتن كما يستحقها أهلوها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ فيما تفتننا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا سؤالاً وسكوتاً، ﴿وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾(١).

ذلك، وقد يتبيّن هنا أن الساكتين هنا - غير السائلين - ما كانوا من الذين عبدوا العجل بعد ذلك، وذلك بأحرى لمن لا يسأل الرؤية الذي هو أخف من عبادة العجل، ألا يعبدوا العجل، فقد كان بين هؤلاء المختارين من سألوا الرؤية وعبدوا العجل، وسواهم الذين لم يسألوا ولم يعبدوا ولكنهم سكتوا عما حصل فوصلهم - إذاً - ما وصل.

وغريب من هؤلاء المجاهيل المغافيل أن يتخذوا العجل بعد سؤال الرؤية وأخذة الرجفة بالصاعقة، كيف لم ينتبهوا فدخلوا فيما هو أفضح من سؤال الرؤية وهو عبادة العجل، ثالوث تصاعدي سجله عليهم تاريخهم المنحوس، إعلانا بعد التوراة في هذه الإذاعة القرآنية كثالوث النصارى فلقد تشابهت قلوبهم المقلوبة في ذلك الانحراف الانجراف السحيق المحيق!.

ذلك، وقد أحياهم الله بعد موتهم بدعائه عليه السلام وكما في آية البقرة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢) ولكنهم كفروا أكفر مما كفروا بديل أن يشكروا إذ ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(٣).

وذلك البعث بعد الموت برهان لا مردّ له على البعث يوم القيامة الكبرى، والبعث يوم الرجفة وهي القيامة الصغرى، والحياة البرزخية وهي القيامة الوسطى.

وفي رجعة أخرى إلى آية الاختيار أدبياً ومعنوياً، ترى كيف اختارت «اختار» مفعولين اثنين وليس لها إلّا مفعول واحد؟ والحل أن «سبعين» عطف بيان للمفعول وليس مفعولاً ثانياً أو بدلاً.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

ثم ولا يصح أنه ثاني المفعولين اللهم إلّا بدل البعض من الكلّ، أم بدل فإن قضيته أن قومه كانوا - فقط - سبعين رجلاً، وإنما ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ والمختارون منهم سبعون كما هو قضية الاختيار.

ولأن عبادة العجل كانت بغياب موسى عليه السلام حين أعجل عن قومه إلى الميقات، وسؤال الرؤية كان قبل اتخاذ العجل، إذاً فهما ميقاتان اثنان لأمرين اثنين أولهما هذا الذي أخذتهم فيه الرجفة، والأخرى ما أعجل موسى فيه عن قومه فعبدوا العجل بعد، وهذا مما يبرر ذكرى كلّ لحاله وعلى حدة، مهما صح فصل قسم من قصة لمناسبة عن قسم آخر تقديماً للمؤخر أو تأخيراً للمقدم، كما تقتضيه المصلحة البلاغية قضية الملابسات المؤاتية، وهنا تأخر المقدم وتقدم المؤخر في العرض، لأن المؤخر كان أخزى وأمرّ!.

ثم ترى ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ اعتراض على الله أنه أهلك غير المستحقين له؟ كلّا! وإنما هو استعلام يبينه ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أن ذلك الإهلاك فتنة لكلٍّ من هؤلاء الثلاث: السائلين الرؤية، والساكتين عن النهي، والغائبين عن المسرح المنتظرين للنتيجة، فلقد أجاب موسى نفسه عن سؤاله بإجمال، إجمالاً عن التفصيل الذي علّه بين له دوننا، والقول أن «فعل» الظاهر في العمل لا يشمل قول السفهاء، إذاً فهي سفاهة أخرى غير قولة الرؤية، مردود بأن الفعل أعم من العمل، فهو يشمل مثلث فعل اللسان والقلب والأركان سلباً وإيجاباً، وفعل السفهاء هنا هو قولهم: أرنا الله جهرة، وترك جمع منهم النهي عن المنكر، ونقل ثالث سؤال الرؤية.

ذلك، وقد أضل الله بهذه الرجفة والإحياء بعدها جمعاً من هؤلاء وهم الذين أصروا على الضلال بعد سؤال الرؤية ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا

﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾[1] وهدى آخرين لم يسألوها أم سألوها وتابوا فلم يتخذوا العجل، أم ونهوا عن ذلك السؤال وما أشبه، والآخرون هم من المعنيين في ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾[2].

هذا، وفي ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ من أدب السؤال ما لا قبل له لمكان ﴿لَوۡ﴾ المحيلة تلك المشية غير الصالحة، فإن موسى عليه السلام لم يكن يستحق معهم الهلاك، ولكنه قد يترجاه حفاظاً على رسالته من الهلاك بتكذيب رفاق هؤلاء الهلكى، ثم ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ استبعاد لإهلاكه معهم إذ لم يكن يستحقه أبداً، ثم استعلام لإهلاك غير السائلين، التاركين للنهي عن المنكر، وقد أجاب عنه نفسه ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾.

وأخيراً يستسلم في دعائه لله قائلاً: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ لا سواك، فأنت تفعل بنا ما تشاء ولا تسأل عما تفعل وهم يسألون، وما ذلك السؤال العضال إلّا استعلاماً واسترحاماً، فإذ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ لمن سأل ولمن سكت ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ برحمتك ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ عن الذنوب.

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة إنا هدنا إليك.

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾:

﴿حَسَنَةٗ﴾ فيها تعني حياة حسنة، ولماذا ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾؟ لـ ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، وذلك لموسى عليه السلام وقومه، ثم ولنا ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

و«هدنا» من الهود، وهو الرجوع برفقٍ، والقصد من الجمع في «هدنا» طائفة من السبعين الراجعين إلى الله من سؤالهم أو سكوتهم أما أشبه من تقصير أو قصور مع موسى نفسه و﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ و«يهود» هي مضارعة «هاد» تعني ترجع برفق، فقد سميت اليهود هوداً ويهود بتلك المناسبة، ثم عمّت في أهل التوراة ككلّ، ومما يوجه التعميم أن الراجعين إلى الله هادوا إليه، والراجعين منهم عن الله هادوا عنه، فهم هود ويهود بإحدى الواجهتين.

ولقد أُجيب موسى عليه السلام بتفصيل هو ﴿قَالَ عَذَابِىٓ . . . وَرَحْمَتِى . . .﴾: فـــــ ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾(١) - ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾(٢).

ورغم أن موسى عليه السلام دعا لخصوص قومه قضية أن المجال مجالهم، نجد الله يجيبه بخاصة العذاب وعامة الرحمة دون اختصاص بقومه، وإنما «من أشاء - و - كلّ شيء - وللذين يتقون و. . .».

فقد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(٣) طليقة، ولم يكتب على نفسه العذاب إلّا إذا لزم الأمر في ميزان العدل وكما وعد، فقد استجاب الله هنا لموساه دعاءه وزيادة كما استجاب لإبراهيمه مقيدة حيث ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤) واستجاب له أوسع مما طلب ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٥) وهكذا يؤدب الله أنبياءه من خلال طلباتهم وسواها من حاجيات ودعوات.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

وإنما حذفت هنا «حسنة» للآخرة، وذكرت هنا في دعاء المؤمنين ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾(١) لأن بني إسرائيل ما كانوا يستحقون تأكد الحسنة في الآخرة، والمؤمنون بهذه الرسالة يستحقونها، وهذا من أسباب الفرق بين الدعاءين، وما أشبه.

فمن آداب الدعاء تعميمه لمن يحتاجه ويصلح له وهم كافة المكلفين إلّا لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم، فقد «قام النبي ﷺ في الصلاة فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم ﷺ قال للأعرابي: لقد تحجرت واسعاً، يريد رحمة الله عزّ وجلّ»(٢).

و«أوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود كما لا يضيق الشمس على من جلس فيها كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها»(٣).

وهنا خاصة العذاب وعامة الرحمة مما يدل على سبق رحمته غضبه وأنها هي الأصل، ما كان إليها سبيل، ولم تكن خلاف العدل والحكمة الربانية، فـ ﴿عَذَابِي﴾ هنا وفي الآخرة ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ وهو من يشاء الضلالة ويصر عليها ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مكتوبة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٢) نور الثقلين ٢: ٧٧ عن المجمع في الحديث أن النبي ﷺ . . .
أورده البخاري في الصحيح، وفي الدر المنثور ٣: ١٢٠ - أخرج أحمد وأبو داود عن جندب بن عبد الله البجلي قال جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلا ثم صلى خلف رسول الله ﷺ ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً فقال رسول الله ﷺ: لقد حظرت رحمة واسعة إن الله خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها وعنده تسعة وتسعون.

(٣) نور الثقلين ٢: ٧٧ في روضة الواعظين قال رسول الله ﷺ: . . وفيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: افتخرت الجنة والنار فقالت النار: يا رب يدخلني الجبابرة والملوك والأشراف وقالت الجنة: يا رب يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين فقال الله للنار: أنت عذابي أُصيب بك من أشاء وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كلّ شيء ولكل واحدة منكما ملؤها.

وفي رجعة أخرى إلى الآية ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ﴾ يسع النشآت الثلاث رغم اختصاصه بـ ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾ وهو الذي يستحقه ولا سبيل عدلاً للعفو عنه.

وأما ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فلا ريب أنها الرحمة الرحمانية العامة في كلِّ النشآت، حيث الرحيمية لا تسع كلّ شيء لا سيما وأنها كالصيغة الماضية، وأما ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فهنا لمرجع الضمير المؤنث استخدام يعني سأكتب الرحمة الرحيمية للذين.. فالمكتوبة هنا هي حصيلة رحمة الشرعة المصدّقة المطبّقة ﴿لِلَّذِينَ﴾.

فالمكلفون بشرعة الله مكلفون برحمة خاصة رحيمية من الله، فإن آمنوا بها في مثلث ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ تثبيتاً لخلفية التصديق والتطبيق لهذه الرحمة، وإلّا فلا تكتب عليهم إلّا العذاب.

وترى بعد ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ...﴾ نزلت بمعناها على موسى ضمن ما أوحي إليه إجابة عن دعائه ﴿قَالَ عَذَابِيٓ...﴾؟ ولمّا ينزل الإنجيل بعد حتى يجدوه فيه!، فقد تكون هذه التتمة زيادة قرآنية على ما أجيب به موسى عليه السلام إعلاماً حاضراً لأهل الكتاب أجمع؟ أم وبضمنها إشارة توراتية إلى نزول الإنجيل بعدها، وكما نجد على هامش البشارات القرآنية في التوراة بشارات إنجيلية، فصلناها في «البشارات».

ثم ﴿وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ يشمل صالح الإيمان أياً كان ومن أيّ كان وأيان، ولزامه بعد نزول القرآن هو الإيمان بالشرعة القرآنية.

وهنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ دون «آمنوا» توسيع لدائرة الإيمان لتشمل هؤلاء الذين يفتشون عن آيات الإيمان ولمّا يصلوا إليها، فإن وصلوا إليها آمنوا، وإلّا فهم مؤمنون وإن لم يصلّوا وماتوا غير حاصلين على آيات الإيمان الملحق بإيمانهم الحالي، أم بأصل إيمانهم بشرعة ربانية، وإنما الأصل حالة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وإن لم

يصلوا إلى هالته، وغير مكتوبة، ومن الثانية ما تشمل المذنبين غير المعاندين أو المصرين على الضلال، حيث الرحمة العامة الرحمانية تغمرهم، ثم الرحيمية الموجهة إليهم دلالة الطريق تعمرهم وهم رافضوها ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ ومن أبرزهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ
فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ
وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ
ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن
قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ
أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب
بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ
أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ
كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ
مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ
خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ
ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ
يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

فذلك الرسول النبي الأمي هو الرحمة الواسعة الربانية حيث «سأكتبها» فطليق الرحمة مكتوبة لكافة المتقين المؤتين الزكاة، المؤمنين بالآيات، ثم الرحمة الطليقة مكتوبة مستقبلة لـ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ...﴾.

فهنا عذاب مكتوب للمعاندين على طول الخطِّ، ورحمة واسعة مكتوبة للمتقين المؤتين الزكاة المؤمنين بالآيات المتبعين هذا الرسول ﷺ ورحمة غير واسعة لهؤلاء المتقين غير المتبعين له ﷺ قصوراً دون عناد وتكذيب، إذ ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾(١).

فهؤلاء هم من المتقين مهما لم يتبعوا هذا الرسول ﷺ قصوراً دون تقصير أم بتقصير يسير مسامح، وتلك الرحمة الواسعة تسعُ كلَّ شيء واقعاً رحمانيةً، وتسعُ من لا يرفضها رحيمية، فليس النقص - إذاً - في فاعلية الرحمة الرحيمية، إنما هو في القابلية، فمن استقبل لها وقَبِلَها فهي له قدر الاستقبال والقبول، والقصد هنا إلى الرحيمية لمكان «فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ...» حيث الرحمانية مكتوبة لكافة الكائنات دون إبقاء واستثناء.

وهنا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تعمُّ الإيمان بدرجاته العالية من القمّة السامقة

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١١٣-١١٥.

العلوية، وهكذا يكون علي عليه السلام رأساً وقائداً وشريفاً وأميراً، في خطابات الإيمان بآياتها كما أصفق عليه الفريقان(١).

وترى ﴿يَجِدُونَهُ﴾ تعني وجدانه بمواصفاته الثمان ثلاث متقدمة وخمس متأخرة عدد أبواب الجنة، الظاهر نعم حيث الضمير الغائب في ﴿يَجِدُونَهُ﴾ راجع إلى ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ ثم ﴿يَأْمُرُهُم...﴾ حال للموصوف.

وهنا ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾ وهناك في مريم لموسى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾(٢) ولإسماعيل: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾(٣) وكذلك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ...﴾(٤) إضافة إلى أن عديد الرسول والرُّسل في القرآن

---

(١) في ملحقات إحقاق الحق (٣: ٤٧٦ - ٤٧٩) عن ابن عباس عن أربعة عشر من فطاحل العامة قوله: «ما في القرآن آية إلّا وعلي رأسها وقائدها، هو أحدهم: أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (١٨٦) بسند عن ابن عباس يقول: «ليس من آية في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: ١٠٤] إلّا وعليّ رأسها وأميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن وما ذكر علياً إلّا بخير» وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (١: ٦٤).

بسند عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أنزل الله آية فيها «يا أيها الذين آمنوا إلّا وعليّ رأسها وأميرها»، وهكذا محب الدين الطبري في ذخائر العقبى (٨٩) والرياض النضرة (٢٠٧) والگنجي الشافعي في كفاية الطالب (٥٤) والسبط ابن الجوزي في التذكرة (١٩) والشبلنجي في نور الأبصار (١٠٥) وغياث الدين بن همام خواند مير في جيب السير (٢: ١٣) وصاحب المناقب المرتضوي (٣١) والهيثمي في الصواعق المحرقة (٣٨) و(١٢٥) والسيوطي في تاريخ الخلفاء (١١٦) والقندوزي في ينابيع المودة (١٢٥) والقاسم بن حماد في البحار (٩: ٦٧) وأحمد في مسنده كما في مناقب الكاشي - المخطوط - والمناوي في الكواكب الدرية (٣٩).

وهكذا ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي عليه السلام إلّا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء (١١٧) والهيثمي في الصواعق (١٢٥) والمناوي في الكواكب الدرية (٣٩) كلهم رووه عن ابن عباس.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٤.

(٤) سورة الحج، الآية: ٥٢.

أكثر بكثير من النبي والأنبياء، كلٌّ ذلك يدل على أن النبي هو الرسول الرفيع المنزلة بين الرسل، كما النبي هو من النبوة: الرفعة.

فالنبي بمشتقاته يذكر في ثمانين موضعاً بميزات فوق الرسالة، حال أن الرسول بمشتقاته يذكر زهاء (٤٠٠) مرة دون هذه الميزات، اللهم إلّا لرسول نبي، ففي مثلث النبوءة والرسالة والنبوة، الأولى هي نبوءة الوحي وإن لم يرسل صاحبها، والثانية هي الرسالة بالوحي كيفما كانت درجته، والثانية هي الرسالة الرفيعة، ولم يأت «النبي» معرفاً في القرآن إلّا لنبينا ﷺ ممّا يُبرهن على نبوته الرفيعة بين الأنبياء أجمعين.

ذلك، وقد أفردنا مؤلفاً حول البشارات الواردة بحق هذا الرسول النبي ﷺ في كتب السماء[1] وإليكم نماذج منها:

ومن ميزات النبيين أجمع - على درجاتهم - أنهم أصحاب الكتاب، فـــــــ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾[2] ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ...﴾[3]، فنبيّنا أفضل أولي العزم، وهم أفضل النبيين، ثم أصحاب الكتاب هم أفضل المرسلين، وفي كلٍّ درجات أعلاها لخاتم النبيين ﷺ.

ذلك، وأمية الرسول ﷺ هي من ميّزاته الرسولية والرسالية، إذ لم يتلون طول حياته قبل الرسالة بألوان الثقافات البشرية المدخولة أو الناقصة، ومنذ رسالته أخذ يدرس في مدرسة الوحي الرباني، فلأنه مُدّرس العالمين ومربيهم، لا بدَّ له أن يدرس - فقط - عند رب العالمين، حتى يصلح مُربياً للعالمين لمن شاء منهم أن يستقيم.

---

(١) هو «رسول الإسلام في الكتب السماوية» بالعربية و«بشارات عهدين» بالفارسية.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

فقد يشير إلى الثلاث الأول قوله تعالى في التوراة حسب النص العبراني صوتياً:

«يِذْعو ييسرائل اِواِيل حَنابي مَشُوكاعُ إِيش هارُوحَ عَلْ رُوبْ عَوُنخا وِرَباه مَسِطماه» -

«بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن الرسول الأمي المصروع رجل صاحب روح إلهامي وصاحب وحي» وهنا «المصروع» إشارة إلى ما يصفونه به: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾(١) وفي كتاب هوشيع النبي عليه السلام (الفصل ٩ الآية ٦) بعد التصريح باسمه المبارك «محمد لكسفام»: محمد لفظتهم، إشارة إلى الجزية التي يأخذها منهم، يقول باختلاف يسير في التعبير: «لأن النبي الأمي المصروع وصاحب الروح بسبب كثرة العصيان والبغض أصبح مجنوناً» يعني بحسبانهم هؤلاء العصاة المبغضين، ومن حنقهم وبغضهم إياه إن أرادوا أن يسموا بعض أولاهم محمداً ليخيّلوا إلى البسطاء أنه هو محمد المبشر به في التوراة فهددهم الله في (هوشيع ٩: ١٦) بقوله: «وهمتي محمدي بيطنام»: «أقتل محمداً في البطون» مهما حرفوا «محمداً» هذا إلى «مشتهيات بطونهم» كما حرفوه في «محمد لكسفام» حيث حرفوها إلى مشتهياتهم ومرغوباتهم في (هوشيع ٩: ٥).

وإشارة إلى أميته بمعنى أنه لم يدرس إلّا عند الله يقول في كتاب أشعياء عليه السلام (٢٨: ٩):

«إتْ مِي يُوره دِعاهْ وَإتْ مي يا بِينْ شِموعاهْ غِكمُولي مِحالاب عِتيمِّي مِشادايِمْ» -

«لمن ترى يعلم العلم ولمن يفقه في الخطاب للمفطومين عن اللبن،

---

(١) سورة القلم، الآيتان: ٥١، ٥٢.

للمفصولين عن الثدي» ثم يستمر في قرآن ذلك المفصول عن الثدي بمواصفات[١].

وإشارة إلى أميته نسبة إلى أم القرى أنه نبيّ من «فاران - حرى»:

كما في التوراة (تث ٣٣: ١ - ٢):

«وِزُئْت هبَّراخاه اَشِرْ بِرَخْ مُوشِهْ إيش ها اِلوهيم إثْ بِني يِسرائيل لِفني مُوتُو ويومِرْ ١ يِهْواه مِسِّيني باوْ زارَحْ مِسِّعِير لامُو هو فِيَع مِهَرْ فاران وِآتاه مِرْ بِبُتْ قُدِش مي مِينو إش داتْ لامُو ٢» -:

«وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل وقت موته وقال ١ الله جاء من سيناء تجلى من ساعير وتلعلع من جبل فاران (حرى) ورد مع آلاف المقدسين، ظهرت من يمينه الشريعة النارية».

وهنا مضى التعبير لتجلي الرب بالرسالة المحمدية من فاران اعتباراً بقاطع وقوعه مستقبلاً، وكما في كتاب حَبَقُّوق النبي عليه السلام (٣:٣):

«إلُوهَ مِتيِّمان يابُو وِقادُوشْ مِهَر فَارَانْ سِلَاْهْ شامَيِمْ هُودُد وُتْهِلاتُو مَالْثاه هاآرِصْ» -:

«الله يأتي من تيمان - وهو ساعير جنوبي القدس - والقدوس يأتي من فاران (حرى) إلى الأبد، يغطي جلاله السماوات وثناؤه الأرض».

ولقد يوجد اسمه صلى الله عليه وآله وسلم: محمد - أحمد - وميزاته في التوراة والإنجيل وملحقاتهما كما فصلناه في البشارات وبطيات آياتها المناسبة في هذا الفرقان فلا نُعيد.

هنا يُصرح القرآن أن أهل الكتاب يجدونه صلى الله عليه وآله وسلم مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ولو لم يكن له ذكر فيهما عند نزول القرآن - ورغم تحرف

(١) راجع الفرقان ١: ٣٦١ ورسول الإسلام في الكتب السماوية.

الكتابين - لكفى تكذيباً منهم بهذه الرسالة، ولم يؤثر ولا مرة يتيمة من أحد من معاصريه ﷺ أن يكذبه في هذه الدعوى، بل نجد التصديق الرفيق من صالحيهم(١).

(١) نور الثقلين ٢: ٧٩ في الخرائج والجرائح عن الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه: فقال الرضا عليه السلام: أنت يا جاثليق آمن في ذمة الله وذمة رسوله لا يبدؤك مناشئ تكره مما تخافه وتحذره، فقال: أما إذا أمنتني فإن هذا النبي الذي اسمه محمد ﷺ وهذا الوصي الذي اسمه علي وهذه البنت التي اسمها فاطمة وهذان السبطان اللذان اسمهما الحسن والحسين عليهما السلام في التوراة والإنجيل والزبور.
وفيه عن كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا عليه السلام مع أصحاب الملل والمقالات قال الرضا عليه السلام لرأس الجالوت: تسألني أو أسألك؟ قال: بل أسألك ولست أقبل منك حجة إلّا من التوراة أو من الإنجيل أو من زبور داود أو بما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، قال الرضا عليه السلام: لا تقبل مني حجة إلّا ما نطق به التوراة على لسان موسى بن عمران عليه السلام والإنجيل على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام والزبور على لسان داود عليه السلام فقال رأس الجالوت: أين ابن ثبت نبوة محمد ﷺ؟ قال الرضا عليه السلام: شهد بنبوته موسى بن عمران وعيسى ابن مريم وداود خليفة الله في الأرض عليهم السلام، فقال له ثبت قول موسى بن عمران عليه السلام قال الرضا عليه السلام: هل تعلم يا يهودي أن موسى أوصى بني إسرائيل فقال لهم: إنه سيأتيكم نبي هو من إخوانكم فيه فصدقوا ومنه فاسمعوا فهل تعلم أن لنبي إسرائيل إخوة غير ولد إسماعيل إن كنت تعرف قرابة إسرائيل من إسماعيل أو السبب الذي بينهما من قبل إبراهيم عليه السلام فقال رأس الجالوت: هذا قول موسى لا ندفعه فقال له الرضا عليه السلام: هل جاءكم من إخوة بني إسرائيل نبي غير محمد ﷺ؟ قال: لا، قال الرضا عليه السلام: أفليس قد صح هذا عندكم؟ قال: نعم، ولكني أحب أن تصححه لي من التوراة، فقال له الرضا عليه السلام: هل تنكر أن التوراة يقول: جاءكم النور من جبل طور سيناء وأضاء لنا من جبل ساعير واستعلن علينا من جبل فاران؟ قال رأس الجالوت: أعرف هذه الكلمات وما أعلم تفسيرها، قال الرضا عليه السلام: أنا أخبرك به، أما قوله: جاء النور من جبل طور سيناء فذلك وحي الله تبارك وتعالى الذي أنزله على موسى على جبل طور سيناء، وأما قوله: وأضاء لنا من جبل ساعير، فهو الجبل الذي أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام وهو عليه، وأما قوله: واستعلن علينا من جبل فاران، فذلك جبل من جبال مكة بينه وبينها يوم، وقال شعيا النبي عليه السلام: فيما تقول أنت وأصحابك في التوراة: رأيت راكبين أضاء لهما الأرض أحدهما على حمار والآخر على جمل فمن راكب الحمار ومن راكب الجمل؟ قال رأس الجالوت: لا أعرفهما فأخبرني بهما، قال: أما راكب الحمار فعيسى عليه السلام وأما راكب الجمل فمحمد ﷺ أتنكر=

ذلك، وقد يُروى عن النبي ﷺ قوله: «أنا محمد النبي الأُميّ أنا

= هذا من التوراة؟ قال: لا ما أنكره ثم قال الرضا عليه السلام: هل تعرف حيقوق النبي عليه السلام؟ قال: نعم إني لعارف به قال: فإنه قال - وكتابكم ينطق به -: جاء الله بالبينات من جبل فاران وامتلأت السماوات من تسبيح أحمد وأمته يحمل خيله في البحر كما يحمل في البر يأتينا بكتاب جديد بعد خراب بيت المقدس يعني بالكتاب القرآن أتعرف هذا وتؤمن به؟ قال رأس الجالوت: قد قال ذلك حيقوق ولا ننكر قوله، قال الرضا عليه السلام: وقد قال داود في زبوره وأنت تقرأ: اللهم ابعث مقيم السنة بعد الفترة، فهل تعرف نبياً أقام السنة بعد الفترة غير محمد ﷺ؟ قال رأس الجالوت: هذا قول داود نعرفه ولا ننكره ولكن عنى بذلك عيسى عليه السلام وأيامه هي الفترة، قال الرضا عليه السلام: جهلت، إن عيسى لم يخالف السنة وقد كان موافقاً لسنة توراة حتى رفعه الله إليه، وفي الإنجيل مكتوب أن ابن البرة ذاهب والفارقليط جاء من بعده وهو الذي يحقق الأخبار ويفسر لكم كلّ شيء ويشهد لي كما شهدت له أنا جئتكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل، أتؤمن بهذا في الإنجيل؟ قال: نعم لا أنكره!.

وفي الدر المنثور ٣: ١٣١ - أخرج ابن سعد وأحمد عن رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل ولأسمعن منه فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله فقال رسول الله ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا - أي: لا فقال ابنه أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وأشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فقال ﷺ: أقيموا اليهودي عن أخيكم ثم ولى كفنه والصلاة عليه.

وفيه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: صفتي أحمد المتوكل مولده بمكة ومهاجره إلى طيبة ليس بفظ ولا غليظ يجزي بالحسنة الحسنة ولا يكافئ بالسيئة أمته الحمادون يأتزرون على أنصافهم ويوضوون أطرافهم أنا جيلهم في صدورهم يصفّون للصلاة كما يصفون للقتال قربانهم الذي يتقربون به إلى دمائهم رهبان بالليل ليوث بالنهار.

وفيه أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن علي بن أبي طالب أن يهودياً كان له على رسول الله ﷺ دنانير فتقاضى النبي فقال له: ما عندي ما أعطيك، قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني قال: إذن أجلس معك يا محمد فجلس معه فصلى النبي ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة وكان أصحاب النبي ﷺ يتهددون اليهودي ويتوعدونه فقالوا: يا رسول الله ﷺ يهودي يجلسك؟ قال: منعني ربي أن أظلم معاهداً ولا غيره فلما ترحل النهار أسلم اليهودي وقال: شطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلّا لأنظر إلى نعتك في التوراة: محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا متزين بالفحشاء ولا قوال للخنا.

محمد النبي الأُميّ أنا محمد النبي الأُميّ ولا نبيّ بعدي أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه وعلمت خزنة النار وحملة العرش فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم فإذا ذهب بي فعليكم كتاب الله أحلّوا حلاله وحرّموا حرامه»[(١)].

ثم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ لها صلة بـ ﴿هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)] أكثر من الصلة بما قبلها، فإن ذلك الاتباع يتبع الإيمان ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي منها البشارات المودوعة في التوراة والإنجيل، مهما كان لـ ﴿يَتَّقُونَ﴾ أصلاً ولـ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فرعاً، صلة تحضيرية للإيمان ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فإن الذي لا يتقي الله ليس ليؤمن بآيات الله.

وليس ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ تختص بالعائشين زمن الرسالة المحمدية ﷺ ليُحرم عن رحمتها الشاملة هؤلاء الذي ماتوا قبلها، بل هم الذين حضروا أنفسهم لذلك الاتّباع - إن عرفوه - عملياً إن أدركوها، وهم متبعوها علمياً وعقيدياً مهما لم يدركوها، إذاً فالاتّباع يشمل كلا الفعلية والشأنية علمياً وعقيدياً وتطبيقياً، فالأولان حاضران على أية حال ويبقى الثالث لدوره الواقعي وهو منذ ابتعاث هذا الرسول النبي الأمي ﷺ وهنا بشارة بنزول الإنجيل بعد التوراة في واجب ذلك الاتباع كما ونجدها في التوراة في عدة آيات تُبشِّر بظهور الرب من ساعير وما أشبه.

ذلك، وترى الخمسة الباقية من الثمانية هي من ميزات هذا الرسول ﷺ، وما هي إلّا هيه لسائر الرسل عليهم السلام!.

ليست هذه الثمانية إلّا «الأُمي» وقسم آخر، هي من اختصاصاته ﷺ، فإنما القصد من سردها تبيين أنه مذكور بها في التوراة والإنجيل فليتبّعوه

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٢١ - أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: أنا. . .

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

اتّباعاً لأمر الله فيهما وأنه من نفس النمط الرسالي المعروف عند الرساليين، فليس - إذاً - بدعاً من الرسل، ثم فيه مزيد من هذه قضية ختم الرسالة والنبوة به كما يعرف تماماً من المقارنة بين هذا الرسول ورسالته وبين سائر الرسل برسالاتهم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

ثم ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ تتبلور في ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

وقد نجده في التوراة والإنجيل والقرآن آمراً ناهياً، نفخت شرعته في واجب الأمر والنهي كل ما يسعه من الروحية الحيوية الشاملة، وإلى درجات متعاليات لطليق الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس وكلّ النفائس حفاظاً على الأدب الإسلامي السامي في المجموعة المسلمة ككلّ، ونموذجاً من التوراة ما في كتاب هوشيع النبي عليه السلام (١٦ : ٩) حسب النص العبراني الصوتي:

«سُوِّفه إفرَ يِم عَمْ إلوهايْ نابىء فحْ ياقوش عَلْ كالْ دِراخايُو مَسطِماه بَيوتْ إلو هايُو» (٩) -:

«افرايم منتظر عند إلهي. النبي فخ صياد على جميع طرقه. حقد في بيت إلَهه. وقد توغلوا وأفسدوا كأيام جبعة. سيذكر إثمهم. سيعاقب خطاياهم» (٩).

فالقصد من «النبي» هنا هو «محمد» المذكور في الآية (٦) «. . . محمد

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

لكسفام...»: محمد لفظتهم، حيث تعني الجزية التي يأخذها منهم، وقد رموه بالجنون والحمق كما في الآية (٧): «...النبي أحمق.

إنسان الروح مجنون من كثرة إثمك وكثرة الحقد» وكما مضى من ذي قبل.

فقد برز محمد ﷺ المحقود في بيت إسرائيل، المرمي بالحمق والجنون، وهو الموصوف بالنبي الأمي صاحب الروح والوحي، برز أنه «فخ صياد في جميع طرقه» وهي طرق الدعوة الرسالية، برز هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً، فخّ للشاردين، صياد للواردين، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر(١).

ثم ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كما أحلت أو حرمت في سائر شرائع الله، ولكنه إحلال وتحريم أبديان لا يتغيران أو يتطوران، وقد كان في الشرعة التوراتية تحريمات ابتلائية أم عقوبية موقتة وتحليلات، مما أصبح من ميّزات الشرعة الإنجيلية تحليل بعض ما حرم عليهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ...﴾(٢) ومن ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ التي يحلها هي المحرمة على الذين هادوا عقوبة، ومن الخبائث التي يحرمها هي التي حلّلوها كالخمر وما أشبه، ثم يقر سائر الخبائث على تحريمها وسائر الطيبات على إحلالها، فليس بدعاً من الرسل يخالف خط الرسالة وسنتها الشاملة.

ثم ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فقد أشير إليهما في (أشعياء ٢٨: ١٢) بخلال التعريف بالقرآن:

---

(١) راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و«الفرقان ١: ٣٦١ تجد تفصيل هذه البشارة.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

«اَشِر آمَر إلِيهم زِئُت هَمِّنوحاهْ هانِيحو لِعايِف وِزِئُت هِمِّرجَعاهْ وِلا آبوء شموع»[1] -:

«الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح وهذه هي الرفاهية فأبوا أن يسمعوا» (١٢) قال لهم رسول هذا القرآن «هذه» الشرعة القرآنية «هي الراحة فأريحوا الرازح» عن أسره وإصره، وحلوه عن غُلِّه وغِلِّه.

هـــذا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهذه زوايا أربع لقاعدة إتّباعه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ. . .﴾ إيماناً به كما هو، وتعزيراً له: دفاعاً عنه، وهو الحالة السلبية تجاهه ذوداً عنه ما يمس كرامته، ونصرة إياه، وهو الحالة الإيجابية تجاهه، تحقيقاً حقيقاً لكلمة الإخلاص: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سلباً وإيجاباً عملياً، بعد الإيمان به قلبياً، وهذه الثلاثة تكرّس في الزاوية الرابعة:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن، اتباعاً في كلِّ حقوله في كلِّ الحقول، لا اتباعاً في خيال خاوٍ زاوٍ، دون أن يظهر في حالٍ وفعالٍ، أو يخطر خطرٌ له ببال.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في كل معتركات الحياة، المفلجون كلّ دوائر السوء المتربصة بهذه الرسالة السامية.

وإنما ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ دون «أنزل عليه» لنعرف المعية بين القرآن ورسول القرآن فهما فرقدان لا يتفارقان وكلٌّ دليل على صاحبه، فكما اتباع النور الذي أنزل معه مفروض، كذلك اتباعه في سنته الجامعة غير المفرقة، فهما نوران متواتيان متواليان مهما كان نور القرآن أطول أمداً وأبقى أبداً فإنه الثقل الأكبر.

(١) راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و«الفرقان ١: ٣٦١ تجد تفصيل هذه البشارة.

وهنا مُثلث ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ يتوحد في ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ فإنه أمامه حيث هو أمامه في كل رسالاته، وهذا النور المتّبع هو الذي يأمرنا باتباعه كمأموم أول لذلك الإمام، فلنصطفّ وراءه اقتداءً بالقرآن الإمام، لكي نفلح كما هو أفلح، ونفلج خصومنا كما هو أفلج.

تتمه فيها إشارات إلى بشارات:

كما في تصريحات آيات كهذه وفي روايات الاحتجاجات للرسول ﷺ وعترته المعصومين عليهم السلام، وبعد مضي زمن طويل بيننا وبين هذه التصريحاتِ، نجد في التوراة والإنجيل - على تحرّفهما ولا سيما في البشارات - نجد تصريحات لا حِوَل عنها لهذا الرسول النبي الأمي ﷺ وإليكم نماذج أخرى تصديقاً لاحتجاجات.

مما أشار إليه الإمام الرضا من البشارات آية (التثنية ١٨: ١٧) ونصها بالعبراني الصوتي:

«نابِيء آقيم لاهِمْ مِقِرِبْ إحِيحِمْ وَناتَتِّي دِبارِى بِفِيُو وَدَبِر اَلِيهِمْ اِتْ كال اَشِرْ اَصَّوْنُو» (١٧)-:

«بني أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامي في فيه لكي يقول لهم كلما آمره» (١٨) فطالما حرفت أقلام الزور والغرور ذلك النبي المبشر عن بيت إسماعيل إلى بيت إسرائيل، ولكنه بعد النص «مقرب إحيحم»: من أقرباء أخي بني إسرائيل، لا منهم، وقد تُسمي التوراة أبناء الأعمام إخوة، فـ «عيص» وهو أخو يعقوب، يصبح بنوه إخوة بني إسرائيل كما في (تث ٢٨: ٨ - ١٠) «ومر القوم وقل لهم إنكم على حدِ إخوانكم بني عيص...» وعيص هذا هو صهر إسماعيل بن إبراهيم ومن أولاد بنت إسماعيل، إذاً فولد إسماعيل هم أخوال بني عيص، فأقرباء بني إسرائيل هنا هم من بني إسماعيل، ولم يظهر نبي من بنيه إلّا محمد ﷺ ذلك وقد مضى نص التوراة

وحبقوق النبي بمطلع النور القدسي المحمدي من «پاران»: حرى، فلا نعيد.

وفي «نبوءت هيلد»: وحي الطفل: لُحمان حطوفاه، بحرف الميم من سلسلة مقالاته حول الرسول ﷺ حسب حروف الحساب:

«محمّد كِايْا إغا بْايا دِيُطمَع هُويا وِيِهي كليليا» -:

وهي حسب مختلف التراجم اليهودية: «محمد عظيم قدير. الشجرة الطيبة البارزة. المأمول المغبوط المرتجى. الذي يخمد. ويُفني ما مضى. هو الجمع والكلّ. هو التاج. وهو الكَلُّ» وفي أناشيد سليمان النبي عليه السلام (٥: ١٦):

«حِكُّو مَمْتَقِّيمْ وِكُولُو مَحَمَّدِ يمْ زِهْ دُودِي وِزِهْ رِعِي بِنُتْ يِرُشالامْ»[(١)] -:

«فمه حلَو - وكله محمد - هذا محبوبي - وهذا ناصري - يا بنات أورشليم»!.

وذلك بعد مواصفات عدة لمحبوب له لا يسميه، فخيِّل إلى بنات أورشليم أنه يعني واحدة منهن حتى صرح باسمه وسمته أخيراً بما صرح!.

وفي كتاب أشعياء النبي عليه السلام بشارات عدة أشار إلى بعضها الإمام الرضا عليه السلام في حواره وإليكم بعضاً آخر، ففي (٤١: ١ - ٢٥): مواصفات دون تصريح بالموصوف بها، وهي لا تنطبق بالضبط إلّا على محمد ﷺ حيث يقول الله فيها: ١ هوذا عبدي الذي أعضده. مختاري الذي سرّرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا

(١) للتفصيل راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ووحي الطفل عرض نموذجي عن كيان الرسول ﷺ وحياته الرسالية وميزاته نقلناه عن كتاب منقول الرضائي للحبر العظيم اليهودي الذي أسلم وألف هذا الكتاب رداً على اليهود.

يطفئ. إلى الأمان يخرج الحق ٤ لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته -

٥ هكذا يقول الله الرب خالق السماوات وناشرها باسط الأرض ونتائجها، معطي الشعب عليها نسمةً والساكنين فيها روحاً ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم ٧ لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة -

٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أُعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات ٩ هوذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها. قبل أن تنبت أعلمكم بها ١٠ غنّوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض. أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنُها صوتها الديار التي سكنها «قيدار» لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر ١٣ الرب كالجبار يخرج. كرجل حَروب يُنهض غيرته. يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه -

١٤ قد صحتَ منذ الدهر سكتُّ تجلّدتُ. كالوالدة أصيح. أنفخ وأنخر معاً ١٥ أخرب الجبال والآكام وأُجفِّف كلّ عشبها وأجعل الأنهار يبساً وأنشّف الآجام ١٦ وأسيّر العُمي في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها أمشّيهم. أجعل الظلمة أمامهم نوراً والمعوجّات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها ولا أتركهم ١٧ قد ارتدوا إلى الوراء. يخزي خزياً المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا -

١٨ أيها الصمُّ اسمعوا. أيها العُمي انظروا لتبصروا ١٩ من هو أعمى إلّا عبدي وأصمُ كرسولي الذي أرسله. من هو أعمى كالكامل وأعمى كعبد الرب ٢٠ ناظر كثيراً ولا تلاحظ. مفتوح الأذنين ولا يسمع ٢١ الرب قد سرّ

من أجل برّه. يعظم الشريعة ويكرمها ٢٢ ولكنه شعب منهوب ومسلوب قد اصطيد في الحفر كلّه وفي بيوت الجوس اختبؤوا. صاروا نهباً ولا مُنقذ وسلباً وليس من يقول ردّ -

٢٣ من منكم يسمع هذا. يصغي ويسمع لما بعد ٢٤ من دفع يعقوب إلى السلب وإسرائيل إلى الناهبين. أليس الرب الذي أخطأنا إليه ولم يشاؤوا أن يسلكوا في طرقه ولم يسمعوا لشريعته ٢٥ فسكب عليه حَموُ غضبه وشدة الحرب فأوقدته من كلٍّ ناحية ولم يعرف وأحرقته ولم يضع في قلبه».

هذه الآيات البينات تُبشِّر بولي عظيم من أولي العزم من الرسل عليهم السلام ليس ليصدق على المسيح عليه السلام الآتي بعد أشعياء اللّهم إلّا على محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء.

فالآيات (١ - ٣ - ٤ - ١٠) تبشر بولاية عزمه وأنه صاحب شرعة مستقلة جديدة، وشرعة المسيح حسب نصوص من الإنجيل إضافة إلى خِلوه عن أحكام، هي شرعة التوراة إلّا في قليل هو تحليل البعض من المحرمات العقوبية.

والآيات (١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٦) تصرح بأممية شرعته العالمية وأنه صلى الله عليه وآله وسلم هدى ونور لقاطبة الملل، والآيتان (٤ - ١٠) تقول إن كافة الأمم تنتظر مجيئه وهي مأمورة بالدخول في شرعته، وهو يكسر الأصنام ويزيل عبادة الأصنام (٨ - ١٧).

ومبدأ ظهوره وانتشار شرعته البلاد المسكونة لـ «قيدار»[(١)] - وهو الولد

(١) لقد ذكر «قيدار» في (أشعياء ٦٠ : ٧) أيضاً كما يقول في بشارة أخرى في آيات عدة تعريفاً بصاحب هذه الشرعة المبشر بها: «كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي وازين بيت جمالي» وللاطلاع على تفصيل بشارات أشعياء راجع (رسول الإسلام).

الثاني لإسماعيل (تكوين ١٣: ٢٥) وهو جدُّ محمد ﷺ وأعظم معبد لأمته في هذه البلاد حيث المستطيعون يقصدونه من مشارق الأرض ومغاربها وترفع البرية ومدنها وصوتها الديار التي يسكنها قيدار، ترنّما بتسبيح الله من على رؤوس الجبال (١١ - ١٢).

وقد تعني «مختاريّ» في[1] المصطفى حيث حرّف بالمعنى وكما يؤيده الآية (١٠) كما ترجمها القسيس أو سكان الأرمني[2]: «يسبحون الرب تسبيحاً جديداً وأثر سلطانه يكون بعده واسمه «أحمد».

هذه نماذج من البشائر بحق هذا الرسول النبي الأمي، ولكن ترى ماذا كانت المواجهة اليهودية والنصرانية لهذا الرسول ولرسالته؟ لقد كانوا أنحس وأتعس من المشركين وسائر الملحدين لحدّ يندّد الله بفعلتهم قائلاً: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾[3].

ذلك وعلى طول الخط نرى دوائر السوء في كافة الحلقات مستخدمة من الصهيونية والصليبية ضدّ الكيان الإسلامي، حيث تعالج - بزعمها - إزالة هذا الدين من الوجود.

فهل يبقى هنا مجال التعاون بيننا وبين اليهود والنصارى في وجه التيار المادي وسائر الإلحاد وهؤلاء وهم أهل كتاب أخطر وأضر على الكيان الإسلامي من كافة الكفرة والملحدين!.

ذلك، هو ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) هذه الترجمة كتبها هذا القسيس على كتاب أشعياء في ٧٣٣» ١ وقد طبعت في مطبعة (أنتوني بورتولي).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤١.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أركان أربعة للإفلاح ابتداءً من الإيمان به كما يصح، ثم ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ توقيراً ثقيلاً قدر ما وقره الله، فليس الإيمان به كسائر الإيمان بسائر الرسل، إنما هو الإيمان بمن يحمل الرسالات كلها، فليوقر كما توقر الرسل كلهم وزيادة هي رمز الخلود.

ثم وليس الإيمان والتوقير - فقط - في زوايا القلب، بل وهناك ترسيم للإيمان الموقّر في صحيفة العمل، فيه نفسه: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ في حمل هذه الرسالة تطبيقاً إياها ودعاية لها، وفي كتابه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو رأس الزاوية من نصرته.

فقد تلخصت هذه الزوايا الأربع في الرابعة ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وإذا فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في معارك الحياة وملتوياتها ومنحنياتها.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

هنا في هذه الإذاعة القرآنية مجاهرة صارخة بأمية هذه الرسالة السامية حيث تحلّق على الناس كلّ الناس، فكما الله هو ﴿الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كذلك هذه الرسالة الأخيرة تدير أمر الشرعة العالمية في السماوات والأرض، دون إبقاء لمكلف في الكون إلّا وهي تشمله.

﴿فَـَٔامِنُوا﴾ أيها الناس هوداً ونصارى وسائر الكتابيين وغيرهم من المكلفين ملحدين ومشركين ﴿فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ كما وهو ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، ﴿فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ﴾ - ﴿الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ. . .﴾ ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الذي ملّك الدعوة الربانية لمن في السماوات والأرض، وكما الله يُحيي الأموات ويُميت الأحياء، كذلك يسلب الرسالة عن قوم ويُرسلها إلى آخرين، وذلك رغم المزعمة الإسرائيلية أن رسالة الله خاصة بهم.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ المبشّر به في كتاباتكم ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فآمنوا أنتم بالله وكلماته، ومنها هذا الرسول نفسه بكلماته.

ولأن السورة مكية وهذه الآية دعوة للناس كافة، وقد كان الرسول ﷺ في العهد المكي يعيش تحت كافة الضغوط المشركة ما يؤيس صاحب الدعوة عن تأثيرها حتى في بلده فضلاً عن العالمين، من هنا نعرف أن هذه الرسالة بدأت عالمية، رغم الزعم الفاسد الكاسد أن محمداً ﷺ لم يكن يخلد بخلده أن يمد بصره بهذه الرسالة إلى غير مكة، وإنما بدأ يفكر في توسعتها العالمية بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف المدنية.

كلّا يا هؤلاء الأغبياء! إن هذه الرسالة خُتمت بما بدأت وبدأت كما خُتمت في صيغة وصياغة واحدة وفي قوة التعبير والتدبير ومسالك الدعوة والدعاية.

فما هؤلاء المجاهيل من المبشرين الإنجيلين المدّعين - لأكثر تقدير - أن الرسالة القرآنية خاصة بالعرب لإشارات آيات يزعمونها، ما هؤلاء بناس، حيث الدعوة القرآنية تحلق على كلِّ الناس، فإن كانوا هم من الناس فلتشملهم هذه الدعوة، وإن كانوا من النسناس فأنّى لهم أن يتحدثوا عن شرعة الناس؟!.

فـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾(١) و﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٢)

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[(١)] وما أشبه، هي القواعد الأصيلة لأممية هذه الدعوة، مما تفسر الآيات التي تخيّل اختصاص الدعوة بالعرب، واجتثاثها عن غير العرب، تفسر أنهم هم المبدأ الأول لهذه الدعوة لكون الداعية منهم وفيهم، وكما في سائر أولي العزم من الرسل سلام الله عليهم أجمعين.

أجل، وهذه الجمعية الرسولية والرسالية العالمية هي حقيقة بهذا الرسول النبي الأمي المعروف الشهير حيث «أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات، والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين، واختلف النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عُصي الرحمان، ونُصِر الشيطان، وخُذِل الإيمان، فانهارت دعائمه، وتنكَّرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شُرُكُه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، وقام لواءه، في فتن داستهم بأخفافها، ووطِئتهم بأظلافها، وقامت على سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون، في خير دار وشر جيران، نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرَّم»[(٢)].

وفي وصف الأنبياء وخاتمهم ﷺ نراه أكرمهم وأعزهم حيث «استودعهم في أفضل مستودع، وأقرّهم في خيرِ مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف - حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد ﷺ فأخرجه من أفضل

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٢) (الخطبة ٢).

المعادن مَنبِتاً، وأعز الأرومات مَغرِساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياؤه، وانتخب منها أُمناءه - عترتُه خير العتر، وأسرته خير الأُسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم، وبسقت في كَرَم، لها فروع طِوال، وثمرةٌ لا تُنال - فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوءُه، وشهاب سطع نورُه، وزَنْدٌ برق لَمْعُه - سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل - أرسله على فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغَباوة من الأمم إلى دار السلام، وأنتم في دار مستَعتَب على مَهَل وفراغ، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والأبدان صحيحة، والألسن مطلقة، والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة»(١).

«مستَقره خير مستَقر، ومَنبِته أشرف مَنبِت، في معادن الكرامة، ومعاهد السلامة، قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثُنيت إليه أزمة الأبصار، دفن الله به الضغائن، وأطفأ به النوائر، ألف به إخواناً، وفرق أقراناً، أعز به الذلة، وأذل به العزة، كلامُه بيان، وصُمته لسان»(٢).

«اختاره من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرة البطحاء، ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة - طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عُمي، وآذان صم، وألسنة بُكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة، لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية، قد انجابت السرائر لأهل البصائر، ووضحت محجة الحق لخابطها، وأسفرت الساعة عن وجهها، وظهرت العلامة لمتوسمها -

ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح، وأرواحاً لا أشباح، ونُسّاكاً بلا

---

(١) (الخطبة ٩٣).

(٢) (الخطبة ٩٥).

صلاح، وتُجاراً بلا أرباح، وأيقاظاً نُوَّماً، وشهوداً غُيَّباً، وناظرة عمياء، وسامقة صمَّاء، وناطقة بكماء»(١).

ذلك! وترى كيف لا يضمن هنا الاهتداء بذلك الإيمان والاتباع وقد كتب الله رحمته لهؤلاء المؤمنين المتبعين؟ لأن مجرد بادئ الإيمان والاتباع أيّاً كان لا يضمن دائب الاهتداء، وإنما هو الاستمرار فيها بشروطهما بعون الله وفضله، فرب مؤمن به متبع له سوف يكفر، ورب كافر به ناكر له سوف يؤمن، فلنسأل الله حسن العاقبة والخاتمة كما نسأله حسن البداية.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

هنا ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ...﴾ وفي أخرى ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾(٢) وفي ثالثة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

فالأولى خاصة بقوم موسى ومثلها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٤) وهنا ما تختص بالذكر من هؤلاء الأئمة الهادية كإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾(٥).

ثم الثالثة تعممهم إلى قوم عيسى، وآية الأنبياء تعممها إلى قوم

---

(١) (الخطبة ١٠٧).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

محمد ﷺ مما يدل على أن هذه الأمة الهادية بالحق العادلة به هي الأئمة من كلِّ أمة، معصومين كأصول، وعلماء ربانيين كفروع لهم.

ف ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ هي الهداية بمصاحبة الحق وبسببه، وهو حق الوحي كتاباً وسنة، ثم ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ هو العدل بالحق والعدول عن الباطل بالحق، فالحق هو الذريعة الوحيدة في العدل والهدى ليس إلّا، دون مصلحيات هاوية وقياسات خاوية غاوية وما أشبهها من دون الحق الحقيق بالاتباع.

ذلك، ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(١) - «ولم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه، ومتعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلون عدداً، وقد بين الله ذلك من أمم الأنبياء وجعلهم مثلاً لمن تأخر مثل قوله فيمن آمن من قوم موسى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

فرأس الزاوية في مثلث الهداية هو رسول كلِّ أمة، ثم الأئمة من قومه، ومن ثم ربانيو الأمة وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: «معاشر الناس أنا الصراط المستقيم الذي أمرتم باتباعه ثم علي من بعدي ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(٢).

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) نور الثقلين ٢: ٨٦ في كتاب الاحتجاج بإسناده إلى الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام عن النبي ﷺ في خطبة الغدير:.. وفيه في الكافي عن مسعدة بن صدقة سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول يسأل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو واجب هو على الأمة جميعاً؟ فقال: لا فقيل له: قال: إنما هو على القوى المطاع العالم بالمعروف من المنكر لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أيّ من أيّ والدليل على ذلك كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فهذا خاص غير عام كما قال الله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ولم يقل على أمة موسى ولا على كلّ قومه وهم يومئذ أمم مختلفة والأمة واحدة فصاعداً كما=

ذلك، ولأن ﴿يَهْدُونَ﴾ مضارعة تشمل الحال إلى الاستقبال، فالأصل فيهم بالنسبة لزمن نزول القرآن هؤلاء الذين آمنوا به ودعوا له وهدوا إليه، وقد سبقهم نبيون وربانيون ومؤمنون إسرائيليون كانوا ينتظرون تشريف هذه الرسالة السامية.

وعلى أية حال فـ ﴿أُمَّةٌ﴾ هنا تضم من ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ كلّ من ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ وقضية احتمال الواو أنها حالية، أن ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ بيان حال الماضية، كما أن قضية احتمال العطف بيان الحال الحالية، والجمع أجمل وأجمع، لأن أمة الحق بين الأمم الرسالية لا يختصون بزمان دون زمان، والآية طليقة في هؤلاء الأكارم.

وفي أحاديثنا أن هذه الأمة من قوم موسى هم ممن يرجعون في دولة المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

آية وحيدة في بيان عديد الأسباط، بعد آيات أربع تذكرهم دون عديدهم، وهم هنا ﴿أُمَمًاۚ﴾ بعد كونهم أمة واحدة في شرعتهم.

وترى كيف هنا ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ وتمييز ما فوق العشرة مفرد؟، إنه قد لا يكون تمييزاً، بل هو بدل يعني قطعناهم أسباطاً أمماً هم اثنتي عشرة، أم أن ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ حالان لـ «هم» فإن واقع عديد الأسباط لا يقبل التقطيع لأنه

= قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠] يقول: مطيعاً لله تعالى.

تحصيل للحاصل، وإنما ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ تفريقاً بينهم حال كونهم أسباطاً أمماً، أم لأن تمييز ما فوق العشرة لا يختص بالإفراد، فقد يجمع كما هنا، وأخرى يفرد كـ ﴿عَيْنًا﴾ تمييزاً لـ ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ والقاعدة الأدبية المخالفة لأدب القرآن هي خارجة عن الأدب البارع.

ذلك، فتقدير تمييز مفرد حفاظاً على الأدب المزعوم تغدير على أدب القرآن، ولا يصلح تمييزاً لـ «اثني عشر» إلّا ﴿أَسْبَاطًا﴾.

وترى هذا التقطيع لهم رحمة؟ وهو زحمة قضية الاختلاف! إنه زحمة كأصل حيث الوحدة هي الرحمة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾[1] ثم هو رحمة في غير أصل حين لا تعايش سلمياً بين مختلف الأسباط، وهكذا كانوا مختلفين لا يتعايشون فقطعهم الله حتى يتخلصوا عن أعباء الخلافات، قطعناهم لحدّ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ...﴾ وكما ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ﴾[2].

ذلك، وسائر مواضيع الآية مفسّرة مفصّلة على ضوء آيات البقرة اللّهم إلّا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وكما في البقرة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

وهذه حقيقة هي حقيقة بالاتباع أن الله لا يُظلم كما لا يَظلم حيث الظلم هو الانتقاص ولا ينتقص من ربنا في واقع كيانه بشيء وكلّ شيء غيره قابل للانتقاص.

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

ولقد ظلمت هذه الآية فيما ظلمت آي أخرى من القرآن بما اختلقت من رواية تروى لقلة الفهم وسوء التفهم أنها نزلت ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ...﴾[1].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾:

لقد مضى قول فصل حول مغزى الآية على ضوء نظيرتيها وهما (٢: ٥٨ و٤: ١٥٤) مهما كان بين هذه الثلاث تقديم وتأخير في التعبير، ومثلث العرض في القرآن لهذه الذكرى هو قضية مثلث الملابسات البيانية في الذكر الحكيم.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

ولها ثانية باختلاف يسير في التعبير هي: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[2].

---

(١) نور الثقلين (٢: ٨٧) في أصول الكافي عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام في الآية قال: إن الله أعز وأمنع من أن يظلم وأن ينسب نفسه إلى الظلم ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته ثم أنزل بذلك قرآناً على نبيه فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: ١١٨] قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم، وفيه مثله عن أبي جعفر عليه السلام، وفيه ما يعارضهما عن الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل: وأما قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٧] فهو تبارك اسمه أجلّ وأعزّ من أن يظلم ولكنه قرن أمناءه على خلقه بنفسه وهو عرّف الخليقة جلالة قدرهم عنده وإن ظلمهم ظلمه بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البَقَرَة: ٥٧] ببغضهم أوليائنا ومعونة أعدائهم عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٧] إذ حرموها الجنة وأوجبوا عليها دخول النار.
أقول: وفي خلط أوليائه بنفسه خلط لا يناسب شرعة التوحيد!.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٩.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى
ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ
قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟
مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم
بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟
ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ
يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ
وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ :

وهنا عرض منقطع النظير عن حيلة شرعية! لهؤلاء المحتالين الأنكاد البعاد تبين مدى غيلتهم على شرعة الله تحويلاً لمحرمات إلى محللات وكأن شرعة الله مبنية على الحيلة حتى تقبل حيلة تحولها إلى ما يشتهون، وكما تفعله جماعة من المسيحيين والمسلمين المجاهيل مستندين إلى مختلقات زور زعم أنها حيل شرعية! قررها صاحب الشرع للقضاء على شرعته!.

و﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ هي ليست حاضرة الاسم، إذ القصد هنا هو واقع الاحتيال، دون مكانه الخاص وأشخاصه الخصوص، ومهما اختلفت الروايات في أنها: إيلة أو طبرية أو مدين، فنحن نسكت عما سكت الله عنه دون محاولة للحصول على اسم القرية.

وهنا ﴿يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ تعني - فيما تعني - صيد الحيتان يوم السبت بحيلة أم غيلة لمكان ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ...﴾ والسبت هو القطع، حالة اليقظة عن أفعال اختيارية بالإرادة، وحالة النوم، سبتاً عنها دون إرادة، فـ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[1] تعني ثاني القطعين من قطاع السبت، فإنه فيه الراحة والدعة، فقد يمتن الله بالسبت كما في النوم لما فيه لنا من المنفعة والراحة، لأن التهويم والنوم الغِرار لا يكسبان شيئاً من الراحة، بل يصبحهما في الأكثر القلق والانزعاج والهموم التي تقلل النوم وتنزّره، وفراغ القلب ورخاء البال يكون معهما غزارة النوم وامتداد، وهذا هو النوم السبات، دون سائر النوم غير السبات.

ويقابل سُبات النوم سائر النوم، وكذلك السبت الذي يصدُّ عن منافع معنية معينة في الحياة كما فعل باليهود يوم السبت.

فلقد كان يوم السبت يوم السبت: القطع عن الأعمال غير الضرورية، ومنها صيد الحيتان، ولكنهم عدوا فيه، ولم يكن يُقصد من الصيد - فقط -

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٩.

عمله يوم السبت حتى يكونوا أحراراً في سائر المحاولات حول صيد السبت.

فكما ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾(١) تحرّم كافة المحاولات حول الصيد حالة الإحرام، إشارة وأخذاً وبيعاً وشراءً وأكلاً وإيكالاً وما أشبه في حقل الإحرام، كذلك السبت كان إحراماً على هؤلاء، إذ حرم عليهم فيه - فيما حرّم -: صيد الحيتان، فكلٌّ المحاولات يوم السبت حول الصيد محرمة، أخذاً فيه، أو حصراً ليأخذوه بعده، أم أكلاً مما أخذ يوم السبت أو سواه من قضايا الصيد من تقدمات ونتائج وأية ولائج في حقل صيد السبت.

وقد اختص الصيد هنا بالذكر من بين كلِّ مسبوتٍ فيه يوم السبت، لأنه كان أفيد من كافة الأعمال، ولا سيما أن حيتانهم كانت «تأتيهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك» الصعب الملتوي ﴿نَبْلُوهُم﴾ مثل هذه البلوى الشديدة ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ طول حياتهم النحيسة ﴿يَفْسُقُونَ﴾ عن شرعة الله أصولاً وفروعاً.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ سؤال تنديد وتبكيت عن ماضي تأريخهم الأسود، المستمر على طول الخط بمختلف ألوان فسوقهم عن شرعة الله ﴿. . . إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ عدْواً معتدياً متعدياً على شرعة الله ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ . . .﴾.

فتراهم كيف عدوا فيه؟ هل صادوا فيه الحيتان جهاراً ودون ستار؟

والعصيان الجاهر هو دأبهم الدائب في المحرمات الأصلية، والسبت عن العمل يوم السبت كان ابتلاءً لهم لردحٍ محددٍ من الزمن! سبتاً عن مختلف تخلفاتهم النحيسة عن شرعة الله، وليس مجرد الصيد في أصله مما يستحق به غليظ العذاب: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾(٢).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

أم احتالوا في صيدهم إذ لم يصيدوها يوم السبت، وإنما سدوا عليها منافذ الفرار فصادوها بعد السبت؟ أم تأولوا محرم الصيد يوم سبتهم أن القصد منه حرمة أكل الصيد يوم السبت دون مجرد صيده؟ وهذا أنحس وأنكى لأنه يضم إلى محرم العمل محرم الحيلة الغيلة في حكم الله، تحليلاً لما حرمه الله بتلك الحيلة، أم افترقوا في عدوهم إلى هذه الفرق الثلاث؟ قد تحتملها كلها ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ فإن مجرد الصيد يوم سبتهم كان محرماً عليهم سواء أصادوا ولم يأكلوا، أم وأكلوا، أم لم يصيدوا في نفس اليوم وإنما سدوا عليها طرق الفرار[1].

(١) نور الثقلين ٢ : ٨٨ في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أن قوماً من أهل إيلة - وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام - أو آخر الحجاز وأول الشام - من قوم ثمود وأن الحيتان كانت سيقت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديهم وقدام أبوابهم في أنهارهم وسواقيهم فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهاهم عنها الأحبار ولا يمنعهم العلماء من صيدها، ثم إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم إنما نهيتهم عن أكلها يوم السبت ولم تنهوا عن صيدها فاصطادوها يوم السبت وأكلوها فيما سوى ذلك من الأيام فقالت طائفة منهم: الآن نصطادها فعتت وانحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا: ننهاكم عن عقوبة الله أن تتعرضوا لخلاف أمره، واعتزلت طائفة أخرى منهم ذات اليسار فسكتت فلم تعظهم فقالت للطائفة التي وعظتهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] فقالت الطائفة التي وعظتهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] قال: فقال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٤] يعني لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة فقالت الطائفة التي وعظتهم: لا والله لا نجاكم ولا نأتيكم هذه الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم الله مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمنا معكم، قال: فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن تصيبهم البلاء فنزلوا قريباً من المدينة فباتوا تحت السماء فلما أصبحوا أولياء الله المطيعون لأمر الله غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت فدقوه فلم يجابوا ولم يسمعوا منها حس أحد فوضعوا سلماً على سور المدينة ثم اصعدوا رجلاً منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قردة يتعاوون فقال الرجل لأصحابه: يا قوم أرى والله عجباً، قالوا: وما ترى؟ قال: أرى القوم قد صاروا قردة يتعاوون لها أذناب، فكسروا الباب، =

ففي صيد الحيتان وأكلها يوم السبت ثالوث من المحظور فإنه عمل وصيد وأكل منه وكلها ممنوعة فيه، وفي صيدها فيه - فقط - دون أكل محظوران اثنان، ثم في سدّ طريقها دون صيد يومه ولا أكل محظور واحد، ولكنه مع الثاني قد يكون أشد من ثالوثهم لمكان الحيلة على شرعة الله، فرية وقحة على الله كأنه سنّ في شرعته حيلة وغيلة وهما من قضايا الجهالة والضعف!.

وهنا ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ...﴾ دليل أنهم كانوا لا يصيدون يوم السبت لفترة، ثم لما رأوا ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أخذوا يعدون في السبت في حقل هذه الثلاث.

أجل، ولأن الحيتان كانت متعودة على حريتها يوم السبت، لذلك جعلت تتراءى لهم على الساحل، كثيرة الورود، قريبة المأخذ، سهلة الصيد، فكانت تفوتهم متنقلة من أيديهم يوم سبتهم وقطعهم الصيد فيه، ثم ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ وهو غير السبت من أيام الأسبوع ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

وتراها تشاورت في أمرها فعاكست إتيانها في معاكسة السبت مع سائر الأيام، وذلك الترتيب الرتيب هو منقطع النظير في السواحل، فليكن بخارقة ربانية إذ ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ نبلوهم بسبتهم يوم السبت، وبسبت حيتانهم في غير السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ بوفرة وكثرة شارعة هارعة إلى الساحل وكأنها تسخر من هؤلاء المسبوتين،

= قال: فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القردة فقال القوم للقردة: ألم ننهكم؟

فقال علي عليه السلام: والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون ولا يغيرون بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا وقد قال الله: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المومنون: ٤١] وقال الله: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فلم يتحمل فريق منهم هذه السخرية فأخذوا يصطادون جهاراً، وراح آخرون يحتالون على السبت، يقيمون الحواجز على الحيتان يخوّطون عليها يوم سبتهم حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليها واصطادوها زاعمين أنهم لم يصطادوا في السبت إذ كانت في الماء وراء الحواجز غير مصيدة، وقد يُروى عن رسول الله ﷺ في ذلك المضمار قوله: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[1] فليست الحيلة لتغير واقع المحظور حين يكون المحظور واقعاً من الأمور.

وراح ثالث يصيدونها في يوم السبت ولا يأكلونها في نفس اليوم تأويلاً أن المحرم هو أكلها يوم السبت، رغم أن الأكل لم يكن بنفسه من ضمن السبت: القطع، إنما هو العمل صيداً أم صداً للصيد أما أشبه من أعمال غير ضرورية يومية.

وترى كيف كانت حالة الباقين الذين لم يعدوا في السبت تجاه الذين عدوا فيه؟ إنهم اقتسموا قسمين اثنين، قسم نهوا عن السوء، وآخرون سكتوا عنه ونهوا هؤلاء عن نهيهم عن السوء، أم وثالث سكتوا عن النهيين، نهي الناهين ونهي العاصين.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

فهنا عظة للذين كانوا يعدون في السبت من أمة منهم ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[2]، وأمة أخرى لا تعظ العادين، وإنما تعظ هؤلاء الواعظين:

﴿لِمَ تَعِظُونَ...﴾ تنديداً بهم كأنهم أتوا بمنكر في نهيهم عن المنكر،

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٣٩ - أخرج ابن بطة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ..

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهما دعامتان في حقل الأمر والنهي للحافظين حدود الله وكما يقول الله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾(١).

فعلى الداعية مواصلة الدعوة بإلقاء الذكر، فإن لم يؤثر ف ﴿عُذْرًا﴾ عند الله أنني بلغت، ولكيلا يكون في تركه حجة للمتخلفين، وإن أثر ف ﴿نُذْرًا﴾ ف ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(٢) إنذاراً مؤثراً.

فالإنذار بكلٍّ بنوده هو واجب الداعية في كافة الحقول. سواء لهؤلاء الذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣) فإنه ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا عليك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾(٤).

أم ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ...﴾(٥) إذاً فليس احتمال التأثير في باب الأمر والنهي مما يحتمله هذان الفرضان الإلهيان، وإنما ﴿عُذْرًا﴾: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أو ﴿نُذْرًا﴾: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهنا ﴿رَبِّكُمْ﴾ في موقف التنديد بهؤلاء الذين تركوا واجب التربية بذلك النهي وانحازوا إلى النهي عن ذلك النهي.

ثم من عظيم الفائدة فيمن تعلم أنه لا يتأثر بالفعل، أنه لعلّه يتأثر بتكرار العظة وتواترها، أم - ولأقل تقدير - تكون العظة حجة عليه كيلا يقول الذي لا يتأثر: إن وعظت تأثرت، أو إن كررت لاتعظت، فتواتر العظة البالغة - إذاً - حجة بالغة على طول الخط، وقد تؤثر في قوم لدّ:

(١) سورة المرسلات، الآيتان: ٥، ٦.
(٢) سورة يس، الآية: ١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٥) سورة يس، الآية: ١١.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾(١) - ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٢) - ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٣) فالنهي فرض رباني نؤديه على أية حال لنبلغ إلى ربنا عذرنا بما أدينا من واجبنا، ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية القاسية الجاسية فيثير فيها حراس التقوى بعد مراس الطغوى.

ذلك، فكلٌّ من ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ موجب بنفسه واجب الأمر والنهي على أية حال، واشتراط احتمال التأثير في فرض الأمر والنهي لا يعدو الخيال مهما أفتى به جموع من هؤلاء الذين لا تهمهم النصوص القرآنية، ماشين وراء الشهرات والإجماعات مهما خالفت نصوص الكتاب!، ولا يفلت عن واجب الأمر والنهي إلّا في ظروف الحفاظ على الأهم القاطع الناصع، وما سواها على سواء في فرضهما، سواء أيقن بالتأثير، أم ظن أو شك أو احتمل أو لم يحتمل، فإن الواقع أوسع من احتماله، وعلى فرض العلم بالواقع فهما حجة على الخاطئين لكيلا يقولوا علناً نتأثر بكرور العظة البالغة.

والقول: إن الجمع بين الأمرين هو الذي يفرض النهي، دون كلٍّ واحد منهما، مردود بأن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ - إذاً - كاف، فإن النهي عنده عذر كاف، فليكن كلّ منهما مستقلاً في فرض النهي، والأصل العام هو ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فيما لا يؤثر أو نعلم ألا تأثير، إذ لا نحيط علماً بواقع الأمر. ثم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ حين نحتمل التأثير أم أثر مهما نعلم ألا تأثير.

ومما يبين استقلال كلّ واحد من الأمرين ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾(٤) ف ﴿عُذْرًا﴾ هو ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ و﴿نُذْرًا﴾ هو ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(٢) سورة يس، الآية: ٦.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٣.

(٤) سورة المرسلات، الآية: ٦.

ومما يبيّن أن ظاهر الحال ما كان يشير إلى احتمال التأثير قول هؤلاء لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فذلك التعبير القاطع يدل على أنه لم يكن هناك دور حاضر لاحتمال التأثير.

فإجابة عن حال عدم الاحتمال ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وأخرى مشيرة إلى واقع الحال ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فلا يطغون، فلا دور هنا لترجي التقى إلّا فيما وراء الاحتمال الحاضر، رعاية الواقع الذي هو أوسع من ظاهر الحال.

ومن عظيم فرض النهي عن السوء فيما لا يحتمل التأثير أن الله لم ينج من عذابه البئيس إلّا الذين ينهون عن السوء، حيث شمل هؤلاء الذين لم ينهوا عن السوء هناك بل ونهوا الناهين عن السوء كأنهم أتوا بسوء!.

وهكذا الساكتين عن كلا النهيين حيث يختص الإنجاء بالذين ينهون عن السوء:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾:

فلما لم يجد النصح ولم تنفع العظة وسدر السادرون في غيهم حقت كلمة العذاب عليهم وتحققت نذره، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء ثم الآخرون أخذهم عذاب بئيس بما كانوا يفسقون، اقترافاً للفسق الأصيل، أم تركاً للنهي عنه، فضلاً عن نهي الناهين عن السوء ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾؟.

ذلك، ومما يلمح له ذلك العذاب البئيس أن الجهل بذلك الحكم غير معذور لأنه جهل مقصر من هؤلاء الذين عاشوا رسالة الله المذكرة إياهم بواجب الأمر والنهي وحدودهما، أم أن العذاب موجه إلى الذين ظلوا على جهلهم جهالة بواجب النهي فلم ينهوا، وهذا أولى وأحرى.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ الذين عدوا في السبت ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ من عظة الواعظين، كما ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ التاركون للنهي عن السوء، الناهين عن ذلك النهي وسواهم ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ من ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ - ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ سواء الأولين، أم التاركين للنهي المتعظين بالعظة فأصبحوا معهم من الناهين «وأخذ الذين ظلموا» وهم كلا العادين في السبت، والتاركين للنهي عنه نسياناً معمدا لتلك العظة ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

فيا لذكرى الرب من حامية حائطة على الإنسان النسيان، ولو أننا ذكرنا وعلمنا واقع حالاتنا المزرية المخجلة لما رفعنا رؤوسنا اختجالاً، وكما يقول إمام الذاكرين للغافلين: «ولو تعلمون ما أعلم مما طُوي عنكم غيبه إذاً لخرجتم إلى الصُّعُدات تبكون على أعمالكم، وتلتدمون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمت كلّ امرئ منهم نفسه لا يلتفت إلى غيرها، ولكنكم نسيتم ما ذكرتم، وأمنتم ما حذرتم، فتاه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم...»(١).

ولأن العذاب البئيس دركات حسب دركات السوء والفسق، فقد اختص العاتون عما نهوا عنه بأتعسه:

﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾:

فقد نجت فرقة وهي الناهية عن السوء أولاً أو أخيراً، ثم الذين ظلموا عاتين أم تاركين لنهيهم عن السوء أخذهم عذاب بئيس، وقد أجمل عن عذاب الآخرين تصريحاً بعذاب الأولين أن: ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

أجل فقد «افترق القوم ثلاث فرق: فرقة نهت واعتزلت، وفرقة أقامت

(١) (من الخطبة ١١٥).

ولم تقارف الذنوب، وفرقة قارفت الذنوب، فلم ينجو من العذاب إلّا من نهى...»[١].

فهم إذاً «صنف ائتمروا وأمروا فنجوا، وصنف ائتمروا ولم يأمروا فمسخوا ذراً وصنف لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا»[٢]

وهؤلاء الآخرون هم الذين ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وهذا جزاء وفاق أنكم كما جعلتم أنفسكم قرداً خاسئة فلتكن أبدانكم كأنفسكم، مسخاً عن صورة الإنسانية كما مسختم عن سيرتها، فقد انتكسوا إلى عالم الحيوان حين تخلوا عن خصائص الإنسان، فقيل لهم قيلة التكوين: كونوا حيث صنعتم بأنفسكم، كذلك بأبدانكم انتكاساً إلى هوان الحيوان.

كما وأن الساكتين مسخوا ذراً إذ كان موقفهم موقف الذر حيث كانوا سكوتاً عن النهي في ذلك المسرح القاحل المتعاضل.

وهنا ﴿خَاسِئِينَ﴾ وصفاً لـ ﴿قِرَدَةً﴾ تميزهم عن سائر القردة، حيث القردة الحيوان ليست خاسئة بعيدة عن رحمة الله لأنها خلقت قردة فما ذنبها إذا حتى تخسأ؟.

ولكن هؤلاء الخاسئين إنما خسئوا بكونهم خاطئين فتحوّلهم إلى قردة - إذاً - عذاب لهم في الأولى فلتكن أرواحهم كما هي، والتحول يخص أبدانهم حتى يدركوا عذاب ذلك التحول، فهم ليس لهم نسل ولا بقاء، ولا يجانسون سائر القردة في سائر الميّزات حتى ينسلوا، وكما يُروى عن رسول

(١) نور الثقلين ٢: ٩٠ عن تفسير العياشي عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام في الآية قال: افترق... قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما صنع بالذين أقاموا ولم يقارفوا الذنوب؟ قال: بلغني أنهم صاروا ذراً.

(٢) المصدر عن روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: أقول: الذين ائتمروا وأمروا هم الذي لم يعدوا ولم يسكتوا فنجوا، والذين ائتمروا ولم يأمروا هم الذين سكتوا، والآخرون الذين لم يأتمروا ولم يأمروا هم الذين عدوا.

الهدى ﷺ «إن الله لم يمسخ شيئاً فجعل له نسلاً وعقباً»[(١)] ذلك وقد دلت على ما تنبهناه روايات مضت ومنها ما لم ننقلها.

ذلك خزي لهم في الحياة كأشخاص خصوص، ومن ثم خزي لهم يشملهم ما هم متخلفون عن شرعة الله:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾:

والتأذن هو التكلف بأذان: النداء الإعلان الإعلام، وهو مأوّل لساحة الربوبية بكثرة النداء ومبالغته، وهنا ﴿رَبُّكَ﴾ لمحة إلى مدى ذلك التأذن للحفاظ على هذه الشرعة الربانية الخاصة التي تعاديها الصهيونية العالمية، وتتربص بها كلّ دوائر السوء.

كلام حول الحيلة - الشرعية!

الحيلة - كيفما كانت - لا دور لها في أحكام الله، وكيف يحتال الله في حكمه أم يسمح بحيلة تحول بين حكمه وتحقيقه، وما هي الحاجة إلى الحيلة في أحكام الله، والله هو الحاكم يحكم كيف يشاء؟! فحين يقول ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[(٢)] لا يعني إلّا واقع الأكل بالباطل لواقع الاختلال المعيشي فيه، حيث الربا هو الزيادة عن المستحق فهو باطل عاطل، فهل الحيل الربوية تحوّل الأكل بالباطل إلى الحق، بحيلة لفظية أو عملية، والمحرم هو واقع الربا دون لفظته وصيغته.

وترى هنا فارقاً في واقع الأكل بالباطل بين من يربي ماله بقدر قدر زمن

(١) المصدر عن مجمع البيان وردت الرواية عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: وفي الفقيه قد روي أن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام وأن هذه مثل لها فنهى الله عزّ وجلّ عن أكلها.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

القرض، بألف، وبين من يبيع عشرة آلاف مع سمّ الخياط بأحد عشر ألفاً بنفس القَدَر؟ وليس يباع عشرة آلاف بأحد عشر ألفاً، ولاسم الخياط بألف! إلّا سفاهة وحماقة هي تبطل المعاملة قبل كونها أكلاً بالباطل.

ولو استحلت الحيلة الشرعية في هذه الأمور التي هي محظورة بواقعها، لحلت كلّ المحرمات الواقعية بهذه الحيل، وأصبح شارع الشرعة بواقعها، هادماً لها بالحيل التي تحول دون تحقيق الحق فيها، ولأمكن تحليل كلّ ألوان المعاملات الربوية بيعاً وقرضاً وما أشبه.

وهنا الروايات المتعارضة في حيل الربا معروضة على ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ حيث إن واقع الربا لا يزول بهذه المحاولات المزاولات[1].

---

(١) للاطلاع الواسع على أحكام الربا ومواضعها ومواضيعها راجع هنا الفرقان (٤: ٣٠٧ - ٣٦٠).

ومما يمنع عن أمثال هذه الحيل ما في النهج عن علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: يا عليّ إن القوم سيفتنون بأموالهم.. ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلوا الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع».

وفي الدر المنثور ١: ٣٦٧ - أخرج أبو داود وابن ماجة والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلّا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره» وعن الإمام الرضا عليه السلام في حكمة حرمة الربا: «.. لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً، فبيع الربا وشرائه وكس على كلّ حال على المشترى وعلى البائع» (الوسائل ١٢: ٤٢٤).

وتقابل هذه النصوص، روايات أخرى تحاول تحليل الحيل في حقل الربا، كما في التهذيب ٢: ١٤٦ صحيح البجّلي قال: سألته عن الصرف فقلت له: أشتري ألف درهم وديناراً بألفي درهم؟ فقال: لا بأس بذلك، إن أبي كان أجرأ أهل المدينة مني وكان يقول هذا فيقولون: إنما هذا الفرار، لو جاء رجل بدينار لم يعط ألف درهم ولو جاء بألف درهم لم يعط ألف دينار، وكان يقول: «نعم الشيء الفرار من الحرام إلى الحلال».

وفي المصدر صحيح آخر عنه قال: كان محمد بن المنكدر يقول لأبي جعفر عليه السلام: يا أبا جعفر رحمك الله والله إنا لنعلم أنك لو أخذت ديناراً والصرف ثمانية عشر فزرت المدينة على أن تجد من يعطيك عشرين ما وجدته وما هذا الفرار؟

وكان أبي يقول: «صدقت والله لكنه فرار من الباطل إلى الحق». =

ذلك، وهنا يجدر ذكرى إمام المتقين علي عليه السلام حيث يحظّر عن أحاديث تخالف القرآن يتبعونها ويخالفون كتاب الله بقوله: «اعزم على كل من كان عنده كتاب إلّا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم»(١).

كلام حول حدود الأمر والنهي:

كما أن نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واسع بالنسبة للمأمور والمنهي، فلا يشترط حاضر التأثير ولا جوازه، وإنما هما ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

كذلك الآمر والناهي لا يشترط فيهما الائتمار بكل أمر والانتهاء عن كل نهي، وإلّا لم يحصل كفاح وكفاف في حقل الأمر والنهي، فإنما الشرط هنا ائتمار الآمر بما يأمر به وانتهاء الناهي عما ينهى عنه، فالتارك للمأمور به والمقترف للمنهي عنه، ولا سيّما المتجاهر، ليس له الأمر والنهي كما تدل عليه آيات وروايات مسرودة في بابه بصورة مفصلة(٢).

فالأمر والنهي ما لم يحملا ضرراً هما أهم من تركهما على الآمر والناهي، أو من فعلهما على المأمور والمنهي، هما مفروضان، فما لم

= وفي ثالث عنه: «لا بأس بألف درهم ودرهم بألف درهم ودينارين، إذا دخل فيها ديناران أو أقل أو أكثر فلا بأس» (التهذيب ٢: ١٤٥).
فرغم صحة أسناد هذه الثلاثة، هي مضروبة عرض الحائط لأنها تحلل الأكل بالباطل بهذه الحيلة الغيلة، وكلاهما محرمان بآيات تحرّم الأكل بالباطل وتحرّم الربا وتحرّم الحيلة كآية ﴿يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

(١) رجال الكشي ص ٢٢ عن جابر بن عبد الله عن عبد الله بن يسار سمعت علياً عليه السلام يقول: . .
وفيه عن سلمان الفارسي: «هربتم من القرآن إلى الأحاديث، وجدتم كتاباً دقيقاً حوسبتم فيه على النقير والقطمير والفتيل وحبة خردل فضاق بكم وهربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليكم!.

(٢) هي في تفسير آية البقرة ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ. . .﴾ [البقرة: ٤٤].

يحمل المأمور بأمره على تصلبه في ترك الواجب، أو يحمل المنهي بنهيه على تصلبه في ترك المحرم، فهما واجبان على سائر شروطهما.

إذاً، فقد يجب على تارك المعروف وفاعل المنكر خفية أن يأمر وينهى، ويحرم على الجاهر أن يأمر وينهى، قضية الهدف الاسمي من الأمر والنهي، فكلٌّ مؤمن له - على أية حال - مسؤوليتان اثنتان، تبني شخصه مؤمناً، وتبني الآخرين، بصورة مترتبة أو متوازية، ما لم يضر في تبني الآخرين بأصل الهدف.

ولأن الشرعة القرآنية عالمية أممية أبدية لصالح كلّ الأمم، فليدرّبنا عند ما يمُسُّ من كرامتها من قبل الصهيونية العالمية بذلك البعث البعيث البحيث: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ منذ بداية تأريخ الإفساد العالمي منهم ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ اضطراراً دون قرار ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ المتواصل لـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة.

لذلك نراهم طول تأريخهم المنحوس شَذْرَ مَذْرِ، متفرقين أيادي سبأ دون أيّة دولة لهم خاصة، اللّهم إلّا دويلة العصابات حيث احتلت فلسطين والقدس بمساعدة كلّ سواعد الكفر والاستكبار شرقاً وغرباً، وحتى القيادات العربية التي فسحت المجال لذلك التجوال والاعتداء، أم وساعدتها على ذلك، ولكنها ما ظلت آمنة مطمئنة من بأس مبعوثي الله من مؤمنين وكافرين، فالبعثة الإيمانية عليهم هي الخاصة المبشر بها لمرتيها في آيات الأسرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾(١).

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٥-٧.

ثم البعثة الإيمانية المستمرة من قبل الفدائيين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ومن ثم البعثة الكافرة كالهتارية وما أشبه، التي دمرتهم، فكما ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(١) ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾(٢) كذلك ﴿لَيَبْعَثَنَّ. . .﴾ قد تعم كلا البعثين حيث الشيطنة الإسرائيلية تعم في إفسادها كلَّ ربوع العالمين مؤمنين وكافرين، فلتستمر - إذاً - تلك البعثة المختلطة عليهم إلى يوم القيامة.

فذلك التأذن بتواتر سوء العذاب منذ صدوره على ضوء ذلك البعث المستمر، يختص بالصهيونية العالمية في فترات متلاحقة من الزمن إذ يبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا أكثر، جاءتهم الضربة كما هم ضاربون، وليست دويلة العصابات وتغلّبها على أراض وبلاد إسلامية إلّا في فترات عارضة غير فارضة، هي من قضايا تهاون المسلمين عن جهادهم وجهودهم المتواصلين.

ثم وهذه البعثة الربانية المنبثة بين بعيثي الكفر والإيمان، هي بين تكوينية وتشريعية، وليست السيطرة الصهيونية في فترات كهذه التي طالت سنين، إلّا من وراء وجرّاء فترة المبعوثين المؤمنين توانيا عن تحقيق واجبهم الإيماني في الدفاع عن حوزة الإيمان. و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٣).

ذلك، فهم أولاء الأنكاد يعيشون سوء العذاب بصورتيها: المستمرة، والمرتين في إفساد العالميين.

(١) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

ذلك، وقد تبلغ بهم الحال العضال لحدّ «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر»[1].

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾:

هنا ﴿أُمَمًا﴾ قد تعني إلى أمم مذهبية تحت قيادات روحية، أُمماً تحت قيادات زمنية أنهم هم مقطّعون أمماً بين هذين وكما نجدهم أُمماً حتى الآن رغم تأسيس دويلة العصابات، فمنهم من يرفضها فلا ينحو نحوها، ومنهم من يفرضها فينضم إليها، ومنهم عوان بين ذلك، فالصالحون منهم بين من يؤمن ومن هو قاصر فلا يؤمن، ومنهم دون ذلك بمختلف دركات الدون، وأنحسها الصهيونية التي قد لا تحسب بحساب الأمة الدينية حيث تغلبت عليها السياسة الإبليسية فنسيت أنها أمة دينية كتابية.

ذلك ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾ المرغوبة لديهم في الحياة ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ غير المرغوبة و﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ويهودون إلى الله بعد ما هادوا عن الله، فمن الناس من يرجعه إلى الله الحسنة، ومنهم من ترجعه السيئة، ومنهم من لا يرجع إلى الله بحسنة ولا سيئة، والمتابعة بالابتلاء رحمة ربانية وقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار والطغيان.

ذلك، وقد يصدِّق المروي عن النبي ﷺ أن «الناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد» فقد يُعنى من الغد آخر الزمن قبل ظهور المهدي (عج) و«بعد الغد» زمنه (عج) راجع تفسير آيات الأسرى.

وكلُّ هذه البلايا المتواصلة ضدهم لأنهم عار وبوار على الإنسانية كلِّها، لا فقط على المسلمين، أم والمسيحيين فحسب، حيث يرونهم

(١) الاطلاع الواسع على تفاصيل آيات الأسرى راجع ج ١٥ : ٣٧ - ٧٠ من هذا الفرقان.

أنفسهم فقط شعب الله المختار وأبناء الله الإخصاء، وهم الإنسان فقط دون سائر الناس، وإنما خلقوا بصورة الإنسان ليصلحوا حذاماً لشعب الله.

لذلك فهم يظلمون النسل الإنساني غير الإسرائيلي ويفسدونهم كما يستطيعون، ومن بالغ تزمُّتهم وتمسكهم بقوميتهم أن ليست لهم أية دعاية لجذب سائر الناس إلى شرعتهم اختصاصاً لهم بذلك الاختيار، واجتثاثاً له عمن سواهم من غير الشعب المختار!.

إذاً فليست لهم إيجابيات الدعوة الإسرائيلية لغيرهم، بل هم سلبيات تنحو منحى إفساد كلِّ الشعوب عن بكرتها، عن عقيدتها وفكرتها واقتصادياتها وسياساتها وعن كلِّ الميزات لإنسانيتها، ولكي تصدق تحيّلتهم العمياء والحمقاء أنهم إنما خلقوا بصورة الناس، وليسوا من الناس!.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أولاء المتخلفين الأنكاد البعاد ﴿خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم علماؤهم العملاء حيث ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ في متجر الكتاب، فيشترون به ثمناً قليلاً بكلّ غرّة، حيث ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ ويكأن الله ضمن لهم مغفرة متواصلة متأصلة دونما شرط، فأصبحوا إباحيين رغم أنهم ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ثم ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ حيث الأخذ بهكذا وخز أصبح من جبلتهم، فهم تجار فجّار في حقل الكتاب وهم دارسوه، يقولون على الله غير الحق بغية أخذ هذا الأدنى، فليست دراسة في الكتاب وحدها تكفل تطبيقه حيث الإيمان هو الركن الركين المكين، فقد لا يدرس الكتاب لأنه أمي وهو مؤمن، ولكنه يطبقه تقليداً صالحاً من الربانيين الدارسين له، وقد لا يدرس ولا هو مؤمن، فهو فاقد الجناحين، ولكن الذي يدرسه ولا

يؤمن هو أخطر في هذا البين، فكم من دارسين الكتاب وهم عنه بعاد، إذ يدرسونه ليتأولوه ويحتالوا فيه ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ناسين حظّا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم.

أجل، يدرسونه ليجدوا المخارج لفتاواهم الحارفة الهارفة الخارفة، ويريدون ليزينوا بالكتاب هذه الفتاوى النكاوى تدجيلاً على السذج البسطاء، فهم أخطر آفة على الدين والدينين، فإن غير الدارس للكتاب لا يستطيع أن يحرف الكتاب أو يأوّله كما يهواه، فذلك الدارس للكتاب هو كارث على الكتاب حيث لا يتقي الله!.

ومخترعو المذاهب المختلفة المتخلِّفة عن شرائع الله هم كلهم ممن درسوا في الكتاب فحولوه إلى ما يهوون، وكأن الكتاب خادم لهم غير مخدوم، فلا تجد عندهم سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا أغلى منه إذا حُرِّف عن جهات أشراعه.

ذلك، ولأن كلَّ ما دون الكتاب هو عَرَض هذا الأدنى، إذاً فالأخذ بغير الكتاب برفض الكتاب، إنه من عَرَض هذا الأدنى، بل وأدنى من كلِّ أدنى.

فرفض الكتاب بأخذ مال أو أي منال رفض، ورفضه بأخذ كتاب آخر تقديماً له عليه رفض، وأين رفض من رفض؟!.

فيا للحوزات الرافضة للقرآن من بأس وبؤس، تفسح كافة المجالات لأقلام سامّة تمس من كرامته بسند آياته نفسه كما تهوى.

هؤلاء ورثوا الكتاب بظلم إذ لم يحرسوا الكتاب، فحرسة الكتاب بحق هم - فقط - ورثة الكتاب، كما ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[١].

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

فهم أولاء الأكارم ورثة الكتاب بالحق المطلق وكما يُروى عن رسول الكتاب ﷺ قوله: «علي وارثي»(١) كما هو «وارث علم النبيين»(٢) و«مستودع مواريث الأنبياء»(٣) و«أنت وصيي ووارثي»(٤).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أفلا تستعملون عقولكم التي هباكم الله إياها لتعقلوا الحق فتفرضوه، وتعقلوا الباطل فترفضوه؟ «عجبت لمن يتفكر في مأكوله كيف لا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرويه» «ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت»(٥) وقد «خلق الله تعالى العقل من أربعة أشياء: من العلم والقدرة والنور والمشية بالأمر، فجعله قائماً بالعلم، دائماً في الملكوت» «وللعقل مراتب ودرجات قضية الحكمة الربانية»(٦) ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٤: ٦٩، ٧١ - ٧٥، ٧٩، ٩٩، ١٠٠، ١٦٠، ١٧٢، ١٧٨، ٢٢٧، ٢٧٧، ٣٥٧ و٥: ٣٥، ٣٧، ٤١، ٥٠، ٢٧٧، ٣٥٧ و١٥ ١٩١ - ١٩٥ و٧: ٤١٤ و٢٠: ٢٢٠، ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٢) المصدر ٤: ١٢٢.

(٣) المصدر ٤: ١٧٠ و٢٠: ٣٠٩، ٣١١، ٤٠٧.

(٤) المصدر ٤: ٨٢، ١٦٠ و٢٠: ٢٣٠.

(٥) العوالم (٢ - ٣) عن العلل عن أمير المؤمنين عن رسول الله ﷺ: «سُئل مِمَ فلق الله عزّوجلّ العقل؟ قال: خلقه ملك له رؤوس بعدد الخلائق، من خلق ومن خلق إلى يوم القيامة، ولكل رأس وجه، ولكل آدمي رأس من رؤوس العقل، واسم ذلك الإنسان على وجه ذلك الرأس مكتوب، وعلى كلّ وجه ستر ملقى لا يكشف ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولد، ويبلغ حد الرجال أو حدّ النساء، فإذا بلغ كشف ذلك الستر، فيقع في قلب هذا الإنسان نور، فيفهم الفريضة والسنة، والجيد والرديّ، ألا ..».

(٦) المصدر ٤٢ عن العلل عن إسحاق بن خالد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل آتيه أكلمه ببعض كلامي فيعرف كلّه، ومنهم من آتيه فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يرده عليّ كما كلمته، ومنهم من آتيه فأكلمه فيقول: أعد علي؟ فقال: يا إسحاق! أوما تدري لِمَ هذا؟ قلت: لا، قال: الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كلّه فذاك من عجنت نطفته بعقله، وأما الذي تكلمه فيستوفي كلامك ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركّب عقله في بطن أمه، وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول: أعد عليّ فذاك الذي ركّب عقله فيه بعدما كبر فهو يقول: أعد عليّ».

وهم ورثة الكتاب ودرسته حيث ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ. . . وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾؟ تفضيلاً للدنيا على الآخرة ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾ الدنيا المناحرة لها، المنافية إياها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟.

ذلك «ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق»(١).

وهنا ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ طليقةً دون تقيد بتوبة، وتحتيماً دون قرن برجاء، إنه دليل أنهم كانوا يحتّمون على الله الغفران رغم مواصلة العصيان، وذلك من أنحس العصيان! فما داؤهم؟ وما دواؤهم؟ وما بالهم يقولون ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ متهافتين على عرض هذا الأدنى، وكأنه هو الذي يحتّم الغفر على الله، فهم أولاء يبررون لأنفسهم ذلك بتقول تغوّل على الله أنه ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم بدراستهم للكتاب يعلمون أن الله لا يغفر إلّا للتائب حقاً توبة نصوحاً، دون هؤلاء المصرين الذين ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ﴾ إصرارا وتكراراً للذنب!.

ذلك وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب في مجالات عدة منها الآتية في ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢) ولكنهم رغم أنهم ورثوا الكتاب ودرسوا ما فيه أخذوا يأخذون بديله عرض هذا الأدنى، وكل ما يؤخذ ثمناً عن الكتاب، هو عرض أدنى من كل دان لأنه فانٍ، والآخرة خيْرٌ وأبقى للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟.

---

(١) المصدر عن الاختصاص للمفيد عن الصادق عليه السلام.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

وللعقل - ككُلّ - جنود بمشتقاته هي كلُّها عقال للنفس بجنودها، وكما يُروى عن النبي ﷺ: «إن العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب فإن لم تعقل جارت، فالعقل عقال من الجهل، وإن الله خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، وقال له: أدبر فأدبر، فقال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعظم منك، ولا أطوع منك، بك أبدأ وبك أعيد وعليك العقاب، فتشعب من العقل ١ الحلم، ومن الحلم ٢ العلم، ومن العلم ٣ الرشد، ومن الرشد ٤ العفاف، ومن العفاف ٥ الصيانة، ومن الصيانة ٦ الحياء، ومن الحياء ٧ الرزانة، ومن الرزانة ٨ المداومة على الخير، ومن المداومة على الخير ٩ كراهية الشر، ومن كراهية الشر ١٠ طاعة الناصح - فهذه عشرة أوصاف من أنواع الخير، ولكلٍّ واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع - فأما الحلم فمنه ١ ركوب الجميل، ٢ وصحبة الأبرار، ٣ ورفع من الضعة، ورفع من الخساسة، وتشهّي الخير، ويقرب صاحبه من معالي الدرجات، والعفو والمهل، والمعروف والصمت، فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه -

وأما العلم فيتشعب منه الغنى وإن كان فقيراً، والجود وإن كان بخيلاً، والمهابة وإن كان هيّناً، والسلامة وإن كان سقيماً، والقرب وإن كان قصياً، والحياء وإن كان صلفاً، والرفقة وإن كان وضيعاً، والشرف وإن كان رذلاً، والحكمة، والحظوة، فهذا ما يتشعب للعاقل لعلمه فطوبى لمن عقل وعلم - وأما الرشد فيتشعب منه السداد، والهدى، والبر، والتقوى، والمنالة، والقصد، والإقتصاد، والثواب، والكرم، والمعرفة بدين الله، فهذا ما أصاب العاقل بالرشد، فطوبى لمن أقام به على منهاج الطريق - وأما العفاف فيتشعب منه: الرضا، والاستطانة، والحظ، والراحة، والتفقد، والخشوع، والتذكر، والتفكر، والجود، والسخاء، فهذا ما يتشعب للعاقل بعفافة رضيٌ بالله بقسمه، وأما الصيانة فيتشعب منها: الصلاح، والتواضع، والإنابة، والفهم،

والأدب، والإحسان، والتحبب، والخير، واجتناب الشر، فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة، فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصيانة - وأما الحياء فيتشعب منه: اللين، والرأفة، والمراقبة لله في السِّر والعلانية، والسلامة، واجتناب الشِّر، والبشاشة، والسماحة، والظفر، وحسن الثناء على المرء في الناس، فهذا ما أصاب العاقل بالحياء، فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته - وأما الرزانة فيتشعب منها: اللطف، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وصدق اللسان، وتحصين الفرج، واستصلاح المال، والاستعداد للعدو، والنهي عن المنكر، وترك السفه، فهذا ما أصاب العاقل بالرزانة فطوبى لمن توقّر ولمن لم تكن له خفة ولا جاهلية وعفا وصفح.

وأما المداومة على الخير فيتشعب منه: ترك الفواحش، والبُعْد من الطيش، والتحرّج، واليقين، وحب النجاة، وطاعة الرحمن، وتعظيم البرهان، واجتناب الشيطان، والإجابة للعدل، وقول الحق، فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير، فطوبى لمن ذكر أمامه، وذكر قيامه، واعتبر بالفناء -

وأما كراهية الشرّ فيتشعب منه: الوقار، والصبر، والنصر، والاستقامة على المنهاج، والمداومة على الرشاد، والإيمان بالله، والتوقر، والإخلاص، وترك ما لا يعنيه، والمحافظة على ما ينفعه، فهذا ما أصاب العاقل بالكراهية للشر، فطوبى لمن أقام الحق لله وتمسك بعرى سبيل الله -

وأما طاعة الناصح فيتشعب منها: الزيادة في العقل، وكمال اللّب، ومحمدة العواقب، والنجاة من اللّوم، والقبول، والمودة، والإسراج، والإنصاف، والتقدم في الأمور، والقوة على طاعة الله، فطوبى لمن أسلم من مصارع الهوى، فهذه الخصال كلها تتشعب من العقل -

قال شمعون: فأخبرني عن أعلام الجاهل فقال رسول الله ﷺ: إن صحبته عنّاك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك منّ عليك، وإن أعطيته

كفرك، وإن أسررت إليه خانك، وإن أسرّ إليك اتهمك، وإن استغنى بطر، وكان فظّاً غليظاً، وإن افتقر جحد نعمة الله ولم يتحرّج، وإن فرح أسرف وطغى، وإن حزن آيس، وإن ضحك فهق، وإن بكى خار، يقع في الأبرار، ولا يحب الله، ولا يراقبه، ولا يستحيي من الله، ولا يذكره، إن أرضيته مدحك وقال فيك من الحسن ما ليس فيك، وإن سخط عليك ذهبت مدحته ووقع فيك من السوء ما ليس فيك، فهذا مجرى الجاهل»(١).

وعن الصادق عليه السلام: العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحق، منصفاً بقوله، جموحاً عند الباطل، خصيماً بقوله، يترك دنياه ولا يترك دينه، ودليل العاقل شيئان: صدق القول، وصواب الفعل، والعاقل لا يتحدث بما ينكره العقل، ولا يتعرض للتهمة، ولا يدع مداراة من ابتلي به، ويكون العلم دليله في أعماله، والحلم رفيقه في أحواله، والمعرفة تعينه في مذاهبه، والهوى عدو العقل، ومخالف الحق، وقرين الباطل، وقوة الهوى من الشهوة، وأصل علامات الشهوة أكل الحرام، والغفلة عن الفرائض، والاستهانة بالسنن، والخوض في الملاهي»(٢).

وعنه عليه السلام: «الجهل صورة ركبت في بني آدم، إقبالها ظلمة، وإدبارها نور، والعبد متقلب معها كتقلب الظل مع الشمس، ألا ترى إلى الإنسان تارة تجده جاهلاً بخصال نفسه، حامداً لها، عارفاً بعيبها، في غيره ساخطاً، وتارة تجده عالماً بطباعه، ساخطاً لها، حامداً لها في غيره، فهو متقلب بين العصمة والخذلان، فإن قابلته العصمة أصاب، وإن قابلته الخذلان أخطأ، ومفتاح الجهل الرضا، والاعتقاد به، ومفتاح العلم الاستبدال مع إصابة

---

(١) المصدر (٥٤) تحف العقول قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جواب شمعون بن لاوي بن يهودا من حواري عيسى عليه السلام حيث قال: أخبرني عن العقل ما هو؟ وكيف هو؟ وما يتشعب منه وما لا يتشعّب؟ وصف لي طوائفه كلها فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن العقل عقال...

(٢) المصدر (٧٠) عن مصباح الشريعة.

موافقة التوفيق، وأدنى صفة الجاهل دعواه العلم بلا استحقاق، وأوسطه جهله بالجهل، وأقصاه جحوده العلم، وليس شيء إثباته حقيقة نفيه إلّا الجهل والدنيا والحرص، فالكل منهم كواحد، والواحد منهم كالكل»[١].

ومن وصية موسى بن جعفر عليه‌السلام لهشام بن الحكم ملتقطات منها تالية: «يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث كأنما أعان هواه على هدم عقله: من أظلم نور فكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، واطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه - يا هشام! كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت عقلك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك -

يا هشام! الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند ربه، وكان الله أنسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزّة في غير عشيرة»[٢].

وهناك قصار من الكلمات حول العقل هي طوال في معناه ومغزاه كـ «العقل مركب العلم»: «الإنسان بعقله» «الإنسان عقل وصورة، فمن أخطأه العقل ولزمته الصورة لم يكن كاملاً، وكان بمنزلة من لا روح فيه»، «العقل رسول الحق»، «العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء»، «العقل أقوى أساس»، «العقل حسام قاطع»، «ثمرة العقل لزوم الحق»، «ثمرة العقل الاستقامة»، «العقل حيث كان آلف مألوف»[٣].

---

(١) المصدر (٧٢) عن مصباح الشريعة.

(٢) المصدر (٨٤ - ١٠٦).

(٣) والعناوين على الترتيب غرر الحكم ٢٠ - ١٤ - البحار ٧ / ٧٨ عن كتاب مطالب السؤول - غرر الحكم ١٥ - مستدرك النهج - الغرر ٣١ - الفرر ٣١ - الفرر ٢٠ - الغرر ١٥٨ - الغرر ١٥٨ - الغرر ٢٧.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ
(١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا
آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي
آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى
شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا
إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا
يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾:

هنا «الكتاب» هو كتاب الشرعة الربانية أياً كان وأيان، وكلما كان الكتاب أعلى محتداً وأغلى قدوة، كان التمسيك به أوجب وأحرى.

والتمسيك الطليق هنا بطليق الكتاب يحلّق على كل تمسيك لواجب الحق الحقيق بالاتباع علمياً وعقيدياً وأخلاقياً وعملياً وما أشبه.

كما ويحلق على التمسيك به باجتهاد طليق، أو تقليداً اجتهادي سليم، أم عوان بينهما لفيق.

إذاً ف ﴿وَالَّذِينَ﴾ يشمل كافة المكلفين بكتاب الشرعة أن تكون لهم منه حظوة ممسّكة لكل محبور في شرعة الله، وعن كل محظور فيها.

أجل، وعلى الورثة المجتهدين أن يجدوا السير في ذلك التمسيك لأنفسهم ولسائر المكلفين، كما وعلى الورثة التقليدين أن يجيدوا تقليدهم تبنيا للكتاب كأصل أصيل، سائلين أهل الذكر بالبينات والزبر دون تقليد أعمى وكما يقول الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿٤٤﴾﴾[1] سؤالاً بالبينات والزبر المعصومة الخالصة وحياً، وكما أن أهل الذكر لا أهلية لهم في تلك المسؤولية إلا بالبينات والزبر.

وهنا ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بعد ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾، إشارة إلى أن الصلاة وجه الدين حينما الدين هو الكتاب وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «لكل شيء وجه ووجه دينكم الصلاة فلا يشينن أحدكم وجه دينه»[2].

فكما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان كذلك الصلاة يعرف بها جملة الدين المستفادة من الكتاب، لأنها أظهر العبادات وأشهر المفروضات.

(١) سورة النحل، الآيتان: ٤٣، ٤٤.
(٢) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (١٣٢).

فورثة الكتاب، الدارسون ما فيه، الممسّكون به كأصل أصيل بين كل الفروع والأصول، إنهم هم المصلحون، وكلما كان الكتاب الرباني أعلى محتداً، كان التمسيك به أغلى، وتركه أنحى وأنكى، فإذا كان ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾(١) فماذا يكون - إذاً - مثل الذين حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه، أليس أشد وأمثل من مثل الحمار الحامل للأسفار؟!.

وهنا «يمسِّكون» تفعيلاً دون «يُمسكون» فعلاً، يدلنا على أن واجب ورثة الكتاب أن يمسكوا أنفسهم وسائر الأمة - في حقل الإيمان بمواده الصادقة الأصيلة الصافية - يمسكون كل ذلك بالكتاب في كل حقول المعرفة والعقيدة دون إبقاء، تمسيكاً مسيكاً بوفرة وكثرة وتلاحق، دون ترك له أو إهمال إياه ولا لفترة قصيرة.

أجل، وبالكتاب يمسّك أهلوه في الحق من كل زلة وضلّة، ومن أية تخلّفة وعلة واختلاف، إلى كل تألّف وصحة وائتلاف.

وهنا يندد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بالذين اختلفوا عن القرآن وفي القرآن، وتركوه وراءهم ظهرياً، ممسكين بكل ممسك إلّا الكتاب، إلّا إذا فسر كما يهوون قائلاً: «وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله - وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر - فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

لا يؤويهما مؤو - فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا - فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، وسموا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة، وإنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم، وتغيب آجالهم، حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة، وترفع عنه التوبة، وتحل معه القارعة والنقمة»(١).

ذلك والقرآن هو الخليفة الوحيدة للرسول ﷺ أم هو الكبرى اعتباراً بالسنة وهي لا تعرف إلا بموافقته، فقد «قبضه ﷺ إليه كريماً، وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملا، بغير طريق واضح، ولا علم قائم - كتاب ربكم، مبيناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسراً جمله، ومبيناً غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، وموسع على العباد في جهله، وبين مثبت في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنة نسخه - وهو نسخ العموم أو الإطلاق - وواجب في السنة أخذه، ومرخص في الكتاب تركه - وهو بين منسوخ بأصله أم في عمومه وإطلاقه - وبين واجب بوقته، وزائل في مستقبله، ومباين بين محارمه، من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، وبين مقبول في أدناه، وموسع في أقصاه»(٢).

---

(١) (الخطبة ١٤٧).

(٢) (الخطبة ١).

ذلك، فالممسّك بالكتاب ليس ليقبل ما يخالفه، فإنه تمسيك بغير الكتاب لرفضه، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾(١) و﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) و﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(٣) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(٤) و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾(٥) وما أشبه، هذه من عساكر البراهين القرآنية الدالة على أصالة القرآن، وإنه لا ينسخ أو يخالف بأية مخالفة بالحديث مهما كان متواتراً.

فلا يقبل من أي حديث أن ينسخ الكتاب بتباين كلي أو جزئي مثل التعميم والتخصيص، والتطليق والتقييد، سواء أكان العام والمطلق الكتابيان نصين في العموم والإطلاق أم ظاهرين فيهما، اللّهم إلّا إذا كانا مهملين في العموم والإطلاق، صريحين في الإهمال أو ظاهرين فيه، لحدّ يعلم أن هناك في الكتاب أو السنة ما يخصّص أو يقيّد ذلك العام والمطلق المهملين، المذكورين كضابطة من الضوابط المرسلة، فهنا لا مخالفة بين مقطوع التخصيص أو التقييد، بل ونستقبل ما نعرف بإجمال من تخصيص أو تقييد شرط أن يكون معلوم الصدور عن مصدر الوحي، نقية عن التقية أماهيه من موهنات.

وهكذا لا نصدق حديثاً يطارد ظاهر الوجوب من الأمر وظاهر الحرمة من النهي، وسائر الظواهر البواهر في القرآن العظيم، ككل ما يخالف

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

موضوعات الأحكام وسواها، توسيعاً لها، أو تضييقاً إياها، أم إلقاء لخصوصياتها، زيادة عليها أو نقيضة فيها.

والأحاديث التأويلية إنما تصدّق على كتاب الله إذا كانت موافقة في خط النص أو الظاهر من الآيات حيث تقبل إلغاء خصوصيات كآية صلاة الخوف تلحيقا لصلاة السفر بها بمعونة مثل ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(١).

ذلك وهنا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دون ما سواها مما في الكتاب، ليدل على أنها عمود الدين وعماد اليقين، فالذين يقيمون الصلاة حقاً هم المؤمنون حقاً ف ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾(٢).

ثم هذه الصيغة السائغة ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ تصوّر لنا بالغ الصورة الصالحة للقبض على الكتاب بكل قوة وجدية وصرامة، خارجة عن كل هوة وعرامة في غير ما تعنّت ولا تزمّت وتنطّع، إنما هو تطلّع على ما فيه بكل إتقان وإيقان، دون تحميل عليه رأياً، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فالممسّكون بغير الكتاب رفضاً، أم فرضاً عليه ما ينافيه، أو تحميلاً عليه ما لا يوافيه، إنهم هم المفسدون مهما غربلوا آراء من روايات وشهرات وإجماعات أم أي دليل يزعم من غير الكتاب.

وفي الحق إن الحوزات العلمية المسماة بالإسلامية هي كلها مندد بها في الطامة الكبرى وهاهنا، إذ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(٣)، أو ليس القرآن مهجوراً في حوزاتنا، فلا هو متن لها ولا هامش على متونها، لحد قد يفتي بخلاف نصه العلي أو ظاهره الجلي!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] - ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾[2].

فقد كان رفع الطور نتقاً وقلعاً عن الأرض فإطارة في الفضاء على رؤوسهم، فهو «طير طار مرة لم يطر قبلها ولا بعدها»[3]، وهنا ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ دون «عليهم» إشارة إلى أن وقوعه عليهم لم يكن إلّا بهم، بسبب تمردهم عن شرعة التوراة.

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ القلوب والأبدان[4] فتنكير «قوة» يعرّفنا أنها تحلّق على كلّ قوة، فالمفروض - إذاً - تكريس كافة القوات والإمكانيات لأخذ التوراة، أخذاً علمياً وعقيدياً وعملياً: شخصياً وجماعياً، دون أن يترك في أيّ حقل من هذه الحقول سدى وهملاً.

﴿خُذُوا۟﴾ وليس يكفي مطلق أخذه بل ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ فليكن ما فيه من أوامر الله ونواهيه ذكرى لكم تعيشونها على كل حال، وفي كل حلّ وترحال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كل المحاظير المذكورة فيه، ذلك، فأخذ ما في كتاب الله بقوة وذكر ما فيه، هما جناحان للوصول إلى حق التقوى، خروجاً عن كل طغوى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٤.

(٣) بحار الأنوار ١٣: ٢١٣ - ٦ عن أبي بصير قال سأل طاوس اليماني الباقر عليه السلام عن طير ذكره الله في القرآن ما هو؟ فقال: طور سيناء أطاره الله عزّ وجلّ على بني إسرائيل حين أظلهم بجناح منه فيه ألوان العذاب حتى قبلوا التوراة وذلك قوله عزّ وجلّ: وإذ نتقنا الجبل.

(٤) المصدر ١٣: ٢٢٦ - ٢ عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله الله: خذوا ما آتيناكم بقوة «أقوة في الأبدان أم قوة في القلوب؟ قال: فيها جميعاً»، وفيه عنه عليه السلام قال: واذكروا ما فيه «واذكروا ما في تركه من العقوبة».

وأهم ما في كتب الله تعالى هو التوحيد الحق وحق التوحيد بدرجاته، فقد يذكرنا الله فيها بما كتب في الفطر والعقول وسائر الآيات في كتابات الآفاق والأنفس، فليست كتب الدعوة الربانية إلّا شروحاً وتفاصيل ربانية على كتاب الله في الفطر وما أشبه من سجلات الآيات، مهما كانت فيها زيادات لتعبديات من طقوس وشكليات العبادات.

لذلك فيما يلي يذكرنا الله تعالى بما سجله في كتاب الفطرة الذرية والذرية الفطرة، حيث هما واحد في الحق مهما اختلفا في العبارة، ولقد فصلنا القول في أحكام الفطرة على ضوء آية الفطرة في الروم، ما يكمل البحث حول آية الذرية.

إذاً فالإنسان يعيش عهوداً ربانية، بفطرته وعقليته وبشرعة الله ككل وببنود خاصة راصة من شرعته، لا يستطيع نكران هذه العهود، ولا سيما عهد الفطرة المندغم فيها من ذي قبل.

ولأن آيتي الفطرة والذرية بينهما تلاحم الوحدة، وقصوى الغاية، فلننظر إليهما نظرة عميقة أنيقة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾:

فهنا تعرض قضية التوحيد من زاوية الفطرة بصيغة الذرية، ولأن الفطرة هي ذرية الروح كما النطفة الجرثومية للجسم.

في درس سابق لهذه الآية شهدنا مشهد الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ

ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١) - وهنا تتابعه قصة الميثاق الأكبر الذي أخذه الله على الذرية: الفطرة، في مشهد لا يدانيه أو يساميه شيء في روعة وجلالة مشهد الجبل المنتوق وسائر المشهد، فهو ميثاق هو أوثق من كافة المواثيق حيث تتبناه كأصل.

إنها قضية توحيد الفطرة في صورة مشهد التساءل، ولا تساءل بين الإنسان وربه حال ذرّه، إلّا ما أودعه الله فيه من الغيب المكنون، المستكن في: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(٢) التي تصاغ هنا بصيغة الذرية، فهو عرض للواقع الحق من التكوين الفطري للإنسان بصورة التساءل والتقاول كما هي دأب القرآن في تجسيم الحقائق البعيدة عن الإحساس، حيث يصورها بصورة المحسوس قولاً وسواه.

وقد وردت روايات حول الذر وعالمه متهافتة متضادة مع بعض، معارضة مع الآية، ويجنبها أقوال وآراء غريبة قلّما يقرب منها منطوق الآية.

لذلك، ولكي نكون على بصيرة في مغزى الآية، علينا أن ننظر إلى «عالم الذرية» من زاوية الآية نفسها بكل إمعان ودقة: مع العلم المسبق أن «الذر» هي النمل، وليست الذرية! ولا نجد في القرآن كله إلّا «ذرة» و«ذرية» وهما من أصل واحد، مهما اختصت الثانية بقبيل الإنسان، فقد أوغلوا في الخطأ في تفسير آية الذرية لفظياً ومعنوياً.

قد يشهد بعض بالآية أن هناك قبل خلق الإنسان له كيان الذر، وعالمه عالم الذر، لمكان المسائلة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾(٣) ولكنما التأنّق في

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٣) قال الشريف المرتضى في أماليه (١: ٢٨) وقد ظن من لا بصيرة له ولا فطنة عنده أن تأويل هذه الآية أن الله تعالى استخرج من ظهر آدم عليه السلام جميع ذريته وهم في خلق الذر، فقررهم بمعرفته، وأشهدهم على أنفسهم! وهذا التأويل - مع أن العقل يبطله ويحيله - مما يشهد =

سائر مضمونها يدلنا إلى أن تلك المقاولة المسائلة ليست هي ظاهرها الواقع، بل هي من مسارح الحقيقة أن لو كانت هنالك مسائلة لكانت كما هيه، وهذه هي طريقة القرآن، الفريدة في تبين الحقائق، تصويراً بصورة المسائلة ليعقلها العالمون، وكما ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[(١)] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٢)] ﴿وَقَالَ

= ظاهر القرآن بخلافه لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل «من آدم» وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل من ظهره، وقال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل «ذريته» ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا يوم القيامة: إنهم كانوا عن ذلك لغافلين، أو يعتذروا بشرك آبائهم، وأنهم نشأوا على دينهم وسنتهم وهذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم عليه السلام لصلبه وأنها إنما تناولت من كان له آباء مشركون، وهنا يدل على اختصاصها ببعض ذرية بني آدم فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويلهم - فأما شهادة العقول فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم عليه السلام فخوطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول، مستوفية لشروط التكليف أو لا تكون كذلك فإن كانت بالصفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال وما قرروا به واستشهدوا عليه، لأن العاقل لا ينسى ما جرى هذا المجرى، وإن بعد العهد وطال الزمان، ولهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا في بلد من البلدان وهو عاقل كامل فينسى مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وسائر أحواله، وليس أيضاً لتخلل الموت بين الحالين تأثير، لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر لكان تخلل النوم والسكر والجنون والإغماء بين أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم لأن سائر ما عددناه مما ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا الباب، وليس لهم أن يقولوا: إذا جاز في العقل الكامل أن ينسى ما كان عليه في حال الطفولة جاز ما ذكرناه، وذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادّعوه إذا كملت عقولهم من حيث جرى لهم وهم كاملوا العقول، ولو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه، على أن تجويز النسيان عليهم ينقض الفرض في الآية وذلك أن الله تعالى أخبر بأنه إنما قررهم وأشهدهم لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك، وسقوط الحجة عنهم فيه، فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر إلى سقوط الحجة وزوالها، وإن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف قبح خطابهم وتقريرهم وإشهادهم وصار ذلك عبثاً قبيحاً يتعالى الله عنه. . .».

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[١] مع العلم أن الأصنام والأوثان والنبات والحيوان، بين شركاءهم، ليست لتتكلم، وإنما هو قالها الحال.

وإن الكيان الإنساني ليرتعش من أعماقه حين يتحلى ذلك المشهد الرائع الباهر، ويتملّى اختجالاً أمام ربه حين يسأل: ألست بربكم - وإجابة «بلى» سابقة سابغة حيث يرى فطرته الذرية مصبوغة بها، فلماذا أنكرها بعد إلى خلافها؟

ولأنها آية مسائلة الذرية فلنجعلها في مسائلة حول ما هي الذرية ومسائلته؟ سراً وتقسيماً دلالياً، ويضمنها رداً أو قبولاً لما ورد حول الذرية من روايات وآراء.

لماذا ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ دون «الله» أم «رب العالمين»؟ علّه لأن ذلك الأخذ هو في موقف تربوي خاص، والهدف الأسمى والغاية القصوى هي التربية المحمدية ﷺ كأعلى نموذج تربوي بين ملاء العالمين! وليكون نبراساً ينير الدرب على السالكين إلى الله على ضوء التربية المحمدية عليه أفضل صلاة وتحية. فهذا الرسول الألمعي الابطحي هو المحور الأصيل في الحقل التربوي الربوبي، وفي ظلاله العالمون على درجاتهم قبولاً أم دركاتهم رداً، فـ ﴿رَبُّكَ﴾ لمحة إلى ذلك وإن ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٢] هي ظرف طريف لكل تربية ربوبية أسماها وأسناها ما اختص به الرسول ﷺ دون معاناة أحد أو مساماته معه، مهما اختلفت المحاولات التربوية للناس وما يختارها الله للمختارين من عباده الصالحين.

ذلك «وإذ» هنا متعلقة بـ «اذكر» وما أشبه، فليذكر محمد ﷺ ذلك

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الميثاق ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ برمتهم، فليس يعني «إذ» إذا زمناً خاصاً مضى، بل هو كل زمن خلقة بني آدم عن بكرتهم، وقد عبر عنها بـ«إذ» كزمن واحد، لوحدة ذلك الأخذ الفطري دونما تخلّف لأيّ منهم فيه.

ولمكان ﴿رَبُّكَ﴾ خطاباً للنبي ﷺ نتلمح أن تفهّم معنى الآية بحاجة إلى نبوة في التفكير، فلنقف وراء ساحة النبوة القدسية بنبوة قدسية حتى نعرف القصد من ذلك الأخذ، وليس باب تفهم أمثال هذه الآية مسدودة على غير من خوطب بها، إلا على من سدّ على نفسه منافذ المعرفة، أمن لم يبلغ بالغ الاستعداد لتفهمها.

وليس هنا قصور دلالي، إنما هو قصور المستدل، غير البالغ مبلغ العلم القرآني، فعلى أهل القرآن، العائشين إياه معرفياً، أن يتدبروا آياته الغامضة، فإنها وامضة مشرقة لمن استشرق منها.

ولقد نجد الآيات التي تحمل لفظة ﴿رَبُّكَ﴾ كلها دقيقة المعنى، رقيقة المغزى، لخاصة الخطاب الموجه إلى أعرف العارفين[1] ولأن القرآن - ككل - بيان للناس، إلا الخاص منه كمفاتيح سور وتأويلات أحكام غير

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ [المائدة: ٦٧] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦] ﴿... خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ...﴾ [هود: ١٠٧] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ...﴾ [الأعراف: ١٦٧] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۝١١٩﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ...﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٤-٥].

مذكورة في القرآن، فمجال تفهم خاصة الخطابات - كهذه - مفسوح لمن تدبر فيها حقه، مهما لا يصل إلى حاقها.

فكتاب التدوين: القرآن، هو ككتاب التكوين، هما للناس كافة بمختلف درجاتهم في الاستعدادات الخلقية، والتي تنبو قضية درجات المساعي قدرها، لكلّ حسب سعيه وقدره.

ذلك، ومن آيات القرآن ما هي لائحة لمن يعرف لغة القرآن، وهي قدر الواجب من معرفة الشرعة، ومنها ما يختص بالمعصومين كتأويلات الآيات، ومنها عوان بين ذلك وهي تختلف ظهوراً وغموضاً حسب مختلف الاستعدادات والقابليات والفاعليات.

فترى ﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ حكاية عن زمان سابق لواقع ذلك الأخذ؟ و﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لمّا يخلقوا عن آخرهم حتى يعنى هنا سابق الأخذ!.

إنه أخذ علمي في الصميم في حقل خلق الإنسان، أنه يخلق على طول الخط بهذه الفطرة التوحيدية، أخذاً ربانياً في العلم، يحذوه أخذ في الخلق دونما استثناء.

فـ ﴿إِذْ﴾ هنا حكاية عن العلم المصمّم دون طليقه، فإنه أزلي ليس له زمان، بل هو صميم العلم منذ بدء خلق هذا النوع.

و﴿أَخَذَ﴾ حكاية عن أصيلة خلق الإنسان بحصيلته التوحيدية الفطرية، فهو - إذاً - مأخوذ بحكم الفطرة التي فطره الله عليها و﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وترى بعد أن ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مأخوذة من ظهر آدم كما تقول رواية؟ وهي تطارد نص الآية: ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ - مِن ظُهُورِهِمْ - ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ دون «من آدم - من

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

ظهره[١] - ذريته»؟ فما آدم نفسه مأخوذاً من ظهره شيء في هذه المعركة!.

ثم ترى ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هم ولده الأولون دون مفاصلة، وذريتهم هم ولدهم إلى يوم القيامة، فهم - فقط - أشهدوا على أنفسهم في هذه المسائلة دون آبائهم؟ ولم يأت ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ في آياتها الست الأخرى لهم[٢]، إلّا للناس أجمعين من ذرية آدم! ولم يكن بنوه الأوّلون مشركين ولا واحد منهم - مهما

---

(١) في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: اخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم وأراهم نفسه ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه ورواه مثله في التوحيد عن عمر بن أذينة عنه عليه السلام.

ومثله في غوالي اللئالي وقال عليه السلام أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فاخرج من صلبه كلّ ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالنور ثم كلمهم وتلا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أقول: هذا التفسير خلاف نص الآية فهو مدسوس على الإمام عليه السلام! وأخرج ما في معناه في الدر المنثور ٣: ١٤٣ عن جماعة عن مسلم بن يسار والجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال الرجل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففيم العمل فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار أقول: وهو إضافة إلى مخالفة الآية في أخذ الذرية مخالفة للضرورة حيث يصرح بالجبر في عمل أهل الجنة وأهل النار، ومثله روايات أخر رواها في الدر المنثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلها مردودة بمخالفة القرآن.

وفيه ما يوافق الآية في أخذ الذرية من ظهر بني آدم في ١٤٣ - عن جماعة عن هشام بن حكم أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أتبتدء الأعمال أم قد قضي القضاء فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم اشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كيفية فقال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار» أقول صدر الحديث فقط يوافق الآية.

(٢) وهذه الست الأخرى هي: ٧: ١٩ - ٢٦ - ٢٧ - ٣١ - ٣٥ و١٧: ٧٠ و٣٦: ٦٠.

قتل قابيل هابيل - حتى تصح الحجة لو لا الإشهاد والمسائلة ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾!.

أم إن ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هنا بعضهم الأعم منهم بمن فيهم من مشركين؟ والتبعيض بحاجة إلى قرينة هي هنا منفية! و﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ هي خطاب التنديد بعامة المشركين، فيشمل الآباء كما الأبناء طول التاريخ الإنساني منذ البداية حتى النهاية، دون خصوص الأبناء! ولا خصوص الآباء، بأولاد ليسوا بآباء لآخرين، فإنها حجة - لو صحت - لعامة المشركين.

ثم ومن الآباء موحدون وأبناء منهم مشركون، كما منهم مشركون وأبناء منهم موحدون، أم مشرك من مشرك أو موحد من موحد! وما من أبناء إلّا وهم آباء لآخرين إلّا قليلين هم في عقم عن إيلاد، وليس يختص الشرك بأولاد ليسوا بآباء لآخرين، فإنّها حجة - لو صحت - لعامة المشركين.

إذاً ف ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هم كلهم منذ أوّل من ولّده آدم حتى آخر من يولد من ذريته إلى يوم القيامة دونما استثناء.

ثم من هم ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ المأخوذون ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾؟ أهم ولدهم بعد؟! وقد شملتهم ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾! استغراقاً لذرية آدم على طول الخط! أم هم آباءهم؟ فكذلك الأمر إضافة إلى أن الآباء ليسوا بذرية!، وإلى سائر المحاظير المشار إليها من ذي قبل.

إنهم هم أنفسهم إضافة لهم إلى أنفسهم كما ذريتهم في الفلك المشحون: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾(١) وقد فسرتها آية الحاقة: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾(٢) فذريتهم هم أنفسهم حالكونهم ذرية.

---

(١) سورة يس، الآية: ٤١.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١١.

فقد - والله أعلم - ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أخذ ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ﴾ أولاً: بني آدم - ذريتهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فالمأخوذون هم بنو آدم بأسرهم، لا كما هم بعد خلقهم، وإنما ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ إيحاء إلى الأصل الأصيل من كيانهم وهو ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، دون الفصيل من ولدهم وليكونوا في ذلك الأخذ كائنين بظهورهم، فليس - إذاً - في كون قبل كونهم.

وترى إذا «من ذريتهم» هم من أنفسهم بأرواحهم وأجسادهم كما هم بعد خلقهم؟ وليسوا هم هكذا ذرية لأنفسهم! وإنما هو كون لهم قبل كونهم، فهم - إذاً - آباء أنفسهم! أم كون أوّل لهم قبل كونهم الأخير؟ فلا يصح القول ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ حيث يتطلب كونهم الحالي قبل كونهم الحالي، تقدم الشيء على نفسه!.

ثم من هذا الذي يذكر ذلك التساءل وحتى أفضل المؤمنين فضلاً عن أدناهم أو المشركين؟ فلهم الحجة - إذاً - ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾! ثم أنى لهم من آباء وهم كل ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ دونما استثناء! حيث يعم كل الآباء والأبناء في الطول التأريخي الإنساني، فلا حجة إذا للمشركين منهم لو لا المسائلة ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾.

أو ترى ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هم بأبدانهم دون أرواح، نطفاً أم كما هم الآن؟

و﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ ليست هي كل أبدانهم! والنطف دون أرواح لا تعقل حتى تشهد على أنفسها أم تتساءل عن وحدة إلهها! حقيقة أو تقديريا و«هم» المربع في كلمات الآية: الأربع «ظهورهم - ذريتهم - أشهدهم - على أنفسهم» دليل الحياة العقلية هناك حينذاك! ولا يرجع ضمير العاقل إلى الجسم الإنساني إلا اعتباراً بروحه الكائن فيه، أو كان أم سوف يكون.

أم هي ذرية الأبدان: «النطف» مع أرواح تعقل وتشهد؟ ولا تسمى هذه المجموعة ذرية بل هي الآباء الأصول وهم الذرية الفروع.

ثم و﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ كلهم عن ذلك الإشهاد وتلك المسائلة غافلون، إذا فلهم الحجة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ دون فارق بين ما لو كانت هذه مسائلة واقعة أم لم تكن! فهل أخذت ذرية الأبدان بأرواح عاقلة مكلفة تثبتاً لما ليست بحجة على أية حال، إذ لا يذكره أحد من بني آدم حتى أفضل المؤمنين فضلاً عن المشركين!.

ثم وآية الإنشاء ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1] وآيات كأضرابها، تضرب بخلق الأرواح قبل الأجساد ضرب الحائط!.

أم إن ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هي فِطَرهم فإنها ذريات الأرواح، فكما النطف هي ذريات الأجسام وأصولها، كذلك الفِطَر هي ذريات الأرواح وأصولها، وإنما كيان الإنسان بروحه، وكيان الروح بفطرته ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فهي الأصيل الأوّل من بعدي الإنسان الأصيلين الجذريين، فللجسم بعد الأصل النطفة الذرية وبعد الفرع، سائر الأجزاء المتفرعة عليها، وللروح بعد الأصل الفطرة الذرية، وبعد الفرع سائر الروح المتفرعة عليها، فأحرى بالفطرة أن يعنيها «هم» هنا وهناك.

فما لم يشهدوا على أنفسَهم فيعرفوها، لا يصح أن يُشهدوا على أنفسهم فيعترفوا بحكم فطرتها فـ «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فليعرف الإنسان نفسه بفطرته ليعرف على غرارها ربّه، فإن معرفة النفس أقرب ما يعرفه الإنسان من مطلق الكون، فلا يعذر أحد في جهله نفسه ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟. . .﴾.

والسؤال: ألست بربكم - تقديري أن جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه - وذلك السؤال نفسي وخارجي، فلو تعنت الإنسان في الإجابة الصحيحة عن

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

ذلك السؤال فهو بينه وبين نفسه يجيب ﴿بَلَىٰ﴾ لا سيما إذا تقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب، إذِ يراه يتعلق قلبه بسبب واحد خفي وهو الله تعالى شأنه العزيز! ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ شهوداً فطرياً، ثم فكرياً.

فقد أخذ الله فطرة كل إنسان وهناك الإشهاد والمسائلة؟

وكيف تؤخذ الفطرة التي فطر الناس عليها قبل خلق الناس بروح وجسم، والفطرة هي أعمق أعماق الروح، وقد خلقت الأرواح بأعماقها بعد الأجساد كما تقوله آية الإنشاء؟

وترى «من» هنا تبعيضية تعني أن المأخوذ هنا هو البعض من بني آدم، فهل هو البعض من الكلي وهم جمع منهم؟ وهذه الحجة مأخوذة على كلهم! ثم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ دون «ذرياتهم» تؤكد أن ذلك البعض هو البعض من كل واحد منهم.

أم هي نشوية تعني نشوء ذلك الأخذ من منشإ بني آدم ثم المأخوذ هو ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ عناية إلى فطرهم التي هي ذريات الأرواح وأصولها، أم هي بيانية تبين المأخوذ انه ليس بني آدم من كل منهم كله، وإنما هو ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهي أصول أرواحهم وفطرهم.

وعلى أية حال المأخوذ منهم في ذلك العرض للحجة الذاتية هو الأصل المعطى لهم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

ف ﴿أَخَذَ﴾ هنا حكاية عن كيان تكوينه بصورة المسائلة - وليست في الحق مسائلة ماضية - بل هي تقديرية أنه إذا سئل أجاب ﴿بَلَىٰ﴾ فقد خلق في حاق ذاته على قول ﴿بَلَىٰ﴾.

وجواباً عن سؤال: لماذا هذا التعبير الغامض عن حجة الفطرة، وهي مذكورة في آية الفطرة ببساطة؟

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

نقول: آية الفطرة تتحدث عن أصالتها وبسالتها في أحكامها، وآية الذرية تبين مكان الفطرة بمكانتها، أنها ذرية الروح وأصله وأثافيّه، ولأن المخاطب فيها أولاً هو الرسول ﷺ فلا ضير في أجمالها بعرضها إياها بذلك الجمال.

أجل هناك ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ تقرير لأصالة الفطرة في كيان الإنسان، وهنا ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أنها من ظهر الروح، تعبيران متجاويان يتحدثان عن أصل كيان الإنسان وأثافيّه.

فقد تعني ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذه - والله أعلم - فِطَرهم[1]، دون أرواحهم ككل ولا أجسادهم في جزءٍ ولا كلٍّ، والفطرة من كل إنسان هي أصله الأصيل، فـإنـهـا ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

(١) وفيه روايات كما في نور الثقلين ٤ : ١٨٤ ح ٥٣ عن أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وفيه المؤمن والكافر.

وفيه ٢: ٩٦ ح ٣٥٢ عن التوحيد بإسناده المتصل عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام أصلحك الله قول الله في كتابه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]؟ قال: فطرهم على التوحيد عند الميثاق وعلى معرفة أنه ربهم، قلت: وخاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثم قال: لو لا ذلك لم يعلموا من ربهم ولا من رازقهم، أقول: طأطأة الرأس نكران أن يكون هناك قال فإنه لا يضمن المعرفة، وإنما حال الفطرة ذاتية هي التي تضمن المعرفة.

وفيه ٢: ٩٧ عن التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمن يوم القيامة؟ قال: نعم قد رأوه قبل يوم القيامة! فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم : ألست بربكم قالوا بلى ثم سكت ساعة ثم قال: وان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير : فقلت له جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا - فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون الملحدون.

أقول: ورؤيتهم قبل القيامة هي رؤية المعرفة الفطرية دون رؤية المقاولة المشافهة وقد تكون للمنافقين أكثر!

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] وهي حجر الأساس لإنسانية الإنسان.

فالإشهاد والمسائلة لا تعنيان إلّا قضية الفطرة لبني آدم على طول الخط دون زمن خاص واحد، بل بمستمر زمن الخلقة لذلك النوع الإنساني، وكما في آيات خطاب السماء والأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢] وعديدة من آيات التكوين: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣].

فـ «إذ» لا تعني زمناً سابقاً على خلقة ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولا ﴿أَخَذَ﴾ تعني واقع أخذ الفطر من ظهور الأرواح، ولا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تعني إشهاداً واقعاً قبل خلقهم، ولا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ سؤال لفظي عن الفطر، ولا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ إجابة في قوله باللسان.

فقد تعني «إذ» كل زمن خُلِق ويُخلَق فيه من بني آدم، وهو مثلث الزمان إلى يوم القيام و﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تصوير فني منقطع النظير لما يفعله تعالى ببني آدم حين يخلقهم، أنه يتبنى العصمة في أعمق أعماق كيان الإنسان كإنسان، والأفعال الماضية هنا تشمل مثلث: زمن الخلق لبني آدم، ومن مضى منهم لمضيّه، ومن يستقبل لتحقق وقوعه كمضيه، فلم تكن مسائلة قبل خلقهم، فإنما، وعلى حد المروي عن الصادق عليه السلام: جواباً عن سؤال: كيف أجابوا وهم ذر قال: «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه»[٤] فالتساؤل - إذاً - تقديري لا واقع له قبل خلقهم، فهو تصوير فني عما قدر في ذات الإنسان بصورة المسائلة وليس بها.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٤) في الكافي وتفسير العياشي عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام كيف أجابوا وهم ذر؟=

ثم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ كخلفية لهذا الأخذ: أنهم شهدوا أنفسهم دون ستار، فعرفوها دون غبار، فأشهدوا على أنفسهم بحكم الفطرة أنه تعالى ربهم، حيث تصرِخ الفطرة من أعماقها عند السؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ - تصرخ صارحة: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ شهدنا أنفسنا وشهدنا على أنفسنا أنها في حاق ذاتها موحدة لله تعالى! ولقد «صنع منهم ما اكتفى به»[1] حجة لوحدانيته عليهم، وعلّ الأخذ تعني ذلك الصنع، وهو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقد يعنيه المروي عن الصادق عليه السلام تفسيراً لآلية: «نعم لله الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق هكذا وقبض يده»[2] فالأخذ هو الأخذ الصنع

= قال: وكان محمد أول من قال بلى، قال: كانت رؤيته معاينة فأثبت المعرفة في قلوبهم ونسوا ذلك الميثاق وسيذكرونه بعد ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ولا من رازقه (البرهان ٢: ٥٠ ح ٢٦).

وفي المحاسن عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: كلّ ذلك معاينة فأنساهم المعاينة وأثبت الإقرار في صدورهم ولولا ذلك ما عرف أحد خالقه وإلا رازقه وهو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرُف: ٨٧].

ذلك، والمروي عن علي عليه السلام: «إني لأذكر الوقت الذي أخذ الله على فيه الميثاق» كما أخرجه ابن المغازلي في المناقب (١٠٠) بسنده عنه عليه السلام أنه قرأ عليه أصبغ بن نباتة هذه الآية فبكى عليه السلام أقول: إنه قد يعني الميثاق الخاص، أم وميثاق الفطرة معرفة كاملة، دون عالم قبل خلقه يسمى الذر.

(١) وفيه ٣٦٢ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قالوا بألسنتهم؟ قال: نعم وبقلوبهم فقلت وأي شيء كانوا يومئذ؟ قال: صنع منهم ما اكتفى به.

أقول «وبقلوبهم» عله تفسير لقوله: نعم بألسنتهم حيث يعني لسان الحال، الذي يبدو في أحبائه في المقال و«صنع منهم ما اكتفى به» هو اكتفاء الحجة حيث صنع فيهم الفطرة التي تحكم في ذاتها بتوحيد الله.

وفي تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في آية الميثاق قلت: معاينة كان هذا؟ قال: نعم فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه.

(٢) وفي تفسير العياشي عن زرارة قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الحجة، فهم في قبضته فطرياً بميثاقهم دون تلفّت عنه ولا تفلّت إلّا من ظلم نفسه.

﴿أَخَذَ . . . ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حيث أخذ يخلق أرواحهم، أخذاً في أخذ دون أي وخز، وأين أخذ من أخذ؟! وهذه هي الحجة الوحيدة الذاتية، غير الوهيدة على أية حال، تقطع أية عاذرة في الأنفس والآفاق، ومن الأولى الغفلة الذاتية الفطرية للنفس:

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ حيث الغفلة الفطرية العاذرة تعذر صاحبها في غفلة عقلية، فتغافلا عن تذكيرات الرسالات الإلهية، وأما اليقظة الفطرية فصاحبها غير معذور وإن لم يعقل، مهما كانت الحجة عليه قدر حكم الفطرة.

فما لم يتزود الإنسان في أعماق ذاته بحجة التوحيد، المعصومة، والعقول ليست معصومة ولا - بأحرى - عاصمة دون أخطاء، والشرعة الإلهية لا تقبل إلّا بحجة معصومة، فالإنسان معذور في ترك الشرعة، وله الحجة - إذا -: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ -: غافلين عن أن الله ربنا! إذ لم يكتب في ذواتنا كلمة التوحيد.

ومن الثانية عامل التربية، فلولا الفطرة المفطورة على التوحيد، فلمن يشرك بالله، خاويا عن حجة ذاتية، عائشاً في جو الشرك، في تربية شركية بين الآباء، أم أي مجتمع شركي، إن له عذراً في إشراكه بالله، لقصوره الذاتي، والواقع الخارجي.

ولا يقطع الأعذار الأنفسية والآفاقية، إلّا حجة ذاتية فطرية، وهي الدين حنيفا، حيث أمرنا بإقامة وجوهنا إليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ

﴿ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[١]. حجة قيمة قائمة على كل نفس بما كسبت، لا تبدّل لها ولا تبديل، قاطعة كل عذر إلّا الجنون، أماذا من قصور دون تقصير، فالفطرة بنفسها ليست حجة كاملة ما لم يساندها العقل فيستند إليها، ثم الشرعة الإلهية تتبنى العقول كوسائط والفطر كأصول، وهنالك تتم الحجة البالغة الإلهية.

صحيح أن العقل الإنساني حجة رسمية راسمة لتكاليف الشرعة، حاسمة كل عاذرة أمام الشرعة، ولكن الذي لا يعقل كما الإنسان العاقل، يكلّف قدر تمييزه مهما لم يكن كتكليف العاقل، فإذا كانت الدواب كلها تحشر لتطبيق الجزاء الوفاق: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[٢].

فبأحرى الإنسان سفيهاً أو مجنوناً أو قاصراً أن يكون مسؤولاً قدر تمييزه، وكما «إن الله يداق العباد في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم» كذلك الدقة في الحساب للدواب وغير العقلاء من الإنسان على قدر تمييزهم!

ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾[٣] أنفسية كما نفصلها آفاقية ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إليها بادئين بآيات الفطرة، حيث تتبنى الإنسانية كأول خطوة.

ذلك هو التجاوب المفهوم بين آيتي الفطرة والذرية، فإذا كانت الثانية متشابهة فالأولى المشرقة بنسبتها تفسرها، ونصدق فيها تفسير الروايات الملائمة لها، ونكذب المخالفة لصراحة أو ظهور مستقر فيهما، ونرد المشكوك إلى قائله دون رد ولا قبول.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

وذلك هو العهد الأول، المعهود في الفطرة، حيث يندّد بهم الله في نقضه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾(١) فالعهد إليهم كلهم ليس إلّا عهد الفطرة، حيث المجانين والعائشين في الفترة والقصّر خارجون عن عهد الشرعة، ثابتاً فيهم عهد الفطرة.

كـذلـك ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾(٢). عهد لزام الفطرة، هو حزام صارم لذوي الفطرة، لا يعذرون في إشراكهم بالله على أية حال، وعلى حد تعبير الإمام الصادق عليه السلام: صنع منهم ما اكتفى به(٣) وكفى بحكم الفطرة حجة.

ذلك هو التفسير المفهوم لآلية المقبول لدى العقول، وهو القدر المتيقن بما تعنيه، مهما روي بجنبه عالم آخر هو الآخر يسمى الذر لا نعرف معناها ومغزاها(٤) إلّا البعض مما تضاد الآية، والواقع المعقول بحق القبول.

وهنا يتجلى الحق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٥) فما فوق الشرك هو الإلحاد في الله بنكران وجوده

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.

(٣) قد مضى حديثه أخيراً تحت الرقم (١) حول هوامش تفسير الذر بالفطرة وفي تفسير العياشي عن رفاعة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؟ قال: نعم لله الحجة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق وهكذا وقبض بيده.

(٤) وفي تفسير البرهان ٢: ٤٩ ح ٢٠ - ابن بابويه بإسناد متصل عن الفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في حديث طويل قال قال الله عزّ وجلّ لجميع أرواح بني آدم: ألست بربكم قالوا بلى، كان أول من قال بلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فصار بسبقه إلى بلى سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين.

(٥) سورة النساء، الآية: ٤٨.

فبأحرى لا يغفر أن ينكر إذا لا يغفر أن يشرك به، وما دون ذلك هي كافة المعاصي دون الشرك، يغفرها على شروطها، وطبعاً عدم الغفران لمن يشرك به ليس في حياة التكليف، إنما هو من مات على الشرك.

لا يغفر أن يشرك به لأنه خلاف حكم الفطرة من زاوية، وخلاف حكم العقل من أخرى، حيث التصديق بوجود الإله الخالق والإشراك به في شأن من شؤون الألوهية لخلق من خلقه، إنه تسوية برب العالمين وذلك هو الضلال المبين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾[1] فكيف إذا ترك عبودية الله إلى عبودية غير الله، فإنه أظلم من تلك التسوية الظالمة الضالة ما أظلمه.

رجعة أخرى إلى الآية في نبرات:

١ - ﴿رَبُّكَ﴾ هنا تلمح لرباط عريق بين ما ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ في ذلك العرض الفطري، فكما رباك ﴿رَبُّكَ﴾ التربية القمة العالية، كذلك ﴿رَبُّكَ﴾ ربى ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ككل تربية الفطرة المعصومة، فهنا لك عصمتان اثنتان، عصمة ربانية أولى للإنسان هي لفطرت الله التي فطر الناس عليها، وعصمة ربانية ثانية هي للمرسلين ومن يحذون محذاهم من أئمة الدين المعصومين، وبينهما العصمة الإنسانية قدر المساعي المبذولة للحصول عليها، وهي في مثلث من الأضلاع: الفطرة - العقل - الشرع، فالعقل السليم يأخذ كأصل أوّل من الفطرة السليمة، ثم يأخذ من شرعة الله كأصل ثان، فيتكامل قدر معطياته ومساعيه.

٢ - ثم ضمائر الجمع في «ظهورهم - ذريتهم - أشهدهم - أنفسهم - ربكم - قالوا» هذه الستة تعني كل ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ دونما استثناء.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

٣ - ثم تتضيق الدائرة في ﴿أَن تَقُولُوا﴾ حيث تختص بالمشركين والملحدين على مدار الزمن، لاختصاص هذه القولة بالمنحرفين عن توحيد الله، اعتذاراً بالغفلة القاصرة.

ثم تضيّق ثان في ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فإنها تختص بقسم من المشركين وهم الذين لهم آباء مشركون فهم أولاء ﴿ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لمقابلة الذرية بالآباء، فهم ذرية مشركة دون آباء مشركين.

٤ - ﴿أَخَذَ﴾ تلمح إلى ما أعطاه الله تعالى ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ والأخذ هو أخذ الميثاق على فطرهم بما فطرها على معرفته بتوحيده.

٥ - وهنا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ دون «أشهدهم أنفسهم» أو «أشهدهم لأنفسهم» شاهد لا مرد له أن القصد من ذلك هو الإشهاد «على» احتجاجاً بالمشهود به: «الفطرة» على المشهود عليه: ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾.

فالفطرة التوحيدية - إذاً - حجة ناظرة حاضرة ربانية في أعمق أعماق الروح، ليست لتنفصل عن الإنسان أيّاً كان، فهو بين غافل عنها تقصيراً: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ ولا تعذره هذه الغفلة المقصرة، أو ذاكر لها بدرجاته، فمؤمن بالله.

ثم لا نجد من هو غافل عنها قصوراً، مهما كان قاصراً عن عقلية التكليف أم مجنوناً، وإن كان الله لا يعذب غير المكلفين رحمة منه.

فالفطرة الحاضرة مع الإنسان ما هو كائن على أية حال، هي الحجة العاصمة المعصومة الربانية، وهي مع العقلية التكليفية تصبحان حجتين داخليتين، لا يقبل أي عذر بعدهما أبداً.

فمهما غفل الإنسان أو تغافل عما سواه وعمن سواه، ليس ليغفل عن نفسه الأصيلة وهي فطرته، إلا تغافلاً مقصراً يخسر فيه نفسه فيخسر كل شيء.

رجعة أخرى إلى آية الذر في ملاحظات:

١ - آية الفطرة تعم الناس من آدم وبنيه، فكيف اختصت آية الذرية ببني آدم، والفطرة هي الفطرة والميثاق هو الميثاق؟ والآيتان تعنيان عهداً واحداً؟

﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قد تعني آدم وبنيه، وهذه صورة رائعة عن سيرة كلامية رائجة؟ أو أن آدم نفسه استثنى في ذلك المسرح حيث الحجّة الثانية ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ لا تشمله إذ لم يكن له أب أو آباء، ولم يكن ذرية من بعد آباء لكي تصح له هذه الحجة لو كان مشركاً، وهذا أصح بل هو الصحيح لا سواه، ثم حجة الغفلة لآدم لو لا حجة الفطرة، غير قائمة بعد ما عهد الله إليه مهما نسى حين عصى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾[1].

وأما بنو آدم ككلّ فليسوا ممن يوحى إليه حتى يكون له عهد - غير الفطرة - بالوحي، إذا ف ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ صيغة قاصدة هادفة.

٢ - ما هو موقع ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ ١٧٣﴾ وتلك المسائلة الفطرية تطارد تلك القولة وهذه؟

جوابه أن هناك حذفاً - كـ: حذراً أن تقولوا - لئلا تقولوا وأشباهه، لأنه معلوم بقرينة المقام.

٣ - لو كان ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هي كيان لهم ذرّي قبل كونهم فيه يعقلون ويتساءلون، فالتعبير الصحيح «وإذ خلق ربك الإنسان ذرا قبل كونه الآن» دون حاجة إلى ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فإنه يتطلب خلق آدم كما هو قبل ذلك الأخذ حتى يكون له بنون، وكذلك نسله ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ حتى تكون لهم ظهور فذرية،

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

مما يدل على أن الأخذ كان ضمن تناسل آدم وبنيه، فهو إذاً بعد كونهم الحالي دون كيان ذري قبل كونهم، فإنه كيان دون تناسل كما في الخلق الثاني يوم الآخرة، كما وروايات عالم الذر تقول كلمة واحدة - إلّا قليلاً - أنه خلقهم أولاً قبل خلقهم في تناسل، ثم ولد من ولد على غرار ما خلق أولاً في ذرّ! إذا فـ «بني آدم - ظهورهم - ذريتهم» ذلك المثلث الرائع مما يضاف إلى أدلة سابقة لنا سابغة أن ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في ذلك الأخذ هي ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١).

أجل إن كانت روايات الذر هذه تعني غير ما تعنيه الآية، دون صلة تفسيرية لها، فقد تقبل فيما يعقل ولا يطارد الضرورة القرآنية أم أية ضرورة، ولكن الأكثرية الساحقة منها تظهر في مظهر التفسير لآية الذر، فلا مجال لتصديقها أو ترد إلى قائليها.

٤ - ترى وما هو الداعي لهكذا تعابير متشابهة في أفصح بيان وأبلغه حتى يختلف في تفسيرها الناظرون؟

على حدّ تفسير الإمام الرضا عليه السلام للمتشابه: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله» لا تشابه في متشابهات القرآن دلالياً حيث الدلالات مستقيمة كأقوم ما يكون وأقيمه، وإنما التشابه فيها معنوي لبعد البعيدين عن غوامض المعاني فمتشابهة، وقرب القريبين إليها على درجاتهم فمحكمة، وقد تنحصر المتشابهات في أسماء الله وصفاته وأفعاله المشتركة الاستعمال لفظياً بينه وبين خلقه كالسمع والبصر واليد وما أشبه حيث تسحب معانيها الخلقية عند المجاهيل إلى الخالق سبحانه، فلا بد من تجريدها عن المعاني الخلقية، كما لا بد من تجريد المستعملة في الخلق عن المعاني الخالقية كلفظ الخالق.

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ولأن ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ تحمل معنى غامضاً قلما يعيه المعنيون بها المخاطبون، لذلك صيغت آية الفطرة بصيغة المسائلة، وفي تجاوب رائع بالغ بين الآيتين يلمع المعني منهما لمن أمعن النظر فيهما، ففي كلّ تشابه من جهة وإحكام من أخرى، توضّح كلّ تشابه الأخرى هي الأخرى في توضيح الأولى كما بينا، والله أعلم بما يعنيه وليس علينا ولا لنا إلّا الإمعان في القرآن لنتروى من معين معانيه.

ذلك، والفطرة الإنسانية لا تشذ نسمة قط وكما يروى عن النبي ﷺ: «ما من نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة»[١] «كل إنسان تلده أمه على الفطرة»[٢] «الحمد لله الذي هداك للفطرة»[٣].

تلحيقة حول ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾:

إن ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ هي الذاتية العريقة الإنسانية منذ ﴿أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾[٤] وهو الروح الإنساني، وعلى مدار حياته صغيراً وكبيراً عالماً وجاهلاً عاقلاً ومجنوناً، فطالما العقل يأتي بعد ردح من خلق الروح، وقد يزول بالجنون، ولكن الفطرة الإنسانية ليست لتزول، فهي ما به الإنسان إنسان وما أشبه من نفسياته، ومهما زال عن الإنسان أي شيء منه ليست لتزول عنه الفطرة الإنسانية.

ولأن المعرفة الربانية الصالحة ليست إلا بذريعة العصمة الربانية، فالمعرفة الفطرية الخالصة هي الصالحة، وسائر المعرفة كالسة فالسة مهما

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (١٧٩) حم ٣، ٤٣٥، ٤، ٢٤.
(٢) المصدر م قدر ٢٥.
(٣) المصدر في تفسير سورة ١٧، ٣، أشربة ١، مَ اشربة ٤١، دَى أشربة ١.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

كانت لا عقل العقلاء، إلّا إذا تبنى في معرفته فطرته الخالصة غير المحجوبة بأي حجاب، وهنا يعرف المعني من قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» حيث المعروف من النفس، الذي يعرف به الرب ليس إلا أنفس أبعاد النفس الإنسانية وأمسها بذات الإنسان وهو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وعلى حد تعبير الرسول ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»(١) فطالما العقل - فضلاً عن الحس - قد يخطأ حتى في المستقلات العقلية، فضلاً عن غيرها، ليست الفطرة لتخطئ في المستقلات الفطرية، فهي كنز للعقل يتبناها في سلوكه إلى الله، مستنيراً من شرعة الله في تعاليه.

فقد يرسم هندسة الإنسانية الصالحة مثلث الفطرة والعقلية والشرعة، فالعقلية الصالحة هي الوسيطة بين الفطرة كأصل الدين وأثافيّه، وبين الشرعة كتكملة له، فالعقل المستفيد بين مستفادين معصومين تكويناً هو الفطرة وتشريعاً هو الشرعة، وكما لا تبديل لشرعة الله في أصلها، كذلك ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾(٢): فطرت الله، وإنما العقل يتكامل بين هذين معرفياً وعملياً، كلما ازدادت المعرفة إزداد العمل الصالح، عدّة وعدّة، وكلما إزداد العمل الصالح بعدته وعدته، ازدادت المعرفة، فالمعرفة والعمل الصالح هما جناحان للطائر القدسي الإنساني براحلة العقل وزاد الفطرة والشرعة، «ولا ينبئك مثل خبير».

ذلك، فمن «عرف نفسه» هكذا «فقد عرف ربه» قدر المقدور والمقدر من صالح السلوك إلى الله، ومن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه ولا سواه،

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ ك ٢٣ ب ٨٠ و٩٣، ك ٦٥ سورة ٣٠، ك ٨٢ ب ٣ مس - ك ٤٦ ح ٢٢ - ٢٥ بد - ك ٣٩ ب ١٧ تر - ك ١٦ ح ٥٢ حم - ثان ص ٢٣٣ و٢٥٣ و٢٧٥ و٢٨٢ و٣١ و٣٤٦ و٣٩٣ و٤١٠ و٤٨١، ثالث ص ٢٥٣ و٤٣٥، رابع ص ٢٤ ط - ح ٢٣٥٩ و٢٤٣٣ قد - ص ٣٦١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

حيث الجاهل بنفسه هو أجهل بغيره دون ريب، فمن ضل عن نفسه فقد ضل عن ربه ومربوبيه، فهو ضال عن الحياة الإنسانية عن بكرتها.

ذلك، فسائر الطرق المختلقة المختلفة، فلسفية وعرفانية أمّاهيه، غير طريق الفطرة بالعقلية الصالحة والشرعة الربانية، هي طرق ملتوية غير معصومة مهما كانت صالحة غير مدخولة، حيث التغاضي عن الفطرة كأصل تكويني معصوم، مع التغاضي عن الشرعة كأصل تشريعي معصوم، إنه تغاض مذموم مأثوم، ولا بد في سبيل معرفة الله من زاد معصوم هو الفطرة، وراحلة معصومة هي الشرعة، حتى يسلك سالك العقل سبيله الصالحة وصراطه المستقيم إلى الله.

ولا بد في ذلك السلوك من سلبيات وإيجابيات، سلباً للغشاوات عن الفطرة والعقلية التي تتبانا، وعن الشرعة فيما حرفت، وإيجاباً لأحكام الفطرة إحكاماً لأحكام العقل، وإيجاباً للتعقل في استنباط الأحكام الفطرية، وإيجاباً للشرعة تكملة للأحكام الفطرية والعقلية في مستقلاتها، وإبداعاً في غير المستقلات فطرية وعقلية.

ذلك، ولو كانت معرفة الله بدرجاتها بحاجة إلى مقدمات منطقية وفلسفية وعرفانية وعلمية مصطلحة، لكانت منحصرة في الأخصائيين في هذه الصلاحات، وهي في نفس الوقت غير معصومة عن الأخطاء قاصرة ومقصرة، ولكنما المعرفة الفطرية هي الكاملة الشاملة كل ذي فطرة، ثم وهي تتكامل بالعقلية الصالحة التي تتبناها كأصل أوّل، ثم تتبنى شرعة الله كأصل ثان، فهي - إذاً - سائرة مسيرها إلى معرفة الله بجناحي الفطرة والشرعة، مستزيدة في هذه السبيل بزائد التعقل فالمعرفة والعمل الصالح.

ومهما كان الإنسان قاصراً في سائر القوات المدركة بتقصير أو قصور، ليس هو قاصراً في فطرته، فمهما عاند في تكذيب آيات الله آفاقية وأنفسية،

فليس له أن يعاند فطرته حين تظهر دون إختياره عند ما تنقطع كافة الأسباب الحيوية التي يعتمد عليها، حيث الذات الإنساني تتعلق بنقطة مجهولة مرموزة وهي نقطة الربوبية، وهنا يفحم الناكر لوجود الله ووحدانيته بكلمته الفطرة «بلى» إجابة عن ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ حيث هي محاكاة عن حكم الفطرة، دون مقاولة لفظية.

ولأنه لا يقدر الإنسان إلا على حجة بالغة إلهية ذاتية معصومة تبلغ به إلى حجته الشرعية، لذلك فطره على فطرته المعصومة في حدود أحكامها حيث لا تخطأ فيها إذا ظلت دون حجاب، دونما إذا ضلت بحجاب.

إذاً فللّه الحجة البالغة على الإنسان أياً كان وأيان، وطالما يتغافل الإنسان عن ربه قضية الشهوة والحيونة والمصلحية المادية لحد تصد عنه كل آيات الله البينات آفاقية وأنفسية، وحتى الفطرة حيث تحجب بحجاباتها، فليس في وقت من الأوقات فاضيا عن هذه الحجة الفائضة، فقد يبرزها الله عند الحجاب المطلق المطبق بقصور أم تقصير بما يقطع الله عنه كل الأسباب التي كان يعتمد عليها، فهنا لك يجد ربه وجداناً في أعمق أعماق نفسه المسمى بـ ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

ولما اكتملت الحجة الأنفسية والآفاقية لتوحيد الله، فلا عاذرة للإنسان أيّاً كان وأيان في ضلاله عن التوحيد الحق وحق التوحيد: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ عاذرة ذاتية، حيث الغفلة عن «ربنا الله» هي غفلة مقصرة قاصدة، وليست قاصرة ذاتية.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فإن جو الإشراك بآباء وسواهم، لا يعذر اتباع الذرية، التاركة لذواتها، التابعة لما يضادها.

ذلك، وكافة التذكيرات الأصيلة القرآنية تعني - فيما تعنيه - الذكرى

الفطرية، المغشوة بغشاوات الأهواء الطائشة، فما دامت الفطرة خاملة غائبة فإنسانية الإنسان ككلّ هي غائبة، لأنها أصل الدين الحنيف، أمام كل جنيف.

ذلك، فدين الفطرة - كأصل - هو الذي يدان به للسالك إلى الله، دون دين الفلسفة والعرفان وما أشبه، إذ لا عصمة فيها بما فيها من تقصيرات وقصورات فتضادات وتناقضات، وأنها - ولو كانت صحيحة صالحة للسالك إلى الله، لا تعم كافة المكلفين.

فالفلسفة التي تتبنى المنطق العلمي نجدها ببنائها خالطاً غالطاً، فأثافيّها المنطق العلمي - دون المنطق الفطري المؤيد بالكتاب والسنة - نجد فيه - لأقل تقدير - اختلافات بين علمائه عديد أبجدية «الله» (٦٦) وكما استخرجها عيلم نحرير وعلامة كبير كان في سلك الفلاسفة المنطقيين والعرفاء الرسميين، ثم أصبح من أكبر المعارضين لذلك الثالوث![1].

(١) إنه أستاذنا الأقدم بحر المعارف الربانية، المتحقق بحقيقة من المعرفة الشهودية المغفور له الحاج الميرزا مهدي الإصبهاني المشهد موطناً، وقد نقل عنه ذلك العدد بعض تلاميذه الكبار ننقله عنه بتصليحات أدبية واختصاراً:

اختلفوا في:

١ - أن المنطق علم أم لا كما في منطق الإشارات.

٢ - وفي أنه علم آلي أم استقلالي، وينبعث منه الاختلاف في تعريف المنطق «المصدر».

٣ - وأنه من الحكمة النظرية أو العملية.

٤ - ثم في أنه من الأصول أو الفروع: (منطق الشفاء).

٥ - وفي موضوعه هل هو الألفاظ من حيث دلالتها على معانيها؟ أم هو نفس المعاني المدلولة بها؟ (شرح المطالع).

٦ - وفي موضوعه وهو التصديق هل هو الحكم؟ أو ملازم له؟ أو مركب من أمور أربعة؟ أو مشروط بها؟ وأن المقسم للتصور والتصديق ما هو؟ (رسالة صدر المتألهين في التصور والتصديق المطبوع ذيل، جوهر النضيد في منطق التجريد).

٧ - وفي أن الافتقار إلى المنطق هل هو إلى كلّ قوانينها؟ أم البعض الذي يكون بمنزلة =

. . . .

= الدعائم؟ وصدر المتألهين في هامشه على حكمة الإشراق - بعد نقض وإبرام كثير - يقول: ما من مسألة من مسائل المنطق إلّا ولها دخل في العصمة من الخطأ، إما قريباً أو بعيداً ولأن في مسائله معركة متضادة الآراء فلا عصمة فيها أبداً.

٨ - وفي أن اكتساب المجهولات التصورية بل والتصديقية هل هو ممكن أو ممتنع؟ وأول من أبدى هذا السؤال هو «مائن» وقد عرضه على سقراط وله في هذا المقام إشكالان ذكرهما شارح المطالع في أواخر مبحث الحدود، وقد أشار إليهما صدر المتألهين في هامش حكمة الإشراق في أواخر الضابط السابع، وأجاب عن الأول بما يرجع محصله إلى أن:

«لو أن العلم بوجه الشيء هو العلم بالشيء من ذلك الوجه» على ما ظنه من لا تحقيق له، لزم أن يكون جميع الأشياء معلومة لنا مع عدم اتجاه عقولنا إليها، وذلك بيّن الاستحالة فكم بين كلامه وكلام الصور من المناقضة.

٩ - وفي تعريف الفكر هل هو ترتيب أمر أو أمور؟ ومنه ينبعث الاختلاف في أن التعريف بالفصل وحده وبالخاصة وحدها جائز أم لا، ثم تنازعوا في أن الشيء هل هو مأخوذ في المشتق أم لا، وقال المحقق الطوسي في «شرح الإشارات» وإنما قال: عن أمور ولم يقل عن أمر واحد؟ لأن المبادئ التي ينتقل عنها إلى المطاليب انتقالاً صناعياً إنما تكون فرق الواحدة وهي أجزاء الأقوال الشارحة ومقدمات الحجج على ما سنبين.

فهذه حال أصل المنطق وموضوعه، وأما مباحثه فقد اختلفوا في: ١٠ - أن الدلالة هل هي تابعة للإرادة كما قال الشيخ وأتباعه - ولذا لم يعتبروا فيه الحيثية في تعريف الدلالات - أم ليست بتابعة لها كما قال صاحب المطالع وشارحه، ولذلك اعتبروا هذا القيد لئلا ينتقض تعاريفها في صورة الاشتراك اللفظي، ثم إنه يعلم مراد الشيخ من الدلالة هل هي التصديقية أو التصورية؟

١١ - وفي حقيقة الدلالة الالتزامية أن اللزوم الذهني كما الخارجي هل يعتبر فيها أم لا؟ فالشيخ الإشراقي يقول بعدم اعتباره، وأن المعتبر هو اللزوم الخارجي، فالنسبة بين دلالة المطابقة والالتزام هي التساوي، إذ كلما تحققت المطابقة تحقق الالتزام وبالعكس، وأنه كلما تحقق التضمن تحقق الالتزام، فالنسبة بينهما عموم مطلق، وتبعه في أصل المبني شارح المطالع وشارح حكمة الإشراق، وقد ذهب كثير من المتأخرين إلى الإعتبار فخالفوا الشيخ الإشراقي في النسبة بين المطابقة والالتزام، وكذا بين التضمن والالتزام كما هي مشهورة عندهم.

١٢ - وأن الدلالة الالتزامية هل هي مهجورة - فقط - في الحدود التامة؟ أم وفي كلّ الحدود والرسوم بقسميها؟ فذهب الشيخ والمحقق الطوسي إلى الأول، قال المحقق في شرح الإرشاد: والحق فيه أن الالتزام في جواب ما هو وما يجري مجراه من الحدود التامة، لا =

. . . .

= يجوز أن يستعمل، وأما في سائر المواضع فقد يعتبر، ولولا اعتباره لم يستعمل في الحدود والرسوم الناقصة الخالية من الأجناس، إذ هي لا تدل على ماهيات المحدودات إلّا بالالتزام، فإن الحد هو القول الدال على الماهية، وهذا اللفظ يقع بالاشتراك على الحد والرسم التامّين والناقصين، وأما صاحب المحاكمات فقد خالف الشيخ المحقق في ذلك وذهب إلى عدم دلالة الحدّ الناقص والرسم على الماهية فهو خالفهما في جواز استعمال الدلالة الالتزامية في الحدود الناقصة والرسوم، وذهب إلى عدم جوازه.

١٣ - في أن النسب هل هي محصورة في الأربع المشهورة أم أزيد منها؟ وقد أشكل على الحصر فيها باللّاممكن بالإمكان العام وباللّاشيء، حيث إن بينهما لا توجد واحدة منها، وشارح المطالع سلّم الإشكال وأنكر الحصر، ثم وأشكل في كون نقيضي المتساويين متساويين، وفي أن نقيض الأعم المطلق أخصى مطلقاً.

١٤ - واختلفوا في تعريف الكلي الطبيعي الذي هو معروض للمنطقي، والشيخ عرّفه بما ينافي كلام المشهور (راجع شرح المطالع عند نقله كلام الشيخ في هذا الباب) ثم أشكل في انحصار تقسيم الكلي إلى الكليات الخمس إشكالات ست، في أنّ المقسم هل هو الكلي الفرد أو لا؟ (المصدر).

١٥ - وفي أن تعريف الجنس هل هو حدّ له أم رسم؟ فالشيخ والإمام الرازي وشارح المطالع جعلوه حداً له، وصاحب المطالع والمشهور جعلوه رسماً، ومن هذا الاختلاف ينبعث الترديد في تقويم الجنس المنطقي أو الطبيعي أو العقلي (المصدر) والعجب أن بعض قدماء المنطقيين لم يفرقوا بين الجنس والفصل، والأعجب توهم جماعة منهم عند سماع: إن كلّ جنس معقول في جواب ما هو: أن كلّ منقول في جواب ما هو جنس، ولذلك أنكروا الحد التام، وقد تعرض الشيخ كلا الوهمين (راجع الإشارات).

كما وذهب جمع منهم إلى أن كلّ ذاتي أعم يكون دالا على الماهية كالحساس بالنسبة إلى الإنسان، ورد الشيخ عليهم بأنه فصل الجنس وليس بدال على الماهية إلّا بالالتزام، والدلالة الالتزامية مهجورة في الحدود التامة دون غيرها، وقد عرفت أنه كان مختلفاً فيه بين المحقق والشيخ وصاحب المحاكمات.

١٦ - وفي تعريف النوع الإضافي، قال شارع المطالع: تعريف القوم فاسد، بل الأحسن أن يعرّف بأنه أخص كليين مقولين في جواب ما هو (راجع شرح المطالع ترى فيه إساءة أدب من الشيخ الرئيس إلى فرفوريوس صاحب إيساغوجي كما في الإشارات).

١٧ - وأن النوع الإضافي هل هو أعم مطلقاً من الحقيقي؟ كما نسبه شارح المطالع إلى الشيخ صريحاً، أم هو أعم من وجه؟ كما هو مذهب صاحب المطالع وشارحه.

١٨ - وفي علائم الذاتي وخواصه بأنها ثلاثة كما ذهب إليه جمع من المنطقيين وقالوا: كلما =

. . . .

= يمتنع رفعه في الذهن فهو ذاتي، أو تكون محصورة في واحدة وهي السبق في التعقل كما ذهب إليه الشيخ وأتباعه، ورد عليهم بوجود اللوازم البينة التي يمتنع رفعها في الذهن.

١٩ - وأن امتناع سلب الذاتي عن صاحبها هل هو على تقدير إخطار الماهية والذاتي كليهما في البال؟ كما اختاره الشيخ الرئيس، أو هو على تقدير إخطار الماهيّة فحسب دون فاقة إلى إخطار الذاتي فيه؟ كما ذهب إليه جمع كثير من المنطقيين، وقال شارح المطالع: كم فرق بين القولين!

٢٠ - واختلف أرسطاطاليس مع الشيخ في أن ذكر مواد الأجناس العالية - فقط - هل هو واجب لتنبيه المتعلم كما هو مذهب أرسطو؟ أم لا؟ وإنما هو فضولي زائد، وإن ذكر فلتذكر موارد الأجناس المتوسطة كما هو مذهب الشيخ، وانتصر المحقق الطوسي في الإشارات لأرسطو، ولذلك تبعه في مسلكه في جوهر النضيد.

٢١ - واختلفوا في أن المعرّف هل يجب كونه مساوياً في الصدق مع المعرّف؟ كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي وجمع كثير من المنطقيين، أم لا؟ بل يمكن كونه أعم منه أو أخص أو مبايناً له؟ كما اختاره شارح المطالع، ونقل كلام الشيخ الرئيس عن الشفاء، ثم قال: وقد بان منه أن المساوات ليست مشروطة في مطلق التعريف، بل في التعريف التام.

٢٣ - ومن جرّاءه اختلفوا في بيان الحدود التامة والناقصة والرسوم التامة والناقصة اختلافاً عظيماً، فصار تقسيم التعريف إلى الأربعة عند الظاهريين تقسيماً مخالفاً لما هو عند المتوسطين، وقد قسم صاحب أساس الاقتباس تقسيماً ثالثاً يخالف كليهما، ولذلك فالحد التام عند بعض منهم حد ناقص عند الآخرين، وكذلك الرسم، كما يكون الحد والرسم الناقصان عند بعض غير حد ولا رسم عند الآخرين.

٢٣ - وفي أن الحد الناقص والرسمين هل تدل على الماهية بالإلتزام؟ كما ذهب إليه الشيخ والمحقق الطوسي، أم لا تدل عليها أصلاً؟ كما ذهب إليه صاحب المحاكمات بقوله: الحادّ بالحد الناقص لم يرد به ماهية المحدود، ولا الراسم ماهية المرسوم، وإلّا لكانا حدين تامين، بل لم يردا بهما إلّا مفهوميهما المطابقين وهو ظاهر.

٢٤ - وفي جواز تركّب الماهية كالجنس العالي والفصل الأخير من أمرين متساويين أو أمور متساوية كلّ منها فصل مع عدم كونه مميزا عن المشاركات الجنسية، كما ذهب إليه جماعة من متأخري المنطقيين على ما قال صاحب المحاكمات، وعدم جواز التركب كما ذهب إليه الشيخ والمحقق.

٢٥ - وفي أن مناط الفصلية هل هو التميّز عن جميع المشاركات؟ كما يظهر من الشيخ والمحقق، أو عن بعضها؟ كما ذهب إليه صاحب المحاكمات وجمع كثير (راجع الإشارات والمحاكمات). =

. . . .

= ٢٦ - وفي أن التعريف هل يجب أن يكون بأمور؟ كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي، ولهذا أنكر كون الناطق حداً ناقصاً، والضاحك رسماً ناقصاً، وذهب أيضاً إلى أن الفكر هو ترتيب أمور لا أمر واحد، أم يكفي كونه بأمر واحد كما ذهب إليه المتأخرون (راجع حكمة الإشراق).

٢٧ - ومن هنا أنبعث خلاف آخر عظيم هو أنهم اختلفوا في إمكان معرفة البسائط كالأجناس العالية من طريق التعريف كما ذهب إليه صدر المتألهين، أو امتناعه كما ذهب إليه الشيخ الإشراقي، وشدد النكير على المشائين بأن البسائط أي الفصول - لا يمكن معرفتها إلّا بأمور محسوسة ظاهرة للحس، أو من طريق الكشف والشهود، وقد ذكر صدر المتألهين في هامشه على هذا المقام أن البسائط سواء أكانت أجزاء الحدود أم لا قد تعرف بوجوه أخرى غير ما ذكره المصنف، منها ما ذكره الشيخ الرئيس بقوله في الحكمة المشرقية: أن الأشياء المركبة قد توجد لها حدود غير مركبة من الأجناس والفصول، وبعض البسائط توجد لها لوازم يوصل الذهن تصورها إلى حاقّ الملزومات، وتعريفاتها لا تقصر عن التعريف بالحدود.

وخلاصته: أن البسائط قد تعرّف بمعرفة آثارها ولوازمها، كمعرفة العلة الموجبة للشيء لذاتها من جهة معرفة معلولها، كما تعرف القوى بأفاعيلها، وكمعرفة المسخّنة كالنار من معرفة السخونة الشديدة، ومعرفة الصورة المرطّبة من الرطوبة الشديدة، وكما يحصل من معرفة الإدراك للكليات معرفة الجوهر الناطق بما هو قوة دراكة، ومنها طريق القسمة، ومنها طريق التحليل، والأول لأفلاطون، والثاني لأرسطو، أقول: وهذان الطريقان لا يأتيان في البسائط كما هو المقصود في المقام، لعدم تركبهما من الذاتي الأعم والأخص لكي يقسّم أو يحلّل.

ومنها معرفته من عرض خاص له، أي مساو في العموم أعرف عند العقل من هذا المحدود، ومنها أن يعرف الأعراض البسيطة بموضوعاتها تعريفاً بما فيه زيادة للحد على المحدود في المعنى اضطراراً، كتعريف الأمور بالشيء الذي - أي الجسم الذي - عرضه السواد (و هناك كلام لطيف عن الشيخ فليراجع إلى ذلك الهامش).

ومنها تعريف الشيء الخاص بمجموع أمور كلّ منها وإن كان عاماً له ولغيره، ولكن المجموع مما يخصه، ومنها أن الأمر الخاص قد يكون بديهي التصور، إما من الأوليات أو الحسيات، فلا حاجة إلى أن يكتسب من مفهوم آخر (انتهى ما أردنا نقله عن هذا الهامش ملخصاً) وأقول: المنقول هنا عن الشيخ الرئيس في الحكمة المشرقية مردود منسوخ بما نقله في الأسفار عن تعليقاته حيث يقول: «لا نعرف حقيقة الجوهر، بل نعرف شيئاً له هذه الخاصية» والإنصاف أن الحق مع كلامه في التعليقات. إذ ما يكون خارجاً عن حقيقة الشيء كيف يوصلنا إلى حاق ذلك الشيء. فبعد التفتيش التام يظهر أن الحق مع شيخ الإشراق المؤيد بالمنقول عن الشيخ الرئيس، وهذه كلها نبذات من اختلافاتهم في الحدود، ولهم اختلافات أخرى في سائر مباحث المنطق، حيث اختلفوا في: =

. . . .

= ٢٨ - أن حمل الجزئي الحقيقي على نفسه كهذا الكاتب على هذا الإنسان، جائز؟ كما ذهب إليه الفارابي والصدر، أم لا؟ كما عليه جمهور المتأخرين (راجع هامش حكمة الإشراق في أواخر الضابط الأول من المقالة الثانية).

٢٩ - وفي أن مادة العقود وعناصرها هل هي عين الجهات ذاتياً وغيرها اعتبارياً كما عليه متأخروا المنطقيين، أم لا؟ بل هي غيرها ذاتياً كما هي اعتبارياً، كما عليه قدمائهم، وهو التحقيق عند المتأخرين من الفلاسفة (راجع شرح المطالع والشوارق في مبحث الماهية) واضطربت الكلمة في أن الممكنة العامة هل هي من الموجّهات أم ليست بقضية أصلاً (المصدر).

٣٠ - وفي أن المطلقة العامة هل هي من الموجبات كما اختاره السبزواري في لتاليه؟ أم لا، بل هي متقابلة لها تقابل العدم والملكة؟ كما هو التحقيق عندهم، ويرد عليهم بأنكم تذهبون إلى كون الدائمة المطلقة نقيضاً للمطلقة العامة مع اشتراطكم في التناقض اختلاف الجهة، فكيف تجعلون الدائمة نقيضاً لها مع أنه لا جهة فيها، قال الشيخ الإشراقي في آخر الضابط الثالث: كثر الخبط فيها، يعني من المشائين.

٣١ - وفي أن المواد مواد للموجبات فقط؟ أم وللسوالب أيضاً؟ ذكره الصدر في بحث عدم كون العدم رابطياً في الأمور العامة من الأسفار.

والعجب أنه أنكر قوم من المناطقة الإمكان، لاستلزامه إما كون الواجب ممكن العدم، أو كونه ممتنع الوجود (راجع شرح المطالع) وقال الشيخ في الإشارات: «السؤال الذي يهول به قوم» قال شارحه: السؤال الذي ذكره مما استعظمه قوم من المنطقيين وهو مغالطة باشتراك الاسم - انتهى.

أقول: هذه غاية مدارك بعض المنطقيين، فكيف الاطمئنان بضوابطهم وقواعدهم؟

والأعجب أن جمهوراً من المنطقيين لم يفرقوا بين الضروري والدائم لأن كلّ دائم كلي فهو ضروري (راجع شرح الإشارات في الضرورة والدوام).

٣٢ - وفي أن تعدد القضية هل هو بتعدد الحكم فقط؟ كما عليه المحققون، أم لا؟ كما ذهب إليه صاحب المطالع في الفصل السادس من مباحث التصديقات.

٣٣ - وفي أن الوحدات المعتبرة في التناقض هل هي ثمان ولا يجوز إرجاعها إلى الموضوع والمحمول والزمان؟ كما هو مختار الشيخ والمحقق في الإشارات وشرحه ومختار الجمهور، أم لا، بل يجوز الإرجاع؟ كما عليه الفارابي والإمام الرازي (راجع شرح الإشارات والمطالع).

٣٤ - وفي أن الوحدات الثمانية هل تكفي في تحقق التناقض؟ كما عليه جمهورهم ومحققوهم كالشيخ الرئيس والمحقق الطوسي وأتباعهما، أم لا، بل تحتاج إلى وحدة الحمل ذاتياً =

. . . .

= وصناعياً؟ كما ذهب إليه الصدر ومقلدوه.

٣٥ - وفي أنه هل يعتبر في تناقض المحصورات الاختلاف في الكمّ؟ كما عليه مشهور المنطقيين ومحققوهم كالشيخ والمحقق وأتباعها؟ أم لا، بل لا بد من كون السلب وارداً على عين القضية الموجبة؟ كما عليه شيخ الإشراق وشارح حكمة العين والصدر، فيكون نقيض القضية عند القوم لازم النقيض عند هؤلاء.

والعجب أن الشيخ وأتباعه ذهبوا إلى أن السالبة الجزئية ليست بنقيض للموجبة الكلية، وكذلك العكس، بل هما لازماً النقيض، والشيخ وأتباعه جعلوها نقيضاً صريحاً، مع أن الجميع اتفقوا على أن التناقض يحصل بورود السلب على عين ما ورد الإيجاب.

٣٦ - وفي أنه هل يعتبر في تناقض الموجبات الاختلاف في الجهة؟ كما عليه الشيخ الرئيس وأتباعه، وشنّع في الإشارات بقوله: إن الناس قد أفتوا على سبيل التحريف وقلة التأمل أن للمطلقة نقيضاً من المطلقات أم لا؟، بل ليس الاختلاف فيها بمعتبر في نقائض الموجبات؟ كما عليه شيخ الإشراق وشارح حكمة الإشراق والصدر وصاحب الكشف.

قال شيخ الإشراق: ولعلّه لا يحتاج إلى تعمق المشائيين، وقال الصدر: أرى كلام هذا الشيخ وهذا التحقيق من الشيخ يخلّص السالك عن ارتكاب كثير من التكلفات الشاقة، ويسهّل الطريق إلى طلب الحق.

٣٧ - وفي أن عقد الوضع في القضاء هل هو بالفعل؟ كما عليه الشيخ، أو بالإمكان؟ كما عليه الفارابي، فعلى الأول لا عكس للممكنتين، ولا تنتج الصغرى الممكنة في الشكل الأول والثالث، وتكون فعلية الصغرى شرطاً في إنتاجهما، ولا تنعكس السالبة الضرورية المطلقة والدائمة المطلقة والمشروطة العامة والعرفية العامة إلى أنفسها، ولا تنعكس الخاصتان إلى عامتهما مع قيد اللّادوام في البعض، بل عليه تنعكس الدائمتان إلى الدائمة المطلقة، والعامتان إلى العرفية العامة مع قيد اللّادوام في البعض، والخاصتان إلى العرفية الخاصة.

وعلى الثاني للممكنتين عكس، ولا يشترط فعلية الصغرى في الشكل الأول، وينعكس جميع هذه المذكورات إلى أنفسها، ويجرى دليل الخلف والعكس في جميعها، وقدماء المنطقيين اختاروا مذهب الفارابي، وإليه ذهب المحقق الطوسي في جوهر النضيد واختار متأخروهم مذهب الشيخ وشنّعوا عليه، حيث أخذ عقد الوضع بالفعل، ولكن في مقام ترتيب الأحكام سلك مسلك القدماء بجعل السالبة الضرورية منعكسة كنفسها، وقد وجه شارح المطالع كلام الشيخ بتكلّف ثم قال: ويلوح في كلام الشيخ اضطراب وتشويش، وذهب صاحب المطالع إلى انعكاس الدائمتين إلى الدائمة المطلقة، وانعكاس العامتين إلى أنفسهما، وانعكاس الخاصتين إلى عامتين مع قيد اللّادوام في البعض، وهذا المسلك كما ترى مذهب متوسط بين المذهبين. =

. . . .

= ٣٨ - وفي أن السالبة لا تنعكس مطلقاً كما عليه القدماء؟ أو في غير الخاصتين كما عليه المتأخرون؟ فهم بين فريقين متخالفين بالاختلاف السابق، فتبعه الفارابي، ذهبوا إلى انعكاسهما كنفسهما، وأتباع الشيخ إلى العرفية الخاصة، وقال العلامة في شرح جوهر النضيد: إن أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري عثر على انعكاسهما.

ثم ليعلم أنه قد أورد الشيخ الرئيس والمحقق الطوسي على مذهب الجمهور في انعكاس السوالب المطلقة كنفسها، وارتضاه الصدر واستنصر للشيخ الإشراقي بأن مسلكه في العكوس أحسن من مسألة الجمهور. لأنه في فسحة ومندوحة عما يرد عليهم، ثم نقل عن الفارابي قياساً مؤلفاً في انعكاس السالبة الكلية كنفسها (راجع هامش حكمة الإشراق).

٣٩ - واختلف الشيخ الإشراقي مع جمهور المنطقيين في عكوس القضايا، إذ على مذهبه يكون جميع العكوس مع أصولها ضروريات بتأنة كلية، سواء أكان الأصل موجباً أم سالباً، كلياً أو جزئياً، مطلقاً أو موجّهاً، وقد نسب الجمهور إلى الخبط في انعكاس الضروريات الموجبة.

٤٠ - واختلفوا في لزوم تكرار الوسط بتمامه بلا زيادة ولا نقصان في القياس. كما عليه الجمهور، ولذلك وقعوا في الحيرة وتشتت الكلمة في قياس المساوات، أو عدم لزومه بالتمام كما عليه المحقق الطوسي والصدر، أو أن التكرار ليس بلازم أبداً كما عليه شارح المطالع.

ولا يخفى أن النزاع في المقام إنما هو في إنتاج القياس لا العلم به.

وأعلم أنه قد أورد أبو سعيد أبو الخير إيراداً على الشكل الأول بأنه دوري، وهو صعب الانحلال عند التفطن بمقصوده.

وقد أورد الشيخ شكاً في اشتراط الإيجاب في صغرى الشكل الأول، وفي اشتراط الكلية في كبراه، ولذلك زاد المحقق الطوسي في تعريف القياس قيد «بعينه» دفعاً لهذا الشك.

ثم الشيخ لم يشترط خصوص الإيجاب في صغرى الشكل الأول، بل قال: يشترط أن تكون موجبة أو في قوة الموجبة كالسالبة اللّادائمة، وعلى مذهبه تكون القرائن المنتجة ثمانية، وعلى مذهب الجمهور أربعة، وعلى مذهب الشيخ الإشراقي واحدة.

٤١ - وفي أن الصغرى الممكنة في الشكل الأوّل لا تنتج أصلاً كما هو مذهب جماعة منهم، أو تنتج كما هو مذهب الشيخ والمحقق وأتباعها، واحتجوا عليه بالخلق، وأجاب المانعون عن حجتهم.

٤٢ - ثم القائلون بالإنتاج اختلفوا في أن الصغرى الممكنة مع الكبرى الضرورية تنتج ممكنة؟ كما عليه جمهور القدماء، أو ضرورية كما عليه الشيخ والمحقق ومن تابعهما؟

٤٣ - وهذا الاختلاف نشأ من اختلاف آخر بينهم هو أنهم اختلفوا في أن النتيجة في هذا الشكل هل تتبع أحسن المقدمتين في الكم والكيف والجهة جميعاً كما عليه جمع منهم؟ =

. . . .

= أم هي تابعة في الكمية للصغرى، وفي الكيفية والجهة الكبرى إلا في موضعين كما عليه الشيخ والمحقق في الإشارات وشرحه؟

٤٤ - واختلفوا في إنتاج القياس الشرطي الاقتراني المؤلّف من منفصلتين حقيقيتين فذهب الشيخ إلى عدم إنتاجه وخالفه صاحب المطالع وشارحه.

٤٥ - وفي قياسية القياس الشرطي المؤلف من متصلتين اتفاقيتين، فمنع بعضهم قياسيته، وآخر عدّه قياساً مفيداً.

٤٦ - وفي أن القياس المركب من الحملية والمتصلة لا ينتج، كما عليه جماعة من متأخري قدمائهم، أو ينتج، كما عليه المحققون.

٤٧ - وفي أن الضروب المنتجة في الشكل الرابع هل هي خمسة أو ثمانية، وأوّل من عثر على هذه الثلاثة الزائدة هو أثير الدين المفضل الأبهري.

٤٨ - وفي شروط إنتاج الشكل الثاني بأنه يجب الاختلاف في الكم، ولو لم يكن حكم المقدمتين مختلفاً، كما ظنه جمع منهم؟ أم لا بل يجب الاختلاف في الحكم كما عليه المحققون؟ ونبه على ذلك في شرح الإشارات.

٤٩ - وفي شروط إنتاج الشكل الثالث من القسم الثالث من أقسام القياس الشرطي الاقتراني أي المركب من المتصلة والحملية، فأشترط الشيخ وأتباعه إيجاب الحملية، ولم يشترط صاحب المطالع وشارحه وأتباعهما وأجابا عن إشكالات الشيخ.

٥٠ - وفي شروط إنتاج الشكل الثاني من القسم الرابع من أقسام القياس الشرطي الاقتراني، فاشترط الشيخ وجوب موافقة الحملية لمقدم المتصلة في الكيف، ولم يشترطها صاحب المطالع وشارحه.

٥١ - وفي القسم الثاني من قسمي القياس الاقتراني، المركب من الحملية والمنفصلة، فقال الشيخ: إن الحملية الواحدة إن كانت صغرى لا تنتج في هذا القسم، وقال صاحب المطالع وشارحه بإنتاجهما سواء أكانت صغرى أو كبرى.

٥٢ - وفي أن المنفصلة الحقيقية إذا كانت موجبة جزئية وكبرى فهل تنتج مع المتصلة الموجبة الكلية المشاركة التالي كما عليه صاحب المطالع وشارحه؟ أم لا تنتج كما عليه الشيخ وأتباعه، وقد استدل الشيخ بما فسخه شارح المطالع.

ثم إنهم قد شكلوا في إنتاج الشرطية الاقترانية المؤلفة من المتصلتين كما أن الشيخ قد شك في الشكل الأول عن لزومية هذه الشرطية، وأجاب عنه في الشفاء، وقد أجاب عنه شارح المطالع أيضاً بما قد ردّه الصدر في تعليقاته فراجع.

٥٣ - وفي أن اعتبار الاتصال في الشرطية المتصلة هل هو بلحاظ نفس النقيضين، بلحاظ التوافق بينهما في الصدق (راجع شرح المطالع أواسط الفصل الثاني من التصديقات). =

. . . .

= ٥٤ - وفي أن النسبة التي تكون جزء للقضية هل هي نسبة موضوعية الموضوع للمحمول أو نسبة محمولية المحمول إلى الموضوع ويثمر ثمراً عظيماً في الموجبات، حيث إن الجهة هي كيفية النسبة، فما هذه النسبة المكيفة، فقولنا: الكاتب إنسان، نسبة موضوعية الموضوع فيها للمحمول إنما هي بالوجوب، وقد بين في شرح المطالع تغاير النسب.
وبالجملة هنا اختلاف عظيم بحيث قال شارح المطالع: اضطربت الأقوال فيها، ثم قال في آخر هذا الفصل: فحقّق هذا الموضوع على هذا النسق، وامح من بالك ما يقولون ويزخرفون، فلا شبهة بعد شروق الحق المبين.
٥٥ - وفي أن كلّ متصلتين توافقتا في المقدم والكم وتخالفتا في الكيف وتناقضاً في التالي، تكونان متلازمتين ومتعاكستين كما عليه القدماء منهم؟ أو لا تكونان متلازمتين ولا متعاكستين كما عليه متأخروهم؟ (راجع جوهر النضيد في بيان أقسام المتصلة والمنفصلة في أوّل مبحث القضايا).
٥٦ - وفي اختصاص الشرطيات بالقياس الاستثنائي، والحمليات بالقياس الاقتراني وعدم وجود قياس اقتراني شرطي كما عليه عامة الجمهور قبل الشيخ؟ وعليه ورود التعليم الأول أم لا، بل هناك اقترانات شرطية كما نبه عليه الشيخ واختاره جمع آخرون.
٥٧ - وفي جواز تركب مانعة الجمع والخلو من أجزاء فوق اثنتين، كما عليه جمع كثير من متقدميهم وعليه شارح حكمة الإشراق والمحقق في جوهر النضيد، بل ظاهر عبارة المحقق تجويزه في المنفصلة الحقيقية أيضاً، أم لا، بل لا يجوز في كلّ واحد من المنفصلات الثلاث إلّا التركّب من جزئين فقط، كما عليه الشيخ وصاحب المطالع وشارحه.
٥٨ - وفي حقيقة القضية الحقيقية، وأنه ما الفرق بينها وبين الخارجية وهناك تفصيلات كثيرة تطلب من شرح المطالب.
٥٩ - وفي حقيقة القضية الطبيعية بأنها شخصية أم لا؟ وهل هي داخلة في المهملة أم لا؟ (راجع الإشارات وشرح المطالع وتعليقات حكمة الإشراق في المحصورات).
٦٠ - وفي اقتضاء الموجبات وجود الموضوع وإن كانت معدولة، دون السوالب إن كانت بسيطة كما عليه الشيخ الرئيس والمحقق الطوسي والصدر وجمع كثير منهم، أوليس بين الموجبات والسوالب فرق من هذه الجهة حسب الواقع أصلاً، بل هما كلتاهما تقتضيان ثبوت الموضوع في الذهن أو في نفس الأمر كما عليه المحقق الدواني وجمع آخر منهم؟
بل وذهب بعضهم إلى أنه إن لم تقتض السالبة وجود الموضوع لزم عدم إنتاج الضرب الثاني والرابع من الشكل الأول (راجع شرح المطالع).
ومن هنا نشأ الاختلاف في حقيقة القضايا التي تكون موضوعاتها من الممتنعات كشريك الباري واجتماع النقيضين والمعدوم المطلق، ولهذا لجأ بعضهم إلى تصوير قضية أخرى =

. . . .

= مسماة بالموجبة السالبة المحمول.
ثم إن الفرقة الأولى - أي الشيخ وأتباعه - القائلين باقتضاء الموجبات دون السوالب قد افترقوا فرقتين، ففرقة ذهبت إلى أن التمايز بين الموجبات والسوالب فالاقتضاء وعدمه إنما يكون في الشخصيات والمحصورات كلتيهما، كالشيخ الرئيس والصدر وجمع من المحققين، وفرقة أخرى ذهبت إلى انحصار التمايز في خصوص الشخصيات دون المحصورات لاشتمالها على عقد وضع هو في قوة قضية إيجابية حملية بخلاف الشخصيات لعدم وجود عقد الوضع كالشيخ الإشراقي ومن تبعه.
وهنالك وقع الاختلاف بينه وبين الصدر في حقيقة عقد الوضع بأنه ما هو؟ (راجع الضابط السادس من المقالة الثانية من حكمة الإشراق عند قوله: وهاهنا دقيقة إشراقية).
٦١ - وفي وجود الموجبة السالبة المحمول وعدمها، وأنها هل هي قضية أخرى سوى البارقية أم لا؟ وعلى فرض كونها قضية، فهل تقتضي وجود الموضوع كما عليه صاحب المطالع وشارحها أم لا؟ تشبيهاً بالسوالب المحصلة كما ذهب إليه جماعة أخرى منهم السبزواري في لثاليه (راجع شرح المطالع عند بيان المعدومات).
٦٢ - وفي تحليل قياس الخلف، ففرقة كالشيخين ومن تبعهما خالفوا المتأخرين وعسر عليهم فهم التعليم الأول، ومن هذا الاختلاف يختلف شرائط إنتاج قياس الخلف فيعسر الأمر في إنتاج الضروب المنتجة من الأشكال الثلاثة، إذ عمدة الدليل في تمييز المنتج منها عن غيره هو الخلف (راجع تعليقات حكمة الإشراق لدى بيان قياس الخلف).
٦٣ - وفي أن مقدمات البرهان هل يجب أن تكون واجبات محضة - أي ضروريات - قبال الممكن والممتنع، كما ذهب إليه الصدر تبعاً للشيخ الإشراقي، وإليه ذهب قوم من قدمائهم تبعاً لما ورد في التعليم الأوّل، أم لا؟ بل يمكن كون كلتيهما أو إحداهما ممكنة بل وممتنعة كما ذهب إليه الشيخ الرئيس وأتباعه، فإنه بعدما أبطل رأيهم نسبهم إلى تقليد المعلم الأول وهجى المعلم وقال: إن القوم تخبطوا في كثير من المواضع لأجل تقليدهم المعلم الأول.
٦٤ - وفي أن المتواترات هل تكون حجة في المعقولات كما عليه المعلم الثاني الفارابي في كتابه: (الجمع بين الرأيين) أم لا بل تنحصر حجيتها في المحسوسات فقط كما عليه الشيخان والصدر والمحقق الطوسي.
ومن هنا ينبعث الخلاف في وجوب كون المتواترات قضايا جزئية مفيدة للحكم الجزئي كما هو لازم المذهب الثاني؟ أو عدم وجوبه بحيث يمكن إفادته رأياً كلياً كما هو لازم المذهب الأوّل.
٦٥ - وفي أن العلم الحاصل بالمتواترات نظرية كما ذهب إليه قوم على ما في جوهر النضيد، أم ضرورية كما عليه مشهور المناطقة. =

ذلك المنطق العلمي الرسمي كمقدمة ضرورية لهذه الفلسفة، فضلاً عن نفسها التي فيها مغالطات ومخالطات، ولا بد للسالك إلى الله من زاد معصوم وراحلة معصومة لكي تكون عاصمة، وليست إلّا راحلة العقل السليم بزاد الفطرة السليمة، استضاءة من الشرعة الربانية، دون أية حاجة للورود في لجج المنطقيات والفلسفيات والعرفانيات المصطلحة الحائدة عن الصراط المستقيم والطريق القويم.

هذا! فـ:

نهاية أقدام العقول عقال ... و أكثر سعي العالمين ضلال
وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[1]

فمن أسس الفلسفة تلازم العلة والمعلول، ولأنهم يعتبرون الله علة

= ٦٦ - وفي تمايز برهان اللّم عن برهان الإنّ، فقد ذهب الشيخ الرئيس والشيخ الإشراقي والمحقق الطوسي وصاحب المحاكمات وشرح المطالع وشارح حكمة الإشراق والجمهور من المتأخرين إلى أن الأوسط في برهان اللّم هو الذي علة للوجود الرابط للأكبر في الخارج وفي العقل، سواء أكان معلولاً لوجوده المحمولي أيضاً أم لا، وفي برهان الإنّ هو الذي يكون علة لوجود رابط الأكبر في العقل فقط، وأما الصدر فقد ذهب إلى أن برهان اللم ما كان الأوسط فيه علة للوجود والمحمول الذي للأكبر ولوجوده الرابط كليهما في العقل والخارج كليهما أيضاً، وبرهان الإنّ ما كان الأوسط فيه علة لوجوده الرابط فقط في الخارج والعقل كليهما. ولهذا يختلط الأمر على هذين المذهبين كمال الاختلاط، إذ يكون أغلب البراهين اللّمية على المذهب الأوّل إنية على المذهب الثاني، وأنت تعلم أن طرفي الاختلاف في هذه المسألة من فحول الحكمة والمنطق وأساطينهما.

وحيث إن أعداد الاختلافات المذكورة بلغت إلى عدد «الله» أي: ست وستين، وقد ورد في الحديث: «إذا بلغ الكلام إلى الله فانصتوا» ننصت ونسكت ونرجع إلى ما كنا من موهنات مسلك الفلاسفة.

(١) ينسب الميدي شارح هداية المفضل الأبهري في شرحه على الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام إلى فخر الدين الرازي هذه الأشعار.

يقولون بأزلية وأبدية الخلق لكونه معلولاً له تعالى، والعلة هي والدة المعلول، والله سبحانه لم يلد ولم يولد، فهو خالق بالإرادة وليس والداً دون إرادة كما هو قضية العلية المصطلحة.

ومنها مسانخة العلة والمعلول، إذا فهناك مسانخة ذاتية بين الخالق والمخلوق، وهذا من أسس القول بوحدة حقيقة الوجود وإنما الاختلاف بالمراتب.

ومنها أن الواحد لا يصد منه إلا واحد، فليس معلول الله عندهم إلّا واحد هو العقل الأوّل، ثم هو الخالق لسائر الخلق، ووحدة العقل الأول قضية وحدة العلة الأولى، هي وهدة في خلق سائر الخلق كوهدته تعالى عندهم عن خلق سائر الخلق.

هذه وما أشبه خلطاً بين الخالق والعلة مما أهواهم في هوّات جارفة، مما جعل الفلسفة الإلهية إلحادية أو إشراكية لا تشبه تصريحات الكتاب والسنة، وكما تجد المفاصلة التامة بينهما بطيات الآيات في حقول معرفة الله في هذا الفرقان.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾:

هنا عرض وجيز عن ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ وهو منقطع النظير في القرآن كله، وقد ورد في مسرحه روايات متهافتة تحمل في الأكثر خرافات غريبة: - شرقية أو غربية - تفرض علينا تعمقا أنيقا في نص الآية ليسهل لنا الرد والقبول والله المستعان.

ترى من هو صاحب المسرح؟ وما هي الآيات التي أوتيها؟ وكيف

انسلخ منها؟ ولا تؤتى الآيات المعجزات إلّا أهلوها الصالحون لها! ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنه حسب روايات عدة «بلعم بن باعورا من بني إسرائيل» أم سواه[(١)] ولم يكن نبياً ولا وصياً خلاف ما قد يروى، حيث العصمة ولا سيما الرسالية اصطفاء واجتباء، وكيف يصطفى ويجتبى من هو من الغاوين المخلدين إلى الأرض المتبعين أهواءهم لحد يمثّل بالكلب، وهو مكذب بآيات الله، فكيف يصطفيه إلّا الجاهل القاحل المغري للمجاهيل ويكأن الله يجهل حيث يجعل رسالته؟ و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[(٢)] فكيف جهل هنا موضع رسالته؟

إذاً فـ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هنا ليست هي من آيات العصمة رسالية وسواها ولا الآيات العامة المزيدة، بل هي التي قد تؤتى غير الصالحين لردح من الزمن امتحاناً فامتهاناً، ولكي نعلم أن الآيات الربانية ليست إلّا لمستحقيها بحق والذين يعملون لها كما هيه، ليست إلّا هيه.

فسواء أكانت ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ آية استجابة الدعوة كما يروى؟ وهي آية واحدة!

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٣٧٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الرضا عليه السلام أنه أعطي بلعم بن باعورا الاسم الأعظم وكان يدعو به فيستجيب له، فمال إلى فرعون في طلب موسى عليه السلام وأصحابه، قال فرعون لبلعم: أدع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمرّ في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها الله عزّ وجلّ فقالت: ويلك على ما تضربني؟ أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟ فلم يزل يضربها حتى قتلها، وانسلخ الاسم من لسانه وهو قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ... فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] وهو مثل ضربه.

أقول: هذا الحمار هو كالحمار الذي اختلق هذه الرواية المخيّلة للناظر إليها كان الله مجبر في إجابة دعاء ابن باعورا، فلذلك امتنع عن المرور إلى موسى خوفة دعاءه وإجابته تعالى إياه.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

أم وآيات آفاقية وأنفسية في سلك معرفة ربانية زائدة ابتلاء له وامتحاناً؟ وقد تناسبه جمع ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هي الآيات العوان بين الخاصة الرسالية والعامة السارية.

هنا ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هي عوان بين الآيات المؤتيات لكافة المكلفين بمختلف قابلياتهم وفاعلياتهم، وبين الآيات الرسولية والرسالية للمرسلين، فلا هي الخاصة بـ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ من الآيات العامة، حيث تعمه وسواه، ولا هي من الآيات الخاصة الرسالية لاختصاصها بالمصطفين، فهي - إذاً - عوان بين قبيلي الآيات، أن زوّد فيما أوتي منها على سائر المكلفين، مهما نقص عن المرسلين.

فهي - إذاً - قوة زائدة في الفطرة والعقلية الإنسانية، والطاقة الحسية، أماهيه في ذلك المثلث، ومنها ظاهرة الكرامات بدعوات وسواها، قوة زائدة بين زائدة العصمة والناقصة قدر الحاجة في قضية التكليف العام، وهذه القوة رحمة للذين يتذرعون بها رفعاً لكيانهم المعرفي والعبودي، وزحمة للذين ينسلخون منها فيسقطون في هوّات الضلالة والمتاهة، وكأنهم ما أوتوا من آيات الله شيئاً.

ذلك ولقوة البصيرة والنظر، ولنضوج العقل والبصر، ولمزيد العلوم والفكر، إن لها نصيباً بالغاً للسالك إلى الله في مزيد معرفة الله، ولكنه ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ وقد كانت تحوطه حيطة الجلد على البدن فسلخها عنه ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾.

فرغم أن على الإنسان الاستزادة والاستقواء من ذرائع مزيد المعرفة بالله فالحب في الله، ترى ماذا تكون حال من ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ دون محاولة منه إذا ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ رغبة في الحياة الدنيا والإخلاد إليها، قلباً لنعمة الله والذريعة إلى معرفة الله، نقمة ونعمة وجهلاً بالله، ولذلك ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾

له ولنفسه ومن سواه خالصاً كالساً فالساً عما أوتي، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الهاوين، رغم الآيات التي أوتيها، إذ كفر بها.

ومن هذه الآيات هي الباهرات على نبوة هذا النبي ﷺ، وهذه الآيات تحمل له بسوء صنيعه سبعاً من أبواب جحيم الغوايات لهذا الذي ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ إذ بدل نعمة الله كفراً وأحل نفسه دار البوار جهنم يصلاها وبئس القرار:

١ - ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ حيث عامل ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ معاملة الكفران والنكران، فعمل في انسلاخه منها عن بكرتها فأصبح أدنى ممن أوتي آيات الله ككل وهم عامة المكلفين.

٢ - ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في انسلاخه حيث صار من أتباع الشيطان بعد ما أوتي آيات الرحمن، ولأن المفعول الثاني لـ «أتبعه» محذوف، فهو إذا المعروف بثالوثه، أتبعه نفسه الأمارة، فاتبعه إياه: الشيطان، وأتبعه جموعا يتابعونه.

٣ - ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ بذلك الانسلاخ فالإتباع الذي هو من خلفيات الانسلاخ، فحين ينسلخ الإنسان من آيات الله، فيصبح خاوياً عنها جافياً، فهنالك إتباع الشيطان في ثالوث بخطواته الثلاث، وهنا تتم الغواية الطليقة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ المحسوبين بحساب الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1] فإن له عليهم سلطاناً ما كنا حيث يحتنكهم راكباً عليهم فهم - إذاً - سيّقة الشيطان.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ رفعا من حالة الكرامة إلى هالة العصمة وما أشبه.

٤ - ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ رغم ما أوتي من آيات ترفعه إلى

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

السماء، ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: أرض الشهوة والحيونة والإنية والأنانية، أماهيه من أرضيات سافلة تافهة.

و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هنا هي أرض الحياة المادية قبال الحياة الروحية، فالمخلد نفسه بكل حوله وقوته إلى الحياة المادية، لا يعني من الحياة ما هو حي إلّا الشهوات والحيونات وإن كان موحداً فضلاً عن ملحد أو مشرك، فمن الموحدين من لا يعني من الحياة إلا دنياها، وقد يتذرع بمظاهر إيمانية بغية الوصول إلى بغيته الأرضية منها.

ذلك، والأرض هي الأرض بالنسبة لقبيلي الكفر والإيمان، بفارق أن الكافر يبصر بها فتبصّره، والمؤمن يبصر إليها فتعميه، وعلى حد قول الإمام علي عليه السلام في صفة الدنيا: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

٥ - ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ تخلفاً عن أمر مولاه فهوياً في خضمّ هواه، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق.

٦ - ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ بل وأضل سبيلاً، حيث الكلب كلب له كلب كما خلق، وهو جعل نفسه كلباً يكلب بانسلاخه عن آيات الله فانسلاخه عن إنسانيته، ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ في ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾: دالعاً لسانه من العطش، فهو - إذاً - دائم اللهث وكأنه ليس له قلب يضبطه لهثه حين لا تحمل عليه.

٧ - ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾(١) ومن مثلهم السوء حالة الكلب في حمل سواه.

ذلك، وباحتمال آخر قد تعني الآية أشخاصاً أخر(٢) وبثالث لا تعني

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٧.

(٢) وهم بين أمية بن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو فلما أرسل الله محمداً في ذلك الوقت ورجا أن يكون حسده ثم مات =

شخصاً أو أشخاصاً خصوصاً، إنما تعني الموصوف بهذه الأوصاف الخبيثة النحيسة على مدار الزمن[١] والنص يحتمل كل هذه الثلاث فلنرسله كما أرسل دونما تحديد بواحدة من هذه.

فلقد أوتي من الآيات لحد كأنها أصبحت جلداً له يحفظه لمكان ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ انسلاخاً بسوء صنيعه إذ لم يقل: فسلخه منها، ففاعل السلخ هو هو بما صنع، وهو الله جزاءً بما ضيع فيما صنع.

ولأن هذا المسرح الغاوي الهاوي هو المجال الأجلي للشيطان، لذلك ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ اتبعه نفسه إذ أصبح تابعاً للشيطان تماماً كما انسلخ من آيات الله تماماً جزاءً وفاقاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كما وأتبعه الشيطان نفسه بعد ما اتبعه نفسه الامارة، ثم اتبعه جموعاً يرأسونه إذ أصبح من رؤساء الشيطنات ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ نفسه وأتباعه، رغم ما أوتي من الآيات ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[٢].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ كما آتيناه إياها، لو أنه اتبعها واستفاد منها، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لازقاً إياها، راضياً بالحياة الدنيا من الآخرة، تاركاً آيات السماء وراءه ظهرياً ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في إخلاده فلم ينج منه، فقد يرفع الله بآياته الذي يتذرعونها إلى الحق المرام قدر مسعاهم ومرماهم.

= كافراً ولم يؤمن بالنبي ﷺ وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه» عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبو روق - وأبي عامر الراهب الذي سماه النبي ﷺ الفاسق كان يترهب في الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد ضرار وأتى قيصر واستنجده على النبي ﷺ فمات طريداً وحيداً وهو قول سعيد ابن المسيب - ومنافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ عن الحسن والأمم -

(١) وهو قول قتادة وعكرمة وأبي مسلم.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ اللّاهث ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ هجوماً ضارياً ﴿يَلْهَثْ﴾ - ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ مسالماً ﴿يَلْهَث﴾ واللهث هو حال العطش، فمن الكلاب من تسوى له الحالتان ريّاً وعطشاً، فذلك الذي ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فأصبح ريا بها لا يعطش، وأخذ يلهث وعنده ما يغنيه منها، فقد آتاه الله العلم فأغناه عن التعرض لهذا الأركس الأدنى، ولكنه ألغاه إلقاء لنفسه فيما تشتهيه نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة، دونما حاجة إلى الأرض بما عنده من آيات السماء، فسواء عليه إن أوتي ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ أم لم يؤت منها فإنه لاهث عطشان للحياة الأرضية الدانية الفانية، حيث يفدي للحصول عليها بآياتنا ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وقد أوتوها انسلاخاً منها ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ - فيا له من مشهد عجاب، إنسان آتاه الله آيات له بينات، خالعاً عليه من فضله، كاسياً من علمه بفرصة كاملة شاملة للاهتداء والارتفاع بها، وإذا هو ينسلخ منها وكأنما الآيات أديمت له متلبسة بلحمه، فهو ذا ينسلخ منها بعنف، انسلاخ الحي أمن أديمه اللّاصق بكيانه.

فمن هذه الآيات آية الفطرة: الذر التي فطر الناس عليها، حيث تلبس بها تلبس الجلد بالإنسان، تجرداً وانسلاخاً من الغطاء الواقي والدرع الحامي، فيهبط من الأفق البارق إخلاداً إلى الطين المحمى الحارق، فيصبح غرضاً للشيطان، مخلداً إلى الأرض، ملتبساً ملوثاً بطينها، ممسوخاً كالكلب اللّاهث.

ثم آية العقل وسائر الآيات الأنفسية الواسطة بين العقل والفطرة، وبينها وبين الآيات الآفاقية، من النبيين وكتاباتهم وآياتهم، ومن الكائنات ككل، وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع.

فبقدر ما يؤتي الإنسان من آيات الله يرجى منه بنفس القدر أن يرتفع بها

من الحياة الأرضية إلى الحياة السماوية، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطاً، فاحصاً عن الحيونات، لاهثاً وراء الفرعنات والنمردات.

وكم من عالم عيلم نراه على مدار التاريخ يعلم دين الله بزيادة بالغة ولكنه يزيغ عنه ويزيغ، إعلاناً للبدع، واستخداماً لشرعة الله في التحريفات المقصودة والفتاوى المطلوبة أو المتطلّبة للأهواء والمصلحيات! منسلخاً من آيات الله، منتهياً إلى كلب الكلاب بلهثات لا تنقطع كما الجحيم حيث يقول كما تقول: هل من مزيد؟.

إنهم يلهثون وراء هذا الأدني الأركس، وراء الحطام، وراء الشهوات والأهواء، ولا حدود لهذه اللهثات ولا تنقطع أبداً إلّا بانقطاع أنفاسهم النحيسة البخيسة الخبيثة.

هؤلاء هم أشر خلق الله، وأخطر على دين الله من الكلاب اللاهثة الضارية في ضرايع الغنم!

كلام حول قصص القرآن:

﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هنا، و﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ في يوسف (١١١) و﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١] و﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾[٢] وما أشبه.

إنها تعريفات بالقصص القرآنية أنها تعني للرسول نفسه تثبيت فؤاده على بلاغه الرسالي دونما تلكؤٍ وتهامل، أم يأس من فاعليها، وللمرسل إليهم عبرة وتذكرة وتفكرة، فإن كل إنسان تاريخ بنفسه فضلاً عن كل جيل.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

فدراسة القصص الحق هي كراسة للتفكير، وحراسة عن التهدير، ومراسة لسلوك صالح السبيل ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

فليس القرآن كتاب العرض القصصي تخديراً لأعصاب متوترة، وإتلافاً لأوقات ثمينة، إنما هو فتح لما مضى من كتاب الحياة الإنسانية، ممثلاً كافة النتائج الواقعة، خيّرة وشرّيرة من قبل لفريقي الخير والشر، فهو نبراس لمستقبل الحياة ومتراس، إضافة إلى حاضرة العظات القرآنية، المحلقة على كل صنوف البراهين، مبشرة ومنذرة.

وهذا هو المعني من السير في الأرض بتاريخها الجغرافي وجغرافياها التاريخي، تفكراً في خلق الله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) وذلك سير آفاقي وأنفسي متعاضدين مع بعضهما البعض للحصول على معرفة المبدء والمعاد، وسير آخر به يطلع على مسير المكذبين ومصيرهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٢).

وجامع السير هو النظر إلى كل عواقب الخير والشر: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾(٣).

فقد يضم السير في الأرض إلى كل إنسان تجربات ماضية لقبيل الإنسان، فالإنسان السائر في الأرض بنظرة واقعية إلى وقائع الأرض، يصبح كأنه التاريخ كله، يقبل إلى وارده ويدبر عن شارده فيصبح ابناً صالحاً للتاريخ الواقع.

ولكي نحصل على حاق التاريخ دون ليّ وعيّ، علينا أن نكون واقعيين،

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٢.

لا خياليين تقليديين لكل ما قيل أو يقال، فننظر إلى واقع التاريخ المفتوح، دون المقفل المغلق المغفّل الذي اختلقته مصلحيات المترفين المسيطرين على الشعوب بالسيف والنار، فإنه تاريخ منكوس مركوس يصنع من السائر فيه نكسة وركسة عن انسانيته.

فالإنسان الجاهل بالتاريخ هو ابن نفسه قدر نفسه خيّرة وشريرة، والعالم بالتاريخ هو ابن التاريخ إضافة إلى كونه ابن نفسه، حيث يجمع تجارب السابقين إلى تجاربه نفسه، ان في طريق الهدى أم طريق الردى.

ولأن النبوات هي بناة التاريخ الصالح، فالذي يدرس تاريخها بتقدماتها وعرقلاتها لتكون له نبراساً ينير الدرب إلى الحق المرام، ومتراساً يترس به عما لا يرام، ذلك الإنسان يصبح ابن النبوات بحصائلها في وسائلها التي يدرسها.

ولا بد في عرض التاريخ من أرض صالحة لذلك العرض وهو القرآن، حيث تعني ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرضه بعرضه لصالح التاريخ غير المدسوس ولا المغشوش.

والقرآن حافل للقصص التاريخي الصالح لإنشاء فكرة صالحة، بجنب ما هو حافل لسائر المواد التربوية الربانية.

إذاً فلا فارق بين إنشاءات القرآن وإنباءاته، حيث الكل تعني بناية الإنسان كأصلح ما يرام في حقل التربية الربانية.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾:

فقد رجع رجيع ظلمهم - بما كذبوا - إلى أنفسهم، فلن يضروا الله شيئاً ولا آياته حيث الحق ليس ليتحول عن حاله بتواتر التكذيب، فإنما المتحول هو نفوس الظالمين حيث نزلوا أنفسهم عن كيانها الإنساني فهم ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾:

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾:

ولا يهدي الله إلّا من هو في سبيل الاهتداء، ناحياً نحو الهدى، وأما الناحي نحو الردى، حيث يضل بما يهوى، فهو يضله مهما أوتي من آيات الله الدالة على حق الهدى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[١] - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[٢].

إن القلوب تفقه كأصل من ناحيتين اثنتين، ذاتية أنفسية دون حاجة إلى أعين وآذان، وآفاقية هما فيها من الذرايع الإذاعية لها، فإن الصورة الصوتية المسموعة وغيرها المبصرة تنتقل إلى القلوب فتدرسها تقليباً لها ظهر بطن اصطفاء لأحسنها وأليقها تقبلاً.

فالذين ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ثم ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ بصر الإنسان الواعي ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سمع الإنسان ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ حيث لا تفقه فقه الإنسان ولا تبصر أو تسمع كما الإنسان، ولأن ذلك في الأنعام قصور دون تقصير، وهو في الإنسان تقصير دون قصور فليس - فقط - أولئك كالأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ حيث ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ بما غفلوا، والأنعام غافلة عن ذكرى الإنسان كما خلقت.

وترى كيف ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؟ وقد خلق الخلق

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٢.

للرحمة لا للعذاب، فـ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۝١١٩﴾[١].

ثم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ هل هي صفة الذرء الخلق؟ فما بالهم يؤنّبون ويعذّبون! أم صفة المخلوق بسوء اختياره؟ فكيف ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾!.

الذرء ليس هو الخلق نفسه، بل هو إظهار ما خلق بمظهر أعمالهم الصالحة أو الطالحة، كما ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[٢] و﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ﴾[٣] هما إظهار ما خلق بمظهر آخر.

فكما أن مظاهر الخير هي من الخيّرين وهي من عند الله، كذلك مظاهر الشر هي من الشرّيرين وهي من عند الله، بمعنى أنهما منا بما نختار ونعمل، وهي من عند الله بما يجازي بالعمل.

وهنا ثالوث المواصفات «لهم قلوب لهم أعين لهم آذان» تقرر معنى الذرء، فنسبة الذرء إليه تعالى لا تعني أنهم خلقوا لجهنم، بل هم الكثير كما القليل خلقوا للرحمة، ولكنهم بسوء صنيعهم بهذه الذرايع إلى الرحمة، هيّئوا أنفسهم لجهنم.

فلماذا ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ لأن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقد أمروا بالفقه والإبصار والسماع وهو مهيّئ لهم أسبابها الآفاقية والأنفسية، فهو يذرؤهم - إذاً - إظهاراً بمظهر الخير الذي لم يعملوه بمظهر الشر الذي عملوه، فذلك ذرأهم أولاء لجهنم، وكما ذرأ قليلاً للجنة وهم أولئك الذين لهم قلوب يفقهون بها ولهم أعين يبصرون بها ولهم آذان

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.

يسمعون بها، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١): ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾(٢).

ذلك، فإنما الإنسان هو القلب الفقيه والعين البصيرة والأذن السميعة بما لها من درجات، ومن سواه ليس من الناس، بل هو من النسناس بماله من دركات.

فقد خلق الله الإنسان للرحمة، ثم ذرأ الصالحين للجنة والطالحين للنار بما ذرأوا أنفسهم، وكما يحضر الزارع الحبّ فيذرء صالحه لزرعه ويذرأ طالحه لما دون ذلك، وهكذا يذرأ الإنسان كما يزرع في مزرعة الدنيا ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٣).

ذلك، وقد يعني ﴿ذَرَأْنَا﴾ هنا إلى ما قدمناه، ذرء العلم، أن الأكثرية من الجن والإنس هم سائرون إلى جهنم بما يختارون على علم من ﴿قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ وليس العلم قبل واقع المعلوم سبباً للمعلوم، إنما هو كاشف عنه، سواء أكان سبباً له إلى كونه كاشفاً، أم ليس هو السبب بل إنما هو كاشف، وهكذا ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾.

وفي احتمال ثالث قد يصح ﴿ذَرَأْنَا﴾ بما ذرأ الله وسائل النار والذرايع إليها كما ذرأ الذرايع إلى الجنة، ولكنها كما العلم بها ليست مسيّرة لهما إلى عمل الجنة ولا عمل النار.

فقد خلقنا الله مختارين وهدانا النجدين خيراً وشراً، وخلق ما نختاره من خير أو شر، ولم يسيّرنا لا إلى أسباب الجنة ولا إلى أسباب النار، ثم وذرائع الجنة هي أكثر بكثير من ذرائع النار، فلا خلقه هذه الذرايع وإيانا ولا خيرنا تسيير، ولا علمه بما سوف نعمله تسيير، فإنه «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الملك، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٩.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾:

لقد تحدثنا عن ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ على ضوء آيات الأسرى (١١٠) وطه (٨) والحشر (٢٤) وهنا زيادة ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ نتحدث - فقط - عنها دون زيادة أخرى اللّهم إلّا شطراً.

كما أن ذات الله هي الحسنى بين الذوات، بل ولا حسن لها أمام قدسية هذه الذات، كذلك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ذاتية وفعلية، وذوات المقربين والسابقين التي هي من أحسن الأسماء الفعلية(١) وكذلك الأسماء اللفظية التي تعني مثلث الأسماء هذه ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ لا سواها.

والإلحاد في أسماء، منه أن تختلق له أسماء من أيّ الأربعة، أم تفسر بغير معانيها، أم يدعى بها خلاف المرسوم أو المطلوب بها في أي دعاء: استدعاءً ونداءً ومعرفةً وتوصلاً وما أشبه.

والإلحاد في أسماءه تعالى وجاه التوحيد فيها يعني كلا الإشراك والإلحاد، وكافة التخلفات عما رسمه الله من دعوته بها كما هو المسرود في القرآن والسنة.

ومن الإلحاد في أسماءه تسمية غيره بها كما هو يدعى، تركاً له سبحانه فإلحاد أم إشراكاً به فإشراك، ومنه تحسّب عناية أسماءه معاني زائدة على ذاته في أسماءه الذاتية، وتحسّب عديدها واقعياً، وما أشبه من تخلفات عن شرعة التوحيد الحق وحق التوحيد في ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ - ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من تخلفات عن رسم التوحيد فيها وتوحيدها.

وأحسن أسماءه الحسنى اللفظية وأجمعها هو الاسم الظاهر: «الله» وهو الاسم الباطن: «هو» فـ «الله» ليس له سميّ حتى عند المشركين والملحدين: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾(٢).

والأسماء اللفظية الحسنى حسب المذكور في القرآن مائة وخمسة

(١) نور الثقلين ٢: ١٠٣ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال في الآية: نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفتنا.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٥.

وأربعون[١] والروايات القائلة إنها تسعة وتسعون بين مطروحة - إذاً - أو

---

(١) إليكم هذه الأسماء حسب ترتيب حرف التهجي: سواء المذكورة بألفاظها أو المستفادة من صيغها:

ألف الله - الإله - الأحد - الأوّل - الآخر - الأعلى - الأكرم - الأعلم - أرحم الراحمين - أحكم الحاكمين - أحسن الخالقين - أهل التقوى - أهل المغفرة - الأقرب - الأبقى - أسرع الحاسبين - أسرع مكراً -

ب - البارئ - الباطن - البديع - البر - البصير - الباقي -

ت - التواب - التائب.

ج - الجبار - الجامع -

ح - الحكيم - الحليم - الحي - الحق - الحميد - الحسيب - الحفيظ - الحفي -

خ - الخبير - الخالق - الخلاق - الخير - خير الماكرين - خير الرازقين - خير الفاصلين - خير الحاكمين - خير الفاتحين - خير الغافرين - خير الوارثين - خير الراحمين - خير المنزلين.

ذ - ذو العرش - ذو الطول - ذو الانتقام - ذو الفضل العظيم - ذو الرحمة - ذو القوة - ذو الجلال والإكرام - ذو المعارج - ذو المغفرة.

ر - الرحمان - الرحيم - الرؤوف - الرب - رفيع الدرجات - الرازق - الرقيب - رب الفلق -

س - السميع - السلام - سريع الحساب - سريع العقاب - أسرع الحاسبين - أسرع مكراً -

ش - الشهيد - الشاهد - الشاكر - الشكور - شديد العقاب - شديد المحال - شديد القوى - شديد العذاب -

ص - الصمد -

ظ - الظاهر -

ع - العليم - العزيز - العفو - العلي - العظيم - علام الغيوب - عالم الغيب والشهادة -

غ - الغني - الغفور - الغالب - غافر الذنب - الغفار -

ف - فالق الإصباح - فالق الحب والنوى - الفاطر - الفتاح -

ق - القوي - القدوس - القيوم - القاهر - القهار - القريب - القادر - القدير - قابل التوب - القائم على كلّ نفس بما كسبت -

ك - الكبير - الكريم - الكافي -

ل - اللطيف -

م - الملك - المؤمن - المهيمن - المتكبر - المصور - المجيد - المجيب - المبين - المولى - المحيط - المقيت - المتعال - المحيي - المميت - المتين - المقتدر - المستعان - المبدي - مالك الملك - مالك يوم الدين - =

مأوّلة برجوع الزائدة عليها من عديد القرآن إلى تسعة وتسعين، وكما يروى عن النبي ﷺ وهي في القرآن(١).

وظاهر التعبير في الكتاب والسنة عن ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أنها توقيفية لا يجوز الزيادة فيها ولا النقص عنها، بل وهما من الإلحاد في أسماءه تعالى، كمثل «العلة» «علة العلل» «واجب الوجود» وما أشبه فـ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٢) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾(٣) وأسماء الله تعالى هي توصيفات له سبحانه، إن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه وأنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه والأوهام أن تناله والخطرات أن تحده والأبصار عن الإحاطة به جل عما يصفه الواصفون وتعالى عما ينعته الناعتون»(٤).

ذلك، وكما أن اشتقاق أسماء للخلق من أسماءه الخاصة هو من الإلحاد في أسماءه تعالى، كإلهة من الإله وما أشبه(٥) ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ جهلاً بغير علم، فالذي يلحد في أسماءه بغير علم يشرك وهو

= ن - النصير - خير الناصرين - النور -
و- الوهاب - الواحد - الولي - الوالي - الواسع - الوكيل - الودود - الوفي - المتوفي -
هـ - الهادي - هو -

(١) الدر المنثور ٣: ١٤٨ - أخرج أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا قال رسول الله ﷺ: تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة وهي في القرآن، أقول: وهذه التسعة والتسعون لما تطابق بما ذكرناه من المائة وخمسة وأربعين، نجدها فيها والستة والأربعون هي من المكررات الراجعة إلى التسعة والتسعين، وقد نقل هذا العدد عن النبي ﷺ في بخ - ك ٥٤ ب ١٨، ك ٨٠ ب ٦٨، ك ٩٧ ب ١٢ مس - ك ٤٨ ح ٥ و٦ - تر - ك ٤٥ ب ٨٢ - مج - ك ٣٤ ب ١٠ حم - ثان ص ٢٥٨ و٢٦٧ و٣١٤ و٤٢٧ و٤٩٩ و٥٠٣ و٥١٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٤٠.

(٤) نور الثقلين ٢: ١٠٣ في أصول الكافي عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال:

(٥) وقد حرف المشركون في الجزيرة من أسماء الله الحسنى فسموا بها آلهتهم المدعاة فحرفوا «الله» فسموا به «اللات»، و«العزيز» فسموا به العزى.

لا يعلم ويكفر به، وهو يظن أنه يحسن، ولذلك قال: وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون «فهم الذين يلحدون في أسماءه بغير علم فيضعونها غير مواضعها»(١).

وبرجعة أخرى إلى آية ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ نتنبه بما يلي:

١ - في تقديم «لله» على ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عناية لحصرها فيه سبحانه وتعالى، فليس - إذاً - لغيره أسماء حسنى حيث هم بجنبه فقراء ولا حسن فيهم إلا كيان الفقر والافتقار إليه وكما يروى عن أحسن أسمائه الفعلية أن «الفقر فخري».

فليس لغير الله شيء من هذه الأسماء الحسنى في أيّ من حقولها، ولا أي نصيب منها.

٢ - الأسماء الحسنى لأنها خاصة بالله، فلا تعني الأسماء العامة المستعملة في الله وما سواه، إذا ف «شيء - موجود» وما أشبه وإن استعملت في الله ولكنها ليست من أسماءه الحسنى، وحين تستعمل في الله تجرد عن ميزات ما سوى الله بذلك الاستعمال، وقد يصح كونها من أسماءه الحسنى.

٣ - ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يدلنا انه تعالى لا يدعى إلا بها، فدعوته تعالى بغيرها أم دون اسم منها إلحاد فيها.

٤ - ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ مما يدلنا على توقيفية الأسماء الحسنى حيث ﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ تعني المعهودة وطبعاً هي في الكتاب والسنة، ولو لم تكن توقيفية لما كان للإلحاد في الأسماء اللفظية معنى.

٥ - قضية الدعوة بها أن يعرف من معانيها ما يصح أن يدعى بها، وهنا ركنان ركينان لتلك الدعوة هما معرفة ذل العبودية وعز الربوبية.

---

(١) المصدر عن كتاب التوحيد للصدوق بإسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام: . . .

٦ - ولأن الإلحاد هو الميل عن الحق، إذا فـ ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ هو الميل عن الحق في كلا الأسماء والدعوة بها، إلحادان اثنان هما ركنان للمعني من ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾.

ومن الإلحاد في أسماءه إطلاقها على غير الله كما يطلق على الله، ومنه تسمية تعالى ودعوته بغير هذه الأسماء، ومنه عناية المعاني غير اللائقة بساحته منها، وما أشبه.

ذلك، ومن مجامع الأسماء الحسنى سلبياً وإيجابياً، كتاباً وسنة، محلقة عليها كلها، وشارحة لمعانيها ومغازيها، مبرهنة عليها، موضحة إياها، إن منها الخطبة التوحيدية الجامعة لكل شؤونها ذاتياً وصفاتياً وأفعالياً، للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ما لا تجمعه غيرها من الخطب:

«ما وحده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا حمده من أشار إليه وتوهمه، كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، فاعل لا باضطراب آلة، مقدّر لا بجول فكره، غني لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضادّ النور بالظلمة، والوضوح بالبهمة، والجمود بالبلل، والحرور بالصّرد، مؤلف بين متعادياتها، مقارن بين متبايناتها، مقرب بين متباعداتها، مفرق بين متدانياتها، لا يشمل بحد، ولا يحسب بعدّ، وإنما تحد الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها، منعتها منذ القدمة، وحمتها قد الأزلية، وجنّبتها لو لا التكملة، بها تجلى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون، لا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه، إذا لتفاوتت ذاته، ولتجزّأ

كنهه، ولامتنع من الأزل معناه، ولكان له وراء إذا وجد له أمام، ولا لتمس التمام إذ لزمه النقصان، وإذا لقامت آية المصنوع فيه، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره، الذي لا يحول ولا يزول ولا يجوز عليه الأفول، لم يلد فيكون مولوداً، ولم يولد فيصير محدوداً، جل عن اتخاذ الأبناء، وطهر عن ملامسة النساء، لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتوهمه الفطن فتصوره، ولا تدركه الحواس فتحسه، ولا تلمسه الأيدي فتمسّه، ولا يتغيّر بحال، ولا يتبدل في الأحوال، ولا تبليه الليالي والأيام، ولا تغيره الضياء والظلام، ولا يوصف بشيء من الأجزاء، ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض، ولا بالغيرية والأبعاض، ولا يقال له حد ولا نهاية، ولا انقطاع ولا غاية، ولا أن الأشياء تحويه، فتقله أو تهويه، أو أن شيئاً يحمله فيميله أو يعدله، وليس في الأشياء بوالج، ولا عنها بخارج، يخبر لا بلسان ولهوات، ويسمع لا بخروق وأدوات، يقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحفّظ، ويريد ولا يضمر، يحب ويرضى من غير رقة، ويبغض ويغضب من غير مشقة، يقول لمن أراد كونه كن فيكون، لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً - لا يقال: كان بعد أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات، ولا يكون بينها وبينه فصل، ولا له عليها فضل، فيستوي الصانع والمصنوع، ويتكافأ المبتدع والبديع - خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره، ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه خضعت الأشياء له، وذلت مستكينة لعظمته، لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره، ولا كفء له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه، هو المغني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها، وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشاءها واختراعها، وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها

وبهائمها، وما كان من فراحها وسائمها، وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتلبّدة أممها وأكياسها على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت، وعجزت قواها وتناهت ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقهورة، مقرة بالعجز عن إنشاءها مذعنة بالضعف عن إفناءها - وإن الله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتداءها، كذلك يكون بعد فناءها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات، فلا شيء إلّا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناءها، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاءها، لم يتكأده صنع شيء منها إذ صنعه، ولم يؤده منها خلق ما برأه وخلقه، ولم يكوّنها لتشديد سلطان، ولا لخوف من زوال ونقصان، ولا للاستعانة بها على ندّ مكاثر، ولا للإقرار بها من ضدّ مشاور، ولا للازدياد بها في ملكه، ولا لمكاثرة شريك في شركه، ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها، ثم هو يفنيها بعد تكوينها، لا لسأم دخل عليه في تصريفها، وتدبيرها، ولا لراحة واصلة إليه، ولا لثقل شيء منها عليه، ولا يملّه طول بقاءها فيدعوه إلى سرعة إفناءها، لكنه سبحانه دبّرها بلطفه، وأمسكها بأمره، وأتقنها بقدرته، ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها، ولا استعانة بشيء عليها، ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استئناس، ولا من حال جهل وعمى إلى حال علم والتماس، ولا من فقر وحاجة إلى غنى وكثرة، ولا من ذل وضعة إلى عزّ وقدرة منا ما لا نملك ومن أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى»[١].

---

(١) (الخطبة ٢٢٨)

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾:

هنا ﴿يَهْدُونَ﴾ حالاً واستقبالاً قد تختص بالأمة الإسلامية، كما ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(١) وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون»(٢).

هذا، ومن أهدى هداة الأمة الإسلامية هو علي عليه السلام وكما يروى بطرق عدة أن هذه الأمة «هم علي وشيعته»(٣).

ذلك وقد تهدي الآية بطليق نصها أن ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ تشمل الأمة الهادية العادلة من كل أمة، وهم من هذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ إذ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٤):

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

(٢) الدر المنثور ٣: ١٤٩ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في الآية قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: هذه أمتي وفيه عن قتادة في الآية قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأها: هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وفيه عن الربيع في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل.

(٣) السيوطي في الدر المنثور (٣: ١٤٩) أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة يقول الله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] فهذه التي تنجو من هذه الأمة، والكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٢) بسند قال علي كرم الله وجهه وهم أنا وشيعتي، والقندوزي في ينابيع المودة (١٠٩) عنه عليه السلام: وهم أنا ومحبيّ وأتباعي، وابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (٩٥) عنه: «هم أنا وشيعتي» كما في ملحقات إحقاق الحق ٣: ٤١٣ وفيه ١٤: ٣٤٤ عن البدخشي في مفتاح النجا (٤٢) وأخرج زادان عن علي كرم الله وجهه مثله: «هم أنا وشيعتي» والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٢٠٤ بسند عن ابن عباس في الآية قال: يعني من أمة محمد أمة، يعني علي بن أبي طالب ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩] يعني: يدعون بعدك يا محمد إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] في الخلافة بعدك، ومعنى الأمة العلم في الخير نظيرها: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] يعني علماً في الخير، معلماً للخير.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾[(١)] [(٢)] وعذاب الاستدراج - وهو طلب الدرج في حزب الشيطان خطوة خطوة - إنه أخطر عذاب يوم الدنيا، ومن ظروفه ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ إمهالاً في بوتقة العصيان ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ مكين لا ينجو منه ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أبداً.

وهكذا «إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها»[(٣)].

أجل فـ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[(٤)] ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾[(٥)] ﴿فَلَا

---

(١) سورة القلم، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٢) القول الفصل حول الاستدراج مدرج في تفسير آيته الأخرى في «القلم» فراجع.
نور الثقلين ٢: ١٠٥ في أصول الكافي عن سفيان بن السمط قال قال أبو عبد الله عليه السلام: وهو قول الله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] بالنعم عند المعاصي، وفيه عن سماعة بن مهران قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال: هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب، وعنه عليه السلام مثله بزيادة: هو مستدرج من حيث لا يعلم.

(٣) المصدر عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام: وفيه عن روضة الكافي خطبة طويلة مسندة إلى أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: ثم إنه يأتي عليكم من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أن قال -: يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالساً حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك ومن عهود ملك إلى عهود ملك فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون وان كيده متين بالأمل والرجاء.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.

تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[١].

وهؤلاء المستدرجين من حيث لا يعلمون هم من المعنيين بـ ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[٢].

فـ «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه» و«إنه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً»[٣].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾:

ألم ينظروا إلى عقليته البارعة المنقطعة النظير ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ فقد صاحبهم صاحبهم عمراً من قبله بكلّ رزانة عقل ورحابة صدر ورصانة قدر: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤].

كيف وقد صاحبكم صاحبكم طوال أربعين عاماً أميناً متيناً عاقلاً لحد سميتموه محمد الأمين، فالآن تتهمونه بالجنة لأنه يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر[٥] و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هويته في النذارة الرسالية بعقلية الوحي الصارم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[٦]

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٣) المصدر عن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام والثاني فيه عن نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٦.

(٥) الدر المنثور ٣: ١٤٩ عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قام على الصفا فدعا قريشاً فخذا فخذا من قريش فقال: يا بني فلان يا بني فلان وكان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت حتى أصبح فأنزل الله هذه الآية.

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٧٠.

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾[1].

ذلك لأن الرسالات الربانية تعارض الجاهليات والهمجيات المجنونة، وهذه طبيعة الحال أن المجانين يحسبون من يخالفهم في جنّتهم مجانين وهم أولاء عقلاء! ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾؟ وهكذا يدق عليهم الله دقّاته المتواترة علّهم ينتبهون عن غفلتهم ويستيقظون عن غفوتهم، إيقاظاً لهم بإيعاظ بالغ من تحت الركام الطامّ المسيطر على فطرهم وعقولهم.

ولأن الإنسان بين عاقل ومجنون، وهم صاحبوا المجانين وصاحبوا صاحبهم هذا الذي يقولون إنه لمجنون، فهل رأوا فيه جنّة كسائر المجانين، الخالطين في أقوالهم وأفعالهم، المتناقضين في كل حالاتهم؟

ولم يدّع أحد من هؤلاء أنه رأى فيه ما كان يراه في المجانين، بل ولا أنه رأى وزان ما رآه منه بين سائر العقلاء، إذا فهو فوق العقلاء بعقلية الوحي بعد العقلية الإنسانية الناضجة التي كانوا يعترفون بها فيه في العمر الذي لبث فيهم قبل الرسالة.

وعل «ما» هنا تعني مع النفي - نفياً لجنة - الموصول، فتعني: الذي بصاحبهم من جنة، مجاراة في قولة الجنون، ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ جنته المدّعاة ما هي جنة، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ينذر العقلاء عما يناحر العقل والفطرة الإنسانية فضلاً عن عقلية الوحي، فلو كانت به جنة كما تدعون فما هي مادتها بين مواد الجنة التي هي معروفة عن المجانين؟

ذلك، والقرآن يحث دوماً على التفكير، مادحاً المفكرين، قادحاً غير المفكرين، الذين لا يستعملون عقولهم: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2].

أجل و«تفكرك يفيدك الإستبصار ويكسبك الإعتبار»[3] «والتفكر حياة قلب البصير»[4] و«الفكر مرآة صافية»[5] و«طول الفكر يحمد العواقب ويستدرك فساد الأمور»[6] و«من أسهر كنه فكرته بلغ كنه همته»[7] و«ركعتان خفيفتان في تفكر خير من قيام ليلة»[8] و«لا عبادة كالتفكر في صنعة الله»[9].

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾:

وإذا لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليعرفوا أنه لا إله إلّا هو وأن محمداً ﷺ رسوله.

ذلك، ولأن التعرف إلى العقلية الرسالية له بابان اثنان، ١ - التفكر في قالات الرسول وحالاته وفعالاته وكما عناها رسل المسيح رداً على الناكرين: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[10] حيث وجهوهم إلى التربية

(١) سورة النحل، الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.
(٣) غرر الحكم ١٥٧ عن الإمام علي عليه السلام.
(٤) الكافي ١: ٢٨ الامام الصادق عنه عليه السلام.
(٥) نهج البلاغة ١٠٩٠.
(٦) غرر الحكم ٢٠٨ عنه عليه السلام.
(٧) غرر الحكم ٢٨٨ عنه عليه السلام.
(٨) ثواب الأعمال ٦٨ عن النبي ﷺ.
(٩) أمال الطوسي ١٤٥ / ١ عن الإمام علي عليه السلام.
(١٠) سورة يس، الآية: ١٦.

الرسالية الباهرة فيهم، ثم النظر في ملكوت السماوات والأرض حيث يوصل إلى معرفة الله، وضرورة الرسالة من الله، والرجوع إلى الله، ثم إذا تفكروا في صاحبهم وجدوه رسولاً من الله يحمل تفاصيل هذه الأصول وسائر الفروع.

ومن ثم ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فليتقوا ربهم قبل فجأة الأجل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾: بعد الله إلهاً وبعد محمد ﷺ رسول الإله، وبعد القرآن كتاب الله؟

والدلائل القاصعة قاطعة كل شك وريبة عن ساحة هذه الرسالة التوحيدية.

والحديث يعم الحادث الذات والصفات والأفعال، وحادث الذكر الذي يتحدث عنه، فالقرآن ورسول القرآن حديثان ذاتاً وذكراً، والله تعالى حديث يتحدث عنه في كافة الحقول المعرفية فإيماناً أو نكراناً، فكما أن آيات الله حديث يتحدث عنها في الاستدلال بها على الله، كذلك الله وهو رأس كل حديث: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

ذلك، والملكوت في حقل النظر المعرفي لها درجات أعلاها هي المختصة بالله، وهي الحيطة العلمية الحقيقية: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢) وأدناها هي العامة لكل السالكين إلى الله على درجاتهم فدرجاتها، وهي المأمور بها هنا وفيما أشبه أن ﴿يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فيهما تذرعاً بها إلى معرفة الله كما هنا، وأوسطها هي الخاصة بالرعيل الأعلى من السابقين والمقربين المكرمين كمحمد ﷺ والمحمديين من عترته المعصومين، ثم من دونهم كإبراهيم

(١) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٣.

الخليل في مثل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾(١) حيث تطلّب كيفية الإحياء وهي ملكوت فعل الله، وقد أوتيها قدر ما يمكن لمن سوى الله على قدر المعرفة والكيان الإبراهيميين، وفي قصة رؤية الكوكب والقمر والشمس: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾(٢).

فالخلق كله بمراتبه مجال فاسح للنظر في ملكوته للحصول على معرفة الله بدرجاته، والنظر المأمور به إليه عبارة عن تحديق حدقة العقل والفطرة إليه إبصارا إلى كيانه أزلية أم حدوثاً، ثم من الحدوث إلى المحدث وهو الله تعالى شأنه العزيز(٣).

أجل إن كتابي التكوين والتدوين التشريع هما من كاتب واحد، يدل عليه التجاوب التام بينهما، فكما ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾(٤) كذلك كتاب التدوين ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٥) ثم ولا نجد بين الكتابين أنفسهما اختلافاً لو أننا أجدنا النظر واعتبرنا بالعبر.

إن التوازن المقصود ملحوظ في خلق الرحمن حين نتفكر في ملكوت

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

(٣) للاطلاع الوسع على مراتب الملكوت راجع إلى تفسير آية الأنعام، وفي الدر المنثور ٣: ١٥٠ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: رأيت ليلة أسري بي فلما انتهينا إلى السماء السابعة نظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق قال: وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذه الشياطين يحرجون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب.

(٤) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

(٥) سورة النساء، الآية: ٨٢.

السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرّة، ولو اختل قيد شعرة لفسد الخلق عن بكرته، حيث ننظر بالقلب المفتوح والبصيرة المتفتحة إلى ملكوته.

ذلك، وأما الملحدون المصلحيون الجدد، أصحاب الاشتراكية العلمية، فهم مسوخ مشوّهو الفطر، بل هم ناكروها عند ما يلجئون إلى تقبل أحكامها، فعند ما يصعدون إلى الفضاء وينزلون على القمر فيشهدون مشاهد الكون الرائع أمامهم، ومشهد الكرة الأرضية معلقة في الفضاء هتفت فطرهم ما الذي خلقها وعلّقها في فضاءها، ولكنهم حين هبوطهم إلى الأرض أمام إرهاب الدولة، وإرهاب المصلحيات المادية، يقول أحدهم إنه لم يجد الله هناك، كاتما إلحاح فطرته وإلماع فكرته أمام ظاهرة من ملكوت السماوات والأرض! أجل و:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

وهو لا يضل إلّا من ضل على علم وتجاهل، فإضلاله هو إدلاله فيما هو فيه، ومدّه في ضلاله باستدراج ﴿فَلَا هَادِىَ﴾ له، إذا ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا هو جانب من إضلاله تعالى أنه يكلهم إلى أنفسهم دون مدّ إلى الهدى، وهم ممدودون إلى الردى جزاءً وفاقاً، فإنهم هم الذين أغلقوا أبصارهم وبصائرهم، وعطلوا قلوبهم وعقولهم، فغفلوا عن ملكوت السماوات والأرض وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فيذرهم - إذاً - في طغيانهم يعمهون، وفي غيّهم يترددون.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ

مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾﴾[١] - ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[٢]

﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في هذه الثلاث وفي الأربعين الأخرى هي من أسماء القيامة الكبرى، وأصل الساعة هو الزوال والضياع ويقال لجزء خاص من الزمان «ساعة» لتصرّمه وضياعه فهي - إذاً - حين تضيع الكائنات وتزول عن كينونتها الحالية، فالساعة هي منتهى الحياة الدنيا منذ قيامة الإماتة إلى قيامة الإحياء.

و﴿مُرْسَىٰهَا﴾ هي ثباتها، ثباتاً لذلك الضياع والزوال، وبداية ليوم القيامة إماتة وإحياء[٣].

وكل هذه الآيات الثلاث والأربعون تؤكد على اختصاص علم الساعة بالله، إجابة عن كافة الأسئولة عنها:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ حيث رباني بهذه التربية القمة الرسالية، ولكنه ما علمني إياها لاختصاصها بحضرته تعالى، وليس فقط ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ بل و﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ تجلية الإعلام عند وقوعها، وتجلية التحقيق لها، فلا حظّ لي على محتدي الرسالي العظيم والتربوي العميم من هذه الثلاث، فلا علم لي بها أبداً ولا تجلية لها أبداً.

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ علماً وإعلاماً وتحقيقاً وتحققاً، ثقلاً لا

(١) سورة النازعات، الآيات: ٤٢-٤٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.
(٣) الدر المنثور ٣: ١٥٠ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة وأنا شاهد فقال: لا يعلمها إلا الله ولا يجليها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما بين يديها من الفتن والهرج فقال رجل: وما الهرج يا رسول الله ﷺ قال بلسان الحبشة: القتل وان تجف قلوب الناس ويلقى بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً ويرفع ذو الحجار ويبقى جراحة من الناس لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً.
وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه فلا يلوكها ولا يسيغها ولا يلفظها وعلى رجلين قد نشرا بينهما ثوباً يتبايعانه فلا يطويانه ولا يتبايعانه.

تتحمله السماوات والأرض وحتى من شاء الله ألّا يصعق عندها: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾(١) ومنهم هذا النبي العظيم الذي هو أثقل من السماوات والأرض، فقد ﴿ثَقُلَتْ﴾ الساعة عليه علماً وإعلاماً وتجلية بكل أبعادها، وأما غير ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فهم فانون عند الساعة فكيف يعلمون مرساها؟

ومن ثقل الساعة في السماوات والأرض وطئتها ووقعتها القارعة حيث تنفطران: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٢)، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ مهما جاءت أشراطها، فإن أشراطها تشير إلى قربها دون إشارة إلى مرساها(٣).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وما أنت بحفي عنها ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والحفي من الحفاوة هو الرحمة والحنان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(٤)، وهو العلم، فهو يائيا التنزع في الإلحاح في المطالبة ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾(٥) أو في البحث عن تعرف الحال، وأصله من أحفيت الدابة جعلتها حافياً أي منسجح الحافر والبعير جعلته منسجح الخف من المشي حتى يرق، فما هو المناسب هنا من هذه المعاني؟

﴿عَنْهَا﴾ هنا قد تستثني العلم بها حيث الصحيح - إذاً - حفي بها،

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) نور الثقلين ٢: ١٠٦ عن تفسير القمي في الآية أن قريشاً بعثت العاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث من كلدة وعقبة بن أبي معيط إلى نجران ليتعلموا من علماء اليهود مسائل يسألونها رسول الله ﷺ وكان فيها: سلوا محمداً متى يقوم الساعة فإن ادعى العلم فهو كاذب فإن قيام الساعة لم يطلع الله عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً فلما سألوا رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة أنزل الله تبارك وتعالى: يسألونك عن الساعة.

(٤) سورة مريم، الآية: ٤٧.

(٥) سورة محمد، الآية: ٣٧.

وكذلك الإلحاح حيث الملحّ هو السائل دون المسؤول، اللهم إلّا أن يعني الحفي المفعول يعني أنت ملحّ عنها؟ والإلحاح في السؤال عنها عنه ﷺ أمر واقع مكرور فكيف ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾! اللّهم إلا أن تعني أنك عالم تلحّ في السؤال عنها حتى تعترف بجهلك بها أو تجيبهم بشيء حتى يكذبون[١]، أم حين تسكت يقولون: أنت ضنين بها[٢].

وقد يناسب المقام أن تعني الحفيّ الخفيّ: كأنك خفي عنها بمعنى أن ربك أخفاك عنها وكان له أن يعلمك إياها لأنه ﴿رَبُّكَ﴾ فكيف يضنّ بإعلامك إياها؟! أو كأنك ملح في السؤال عنها ربك فمخبرك إياها إذا كرر عليك السؤال عنها، أو كأنك أخبرت عنها بالحاحك في السؤال عنها أو كأنك حاف عنها راجل عن العلم بهذه المهمة العظمى فكيف - إذاً - أنت رسوله الأعظم ونبيه الأكرم وأنت حاف لا تقدر أن تمشي مشية الرسالة الصالحة حيث تجهل الساعة.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ فإذا لمح ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ إمكانية أن تعلّمها بتلك التربية الطليقة فهنا بصيغة أخرى ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ تقضي على هذه الإمكانية بأسرها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ - ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ فلذلك يحفونك في السؤال عنها كأنك حفي عنها.

فذلك السؤال المكرور الإلحاح الإحفاء كان القصد منه إحراج الرسول ﷺ حتى يعترف بجهله! أم انه بخيل عن الإجابة، أو ربه بخيل عن تعليمه إياها أو يدعى العلم بها فهو إذا كاذب كما سولت لهم اليهود. إزراءً

(١) الدر المنثور ٣: ١٥٠ عن قتادة قال قالت قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة، قال: يسألونك كأنك حفي عنها.

(٢) الدر المنثور ٣: ١٥٠ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال قال حمل ابن أبي قشير وسمول بن زيد لرسول الله ﷺ أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم ما هي، فأنزل الله هذه الآية.

بساحته ومساً من كرامته، فجاء جواب حاسم لا حول عنه ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

فالساعة غيب مغيّب من غيوب الله الخاصة حيث استأثر الله بعلمه، ولكن المشركين يحفون في السؤال عنها بين اختبار الامتحان والامتهان، وسؤال المستعجب المستقرب، وسؤال المستهين المستغرب.

والجواب الحاسم جهله وجهل من في السماوات والأرض بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أجل: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وكيف لا تثقل؟:

«حتى إذا تصرمت الأمور، وتفضت الدهور، وأزف النشور، أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكار الطيور، وأوجرة السباع، ومطارح المهالك، سراعاً إلى أمره مهطعين إلى معاده، رعيلاً صموتاً، قياماً صفوفاً، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، عليهم لبوس الاستطانة، وضرع الاستسلام والذلة، قد ضلت الحيل، وانقطع الأمل، وهوت الأفئدة كاظمة، وخشعت الأصوات مهيمنة، وألجم العرق، وعظم الشفق، وأرعدت الأسماع لزبرة الداعي إلى فصل الخطاب، ومقايضة الجزاء، ونكال العقاب، ونوال الثواب - عباد مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، ومقبوضون احتضاراً، ومضمنون أجداثاً، وكائنون رفاتاً، ومبعوثون أفراداً، ومدينون جزاء، ومميزون حساباً» (٨١) - «حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد السماء وفطرها، وأرج الأرض وأرجفها، وقلع جبالها ونسفها، ودك بعضها بعضاً من هيبة جلالته، ومخوف سطوته، وأخرج من فيها فجددهم بعد إخلاقهم، وجمعهم بعد تفريقهم، ثم ميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال، وخبايا الأفعال، وجعلهم فريقين، أنعم على هؤلاء، وانتقم من هؤلاء» (١٠٧).

وَي «وكأن الصيحة قد أتتكم، والساعة قد غشيتكم، وبرزتم لفصل القضاء، قد زاحت عنكم الأباطيل، واضمحلت عنكم العلل، واستحقت بكم الحقائق، وصدرت بكم الأمور مصادرها...» (١٥٥) -

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

آية صريحة لا حول عنها في أنه ﷺ لا يعلم الغيب كأصل، اللّهم إلّا ما يعلّمه الله تعالى قضية ضرورة الرسالة الربانية: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾(١) (٢).

وهنا ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ هو الغيب المطلق الذي لا يتحوّل شهوداً لمن سوى الله، فما ورد متظافراً «أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة» مطروح أو مأوّل ببعض الغيب، وهو المرتبط بالوحي الرسالي، فحين لا يعلم الرسل غيب الآيات الرسالية التي تجري بذوات أيديهم، فكيف يعلمون سائر الغيب التي ليست لتجري على ألسنتهم وأيديهم كغيب الساعة وما أشبه.

وهنا ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ تعم ملك العلم والقدرة، فـ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تستثني ملك بعض النفع والضر، سواء أكان غيباً أم شهوداً، أو كان مقدوراً عادياً أم سواه، فقد يصدق انه ﷺ - فضلاً عمن سواه - لا يعلم الغيب المطلق مهما علّم مطلق الغيب حيث يستثنيه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ثم ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ تحيل له علم الغيب عن بكرته ذاتياً أم

(١) سورة الجن، الآيات: ٢٦-٢٨.
(٢) راجع تفسير الآية في الفرقان ٢٩: ٢٠١ - ٢٠٦.

تعلماً من الله حيث الاستكثار من الخير لا يختص بذاتية علم الغيب، بل العلم ذاتياً أم عرضياً بالغيب ينتج الاستكثار من الخير وعدم مس السوء حيث الإيجابية العملية وسلبيتها وجاه الخير والشر، هما من خلفيات طليق العلم بالغيب.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(١) - ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾(٢) - ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾(٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٤).

وترى ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ تسلب عنه - وبأحرى ممن سواه - الإختيار في جلب النفع وسلب الضر؟ كلّا لمكان ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حيث تثبت له ملكاً للنفع والضر بمشيئة الله، وهي عبارة أخرى عن الأمر بين أمرين، فنحن لا نملك نفعاً ولا ضراً مستقلين عن إرادة الله، والله لا ينزّل علينا نفعاً ولا ضراً دون عمل ومحاولة منا اللّهم إلا ما لا يحصل بعمل وما أشبه، فقد يشاء الله ما نشاء حسب الصالح من حكمته تعالى وتقدس ف ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٥) وما أشبه دليل واقع المشية منا في خير أو شر، ولكنها مربوطة بإذن الله.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فقد انحصر كياني في هذه السلبية والإيجابية الرساليتين في حقل رسالتي من الله، دون أية ولاية تكوينية أو تشريعية، ولا أي علم لا تقتضيه الرسالة الربانية لزاماً أو رجحاناً.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٠.
(٤) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٥) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

ذلك، وقد يروى عنه ﷺ قوله: «والله ما أدري وأنا رسول ما يفعل بي» نسخة طبق الأصل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(١).

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا
فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا
لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا
لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ
شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ
فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ
ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ
وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ
إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

هذه الآيات هي قبل صحيح التأمل فيها قد تكون متسرّبا لوثنيات مفتريات على أبينا الأول أول المرسلين المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، لحد يختلق عن خاتم المرسلين ﷺ أنه قال: «خدعهما مرتين»(١)

(١) الدر المنثور ٣: ١٥٥ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: ولد لآدم ولد فسماه عبد الله فأتاهما إبليس ما سميتما ابنكما هذا؟ قال: عبد الله، وكان ولد لهما قبل ذلك ولد فسمياه =

يعني الشيطان، فالخدعة الأولى حيث أضلهما في الجنة وجاه الشجرة المنهية، والثانية لما ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ كما هنا!! ذلك رغم أن الله اجتباه بعد ما هبط إلى الأرض، وكيف يقع اجتباءه على من يشرك به وقد علّمه الأسماء كلها؟! أجهلاً بما يشرك، أم اجتباء لمن يشرك! فكيف بالإمكان للذي علّم الأسماء كلها، وقد عرّفه الله الشيطان إذ هما في الجنة، كيف له أن ينخدع مرة أخرى هي أفضح من الأولى أن يسمي بعض أولاده أسماء شركية؟ فهل ضاقت عليه الأسماء بما رحبت فلم يجد لولده اسماً إلّا ما يختاره عدوه المعروف لديه؟

ذلك، وليس في مسرح هذه الآيات ذكر من الشيطان، ولو كان هو المقصود من ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ لكان النص «جعلا له شريكاً» لوحدة هذا الشيطان، ثم ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ كان «من لا يخلق» اعتباراً بأن الشيطان من ذوي العقول.

وبعد ذلك كله فضمائر الجمع التي هي هنا بضع وعشرون وفي أفعال مستقبلة! لا تناسب خصوص أبوينا الأولين، فلو كانا هما المقصودين لكان حق النص التثنية الماضية، لا سيما وأن الحق في اجتثاث جذور الوثنية عن بكرتها منذ بزوغها أن يركز على أول المشركين، فلو كان أبوانا هما اللذان أشركا بالله قبل كل المشركين! لكان الحق تركيز الضمائر في ذلك التنديد المديد عليهما، دون أولادهما اللذين لم يولدوا بعد والذي ولد لمّا يبلغ الحلم حتى يكلّف فيندّد بشركه.

ذلك خلاف ما يروى أنه بعد مرات عدة لم تكن زوجه موفقة حيث

= عبد الله فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عند كما والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمّياه عبد شمس فسمّياه فذلك قوله تعالى: أيشركون ما لا يخلق شيئاً الشمس لا تخلق شيئاً إنما هي مخلوقة، قال وقال رسول الله ﷺ: خدعهما مرتين.

ولدت ناقصاً لا يعيش[(١)]! فإنها من الإسرائيليات المسيحية والمسيحيات الإسرائيلية التي تلقي كل عصيان على آدم وزوجه، وهنا «مرت به» أي الحمل، هو المرور كعادة بلا ثقل حيث لا تحس ذلك الحمل.

فالعلاقة الأولية بين الزوج ومسكنه هي التغشي حباً وشهوة وإنجاباً للمماثل، والتغشي هو أحسن تعبير عن ذلك اللقاء اللقاح حيث يغشى كيانها ككل فتحشر فيه بكلها روحاً وجسماً، فهو التقاء روحين بجسدين وجسدين بروحين، كما الزواج هو الالتقاء المثنّى وأهمها الروح إذ هو الذي يدرك المسكن، وهذه صورة إنسانية في تلك المباشرة بعيدة عن الحيوانية الخالصة الكالسة الفالسة، قريبة إلى الإنسانية الصالحة، إنجابا لصالح.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ بحملها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الذي رباهما وحملها ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ يصلح للحياة الإنسانية ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ المخلصين لك الدين.

فقد تبين الحمل وتعلقت به قلوبهما وجاء دور الأطماع فيه، المختصرة في صيغة (صالحاً) وهو الصلاح الظاهر عند الولادة لمكان ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ حيث الصلاح الظاهر عند الولادة ليس إلا الظاهر في الحياة الإنسانية، دون الباطن الذي لا يظهر إلّا عند بلوغ الحلم، لا سيما وأن الطبيعة الإنسانية المائلة إلى الإشراك لا تنحو نحو صلاح الباطن.

فهذه قصة واقعية عامة بين بني الإنسان تصويراً لمدارج الانحراف في النفس الإنساني من معارج الفطرة التي فطرهم الله عليها:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ يعيش عيشة صالحة ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهنا ﴿شُرَكَآءَ﴾ دون «شريك» لا ينطبق على الشيطان،

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٥١ عن سمرة عن النبي ﷺ قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره.

كما أن ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ جمعاً لا ينطبق عليهما، إذا فهما كل أبوين من هذا النسل، أنهما عند اثقالها يدعوان الله ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ولكنهما ينسيان صالح ما آتاهما الله إلى طالح الإشراك به حيث ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ إذ يخيل إليهما أن لغير الله مدخلاً في صالح الولد.

وهذه طبيعة الإنسان الغفلان النسيان إلّا من هداه الله ووقاه، تخلفا عما فطره الله عليه كما ويكرر قصّ ذلك التخلف في القرآن بصورة عدة:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(١) - ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾(٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾(٣).

وهكذا ينقطع الإنسان فطرياً إلى ربه حين تنقطع الأسباب التي كان يعيشها، فلما كشف عنه ضره رجع إلى نفس الأسباب معتبراً إياها كأنها الكاشفة له ضره، فقد يمرض مرضاً هالكاً فلا ينفعه أي طبيب ولا دواء، فلمّا يعافى ينسب عافيته إلى كل شيء إلّا الله! هذا، والقول إن ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ وما أشبه جمعاً لا ينافي تثنية الأبوين، فإن دأب القرآن الدائب هو التعميم بعد التخصيص إعطاء للضابطة، مردود بظاهر الجمع الراجع إلى صاحبي القصة، إلّا إذا دلت قرينة كما فيما تقولون، ولو كانت هنا قرينة كسائر الموارد فـ ﴿نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ - لأقل تقدير - لا تعني - فقط - آدم عليه السلام مهما كان محتملاً، ولكن

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الروم، الآيتان: ٣٣، ٣٤.

الاحتمال ليس بناء الاستدلال، ففرية الإشراك على أبوينا الأولين لا سناد لها هنا، والأسناد القرآنية الأخرى تترى على أنهما كانا موحدين، مهما عصيا في الجنة: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾(١) وكيف يقع اجتباء الله على من يشرك بالله فيما يعلم منه و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(٢) ولا يلمح القرآن بعد عصيان آدم في الجنة أية لمحة لتخلف منه صغير طيلة حياته وهو رسول، فضلاً عن هكذا الإشراك بالله، وعوذاً بالله من هذه المختلقات الزور الغرور التي يزوّرها لأهليها الغرور، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إشراكاً به في صالح ما آتاهم من ولد؟ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؟

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وهنا الخطاب الجمع برهان آخر مع عساكر البراهين الأخرى أن التنديد غير وارد على أبوينا الأولين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أنتم المشركون على مدار الزمن ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ فهؤلاء الذين تدعونهم من دون الله من حي وميت هم في ضلال لا يهتدون فكيف يتخذون شركاء لله ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٣)!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أياً كانوا وحتى الملائكة والنبيين هم ﴿عِبَادٌ﴾ لله ﴿أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهم ليسوا أمثالكم بل هم آلهة كما الله.

﴿أَلَهُمْ﴾ أولاء الأموات منهم الذين تعبدونهم ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٥.

شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ وحتى الذين لهم أرجل وأيد طائلة وأعين مبصرة وآذان سامعة، لا يستطيعون نصركم بل ولا أنفسهم ينصرون.

ذلك، فاحتمال أن النفس الواحدة هنا أبو البشر، فضلاً عن ظهور الآية أو صراحتها فيه كما الخصم يدعيه لا يأتي بشيء ينال من كرامة آدم عليه السلام إلّا باحتمالات أخرى لو ثبت:

الأول: رجوع ضمير الغائب في ﴿لِيَسْكُنَ﴾ و﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ إلى خصوص النفس الواحدة هذه، وهو خلاف الأدب الفصيح والصحيح أن يرجع الضمير المذكر إلى مرجع مؤنث هو ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فالصحيح هنا لو عنيت نفس النفس الواحدة ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ و﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ بضميري التأنيث كما في ضميري ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حيث هما راجعان إلى ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وفقاً لتأنيثها، إذا فلا تعني «ليسكن وتغشى» إلّا جنس النفس الواحدة من ذكور بني الإنسان دون شخصها، وليس من المحتمل رجوع ضمير المذكر هنا إلى ﴿زَوْجَهَا﴾ لأنوثتها الحقيقية، ولأن الزوج هو الذي يسكن إلى زوجته من الأتعاب كما ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾[1].

الثاني: أن تعني ﴿شُرَكَآءَ﴾ شخص إبليس حسب الرواية المختلقة، والجمع لا يناسبه، فهم - إذاً - الشركاء المعبودون لجنس بني الإنسان.

الثالث: رجوع ضمير الجمع في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ وما أشبه من بضع وعشرين إلى خصوص آدم وزوجه والفصيح الصحيح رجوعه إلى الجمع دون المثنى، إضافة إلى استقبال تلكم الجموع، والمثنى ماض فقد رجع الضمير المفرد الغائب في «ليسكن وتغشاها» إلى نوع مرجعه وهو كل ذكر من ذلك النوع لا شخصه، استخداما لطيفاً في ذلك الإرجاع.

وهكذا ترجع ضمائر الجمع أيضاً من ﴿يُشْرِكُونَ﴾ وما أشبه إلى جمع

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

الأزواج من نوع الإنسان، أي يشركون هؤلاء الأزواج، استخداماً لطيفاً حيث هو من المجازات الحسنة اللطيفة.

ثم من قال لكم - بعد - إن ﴿نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هنا هي شخص آدم إلّا على وجه أن «من» في ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ نشوية لا جنسية، والجنسية هي المعنية هنا للذكورة في «ليسكن وتغشاها» والجمعية في بضع وعشرين، فلا تدل الآية على ما تستدل به الجمعية المرسلون الأمريكيون إلّا على احتمال اختصاص ﴿نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ بآدم، ورجوع ضمير الذكورة إلى مؤنث ﴿نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ورجوع ضمائر الجمع هنا إلى مثناهما رغم استقبال افعالها، ثالوث من الاحتمالات التي لا تحتملها هذه الآيات، اللّهم إلا أولاها دون الأخريين.

ذلك، فالقصة كما ترى تتحدث عن سيرة عامة لأفراد هذا النوع إلّا من رحمه الله وهداه، أنهم مهتمون بنقض مواثيقهم وخلف مواعيدهم مع الله نقضاً لنداء الفطرة والعقلية السليمة: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والذي غفل عنه كلا الناقدين، والموجهين لآلية بوجوه غير وجيهة ولا مرضية، هو تحسّب أن هذه الآيات عرض عن الحالة الوالدية لأبوينا الأولين، وهي بعيدة عنها كل البعد.

ذلك لأن ﴿خَلَقَكُم﴾ تعم كل بني الإنسان، و﴿نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هنا هي الوالد لكل مولود منهم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قد تعني والحال انه تعالى جعل من جنسها زوجها فخلقكم منهما اعتباراً بأصالة زائدة بين الأصلين للزوج الوالد على الزوجة الوالدة، «جعل ليسكن إليها»: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1] فالأصل في التقاء الزوجين هو السكن ليظل السكون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب: فليس لمجرد اللذة، إلا ذريعة تجذبهما إلى هذه العشرة

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

العشيرة على أتعابها وأسغابها، فاللذة العابرة والنزوة العارضة هما اللتان تتغلبان على كل الحوادث والكوارث في ذلك الالتقاء.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّنهَا﴾ جماعاً ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ هو النطفة الجرثومية «فمرت به» وذلك هو الحمل الأول فهي تبين حال الأبوين من النوع الإنساني في انجابهما أولادهما باعتبار العام النوعي دون اختصاص بالأولين، ولا جمع خاص من الأبوين، ولا شمولهما للأولين، حيث تعني أن كل إنسان وليد أبويه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾(١).

والغالب على حال الأبوين - وهما محبان مشفقان شغفان على ولدهما - أن ينقطعا في أمرهم إلى الله قبل ولادهم، دون التفات إلى تفصيل ذلك الانقطاع، وكما ينقطع راكب البحر - إذا التطمت أمواجه وأخذت تلعب به - إلى الله، فالإنسان في هذه الحالة المضطربة ينقطع في لب ذاته إلى ربه وإن لم يكن موحداً ولا معترفاً بأصل الألوهة، ولكنه ينسى ربه أو يتناساه بعد ما نجى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢).

كذلك للأبوين - نوعياً - انقطاع إلى ربهما في أمر الأولاد، يريدان صلاح الولادة ويشترطان بطبيعة الحال أن يكونا له شاكرين، فلما أجيبت دعوتهما إذا هما يشركان بالله وينثلان ما عاهدا عليه الله، وهذه حالة النوع الإنساني إلّا من عصمه الله كآدم وسائر المعصومين والصالحين الموحدين على طول الخط.

إذاً ففرية الشرك على أبوينا الأولين مبنية على فرية أخرى هي الخلط وعدم التناسب بين هذه الضمائر ومراجعها، وهل ترى عاقلاً منصفاً يزيف

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

المعني من مقالة صادقة لا لشيء إلا الخبط والخلط في لفظية التفسير، كاعتبار المؤنث مذكراً في حالة ومؤنثا في أخرى، واعتبار التثنية جمعاً أو الجمع تثنية والشريك الواحد شركاء والشركاء واحداً! وهكذا ﴿إِنَّ وَلِيِّـىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ نزل الكتاب هدى للصالحين وهو بنفسه دون شركاء يتولى الصالحين ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أياً كانوا «لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ. وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا» هؤلاء المشركون، كمثل شركائهم ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كـ كرسول تدعو إلى الهدى، إنما يبصرون شركاءهم فهم عليها عاكفون.

فهذه الآيات - بالرغم من روايات شيطانية[1] وتخيّلات واهية - لا تدل - ولا لمحة - على ما يمس من الكرامة التوحيدية لأبوينا الأولين.

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٠٨ في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن محمد بن النعمان الأحول عن بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما علقت حوا من آدم عليه السلام وتحرك ولدها في بطنها فقالت لآدم: إن في بطني شيئاً يتحرك فقال لها آدم: أبشري إن الذي في بطنك نطفة مني استقرت في رحمك يخلق الله منها خلقاً ليبلونا فيه فأتاها إبليس فقال لها: كيف أنتم؟ فقالت له: أما إني قد علقت وفي بطني من آدم ولد يتحرك، فقال لها إبليس: إما إنك إن نويت أن تسميه عبد الحارث ولدتيه غلاماً وبقي وعاش، وإن لم تنوي أن تسميه عبد الحارث مات بعدما تلدينه بستة أيام، فوقع في نفسها مما قال لها شيء فأخبرت بما قال لها آدم فقال لها آدم: قد جاءك الخبيث لا تقبلي منه فإني أرجو أن يبقى لنا ويكون خلاف ما قال لك ووقع في نفس آدم مثل ما وقع في نفس حوا من مقالة الخبيث، فلما وضعته لم يعش إلا ستة أيام حتى مات فقالت لآدم قد جاءك الذي قال لنا الحارث فيه، ودخلهما من قول الخبيث ما شككهما فلم تلبث أن علقت من آدم حملاً آخر فأتاها إبليس فقال لها: كيف أنتم؟ فقالت له: قد ولدت غلاماً ولكنه مات يوم السادس، فقال لها الخبيث: أما إنك لو كنت نويت أن تسميه عبد الحارث لعاش، وان ما هو الذي في بطنك كبعض ما في بطون هذه الأنعام التي بحضرتكم، إما بقرة وإما ناقة وإما ضأن وإما معز، فدخلها من قول الخبيث ما استمالها إلى تصديقه والركون إلى ما أخبرها الذي كان تقدم إليها في الحمل الأول، فأخبرت بمقالته لآدم فوقع في قلبه من قول الخبيث مثل ما وقع في قلب حوا ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠] أي لم تلد ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزاً فأتاها الخبيث فقال لها: كيف أنتم؟ فقالت له: قد أثقلت وقربت =

فـ ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ كما تحتمل آدم عليه السلام حيث خلق منه الجميع برمتهم، كذلك تحتمل كل والد من هذا النوع حيث خلق منهم المجموع، كل من كلّ على الأبدال، وتحتملهما - أيضاً - معاً، أن خلق المجموع من نفس واحدة كما خلق الجميع من نفس واحدة، مهما اختلف خلق عن خلق، في تسلسل الانتشاء كما من آدم، أم فرديته كما من كل ذكر لهذا النوع.

ثم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ كما تحتمل أمّنا الأولى أن جعلت من أبينا خلقاً منه، ثم جعلت له زوجاً، كذلك تحتمل كافة الأمهات حيث جعلت في الخلق كالآباء في المجانسة الإنسانية المؤاتية للزواج، وجعلت في التشريع محلّلة لذلك التزاوج.

= ولادتي، فقال: أما إنك ستلدين وترين من الذي في بطنك ما تكرهين، ويدخل آدم منك ومن ولدك شيء لو قد ولدتيه ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزاً لكان أحسن، فاستمالها إلى طاعته والقبول لقوله، ثم قال لها: اعلمي إن أنت نويت أن تسميه عبد الحارث وجعلت لي فيه نصيباً ولدتيه غلاماً سوياً وعاش وبقي لكم، فقالت: فإني قد نويت أن أجعل لك فيه نصيباً، فقال لها الخبيث: لا تدعين آدم حتى ينوي مثل ما نويت ويجعل لي فيه نصيباً ويسميه عبد الحارث، فقالت له: نعم، فأقبلت على آدم فأخبرته بمقالة الحارث وبما قال لها فوقع في قلب آدم من مقالة إبليس ما خافه فركن إلى مقاتلة إبليس وقالت حوا لآدم لئن أنت لم تنو أن تسميه عبد الحارث وتجعل للحارث فيه نصيباً لم أدعك تقرني ولا تغشاني ولم يكن بيني وبينك مودة، فلما سمع منها آدم قال لها: أما إنك سبب المعصية الأولى وسيدليك الغرور، قد تابعتك وأجبت إلى أن أجعل للحارث فيه نصيباً وأن أسميه عبد الحارث، فأسرّ النية بينهما بذلك فلما وضعته سوياً فرحاً بذلك وأمنا ما كانا خافا من أن يكون ناقة أو بقرة أو ضأنا أو معزاً وابلا أن يعيش لهما ويبقى ولا يموت يوم السادس، فلما كان يوم السابع سمياه عبد الحارث.

أقول: هذه من الروايات الشيطانية التي اختلقها عباد الحارث ونسبوها إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام، وعوذاً بالله من هذه الهرطقات الزور والغرور التي دسها في أحاديثنا الغرور، نعوذ بالله منه ومن أتباعه.

ذلك، وقد افترى مثلها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الدر المنثور ٣: ١٥١ عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. أقول: بل نفس الرواية هي من وحي الشيطان.!

فـ «من» في الأول نشوية حيث انتشأت الأم الأولى من الأب الأول، والجعل يعم التكوين والتشريع، وهي في الثانية جنسية والجعل نفس الجعل حيث يعمهما.

ثم ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الحاملة ضمير المذكر - كما في - تغشاها - لا تعني تغشية خاصة بأبوينا الأولين، حيث المرجع وهو ﴿نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ تستحق أنوثة الراجع إليه قضية الأدب الصحيح أو الفصيح، ولكيلا يشتبه أمر العناية من ذلك التغشي بما بعده من ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾.

ومن ثم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ﴾ تحمل الحمل الأوّل لأقل تقدير، فلا تحمل على الحمل غير الأول كما حملتها روايات شيطانية تشيطن أبوينا في حقل الحمل! ثم ﴿يُشْرِكُونَ﴾ وما بعدها من الجموع المستقبلة لمن يشركون، تدل بجمعيتها واستقبالها أنها ليست لتعني أبوينا الأولين، لأنهما اثنان ماضيان دون جمع مستقبل.

كما و﴿شُرَكَاءَ﴾ وما بعدها من الجموع لا تناسب شخص الشيطان المضلل إياهما في هذه الرواية الشيطانية.

فسواء أكانت «نفس واحدة وزوجها» هما خصوص أبوينا الأولين، أم وبأحرى كل الآباء والأمهات، أم المجموع من الأولين وسائر الآباء والأمهات، فـ «ليسكن - تغشاها» وما تتلوها من عرض لما استعرض، لا تناسب إلّا نسل الإنسان ككلّ وبطبيعة الحال، إلا من رحم الله.

فذلك - إذاً - عرض للحالة التي عليها الأكثرية الساحقة من هذا النوع[1]، وكما ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

(١) نور الثقلين ٢: ١٠٧ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عن علي بن محمد الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى =

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[١] فإنها وما أشبه تقرر الأصل الأكثري بطبيعة الحال لقبيل الإنسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٢] «وإلا».

فلا تعني الآية أبوينا الأولين بلا كرامة حتى في إشراك طاعة[٣] فضلاً عن إشراك عبادة.

فليست هذه الآيات الكريمة لتمس من كرامة أبوينا الأوّلين إلّا بتأويلات عليلة مختلقة لا تناسب أدب اللفظ ولا حدب المعنى لهذه الآيات.

= قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]؟ قال: إن حوا ولدت لآدم خمسمائة بطن في كلّ بطن ذكر وأنثى وإن آدم وحوا عاهدا الله تعالى ودعواه وقالا: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين.

فلما آتاهما صالحاً من النسل خلقاً سوياً بريئاً من الزمانة والعاهة كان ما آتاهما صنفين: صنفا ذكراناً وصنفا إناثاً فجعل الصنفان لله تعالى ذكره شركاء في ما آتاهما «ولم يشكرا» كشكر أبويهما له عَزَّوَجَلَّ ، قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] فقال المأمون: «أشهد أنك ابن رسول الله حقاً» وفي الدر المنثور ٣: ١٥٢ عن ابن عباس قال: «ما أشرك آدم، إن أولها شكر وآخرها مثل ضربه لمن بعده». وفيه عن السدي في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] هذه فصل بين آية آدم، «خاصة في آلهة العرب» وفيه عن أبي مالك في الآية قال: هذه مفصولة أطاعاه في الولد ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] هذه لقوم محمد «وقال الحسن: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا، وعنه أيضاً قال: يعني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، وقال: هذا في الكفار يدعون الله فإذا آتاهما صالحاً هوداً ونصراً».

(١) سورة المعارج، الآية: ١٩.

(٢) سورة العصر، الآية: ٣.

(٣) المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآية قال: هو آدم وحواء وإنما كان شركهما شرك طاعة ولم يكن شرك عبادة فأنزل الله على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ - إلى قوله - فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] قال: جعلا للحارث نصيباً في خلق الله ولم يكن شركاء إبليس في عباده، ثم قال: أيشركون مالاً يخلق شيئاً وهم يخلقون.

وليس إقحام أمثال هذه المختلقات الزور التي دسها الغرور في رواياتنا إلا من شيطنات الشياطين، عمداً وعلماً وعناداً من الذين يعلمون، وجهالة وحماقة من بسطاء المسلمين مؤلفين وسواهم.

فحذار حذار من تنقل هذه الروايات الشيطانية، التي تبزر آيات من القرآن كأنها آيات شيطانية، اللّهم إلا تزييفاً لها حين تنقل[1].

(١) ومن جراء هذه الروايات الشيطانية تؤلف كتابات شيطانية تسمي القرآن «آيات شيطانية» تناصراً من شيطانين اثنين في هذا البين، شيطان العناد والتزييف لساحة القرآن العظيم من ملحدين، وشيطان الحماقة ممن يتسمون مسلمين والله منهما براء على سواء، إن لم تكن الشيطنة الثانية أشطن حيث تفسح مجالات لهذه الشيطنات، وتخيّل إلى بسطاء المسلمين كأنها صادرة عن مصدر الوحي المعصوم!

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)
وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ
قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن
رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ
تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ
ٱلْغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ
وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾

﴿خُذِ﴾ هنا لا تختص برسول الهدى ولا سيما ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وهو معصوم عن نزغ الشيطان فإنه من أفضل المخلصين وقد ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾(١) ونزغ الشيطان إغواء تسمو عنه ساحة الرسالة القدسية.

إذاً فـ ﴿خُذِ﴾ هي لأقل تقدير تعم كافة المكلفين، ثم يستثنى الرسول ﷺ عن نزغ الشيطان.

وترى ما هو ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ الذي يؤمر هنا بأخذه؟ أهو - فقط - العفو عمن

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

ظلمك؟ وصيغته الخاصة: أعف عمن ظلمك، ولأن العفو تستعمل بمختلف المتعلّقات أم دون متعلّق، وهي هنا طليقة عن أي تعلق، فالقصد منها هنا كل معانيها المناسبة للأخذ: فـ «عفاه» تعني قصده متناولاً ما عنده، وعفت الريح الدار قصدتها متناولة آثارها، وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه، والعفو هو الزيادة كما في ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1] أي الزائد عن الحاجة، ومن العفو الوسط، إذا فـ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قد تعم أخذ العفو من الأموال، فـ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[2] قد تقيدها بالزكوات المفروضة المقررة بأنصبتها كضريبة مستقيمة، ولكن ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تعني أخذ الزائد عن الحاجة من الأموال وهو ضريبة غير مستقيمة، كما وتعني أخذ هذه الطريقة لنفسه أن ينفق الزائد من ماله للمحاويج.

ثم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ عن الناس، أن تعفو عمن ظلمك[3] والعفو في الأمور هو الوسط فيها دون إفراط ولا تفريط. وكما يروى عن النبي ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية: أمرت أن آخذ العفو من أخلاق الناس[4] إذ قد تعني بين الإفراط والتفريط.

ثم ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قد تعني نفس الأمر عرفاً كما الأمر بالعرف، فليكن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٣) الدر المنثور ٣: ١٥٥، أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق وهب بن جرير عن أبيه قال: كنت جالساً عند الحسن إذ جاء رجل فقال: يا أبا سعيد ما تقول في العبد يذنب الذنب ثم يتوب؟ قال: لم يزدد بتوبته من الله إلا دنواً، قال: ثم عاد في ذنبه ثم تاب؟ قال: لم يزدد بتوبته إلا شرفاً عند الله، قال ثم قال لي: ألم تسمع ما قال رسول الله ﷺ؟ قلت: وما قال؟ قال:

(٤) المصدر - أخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن إبراهيم بن أدهم قال: لما أنزل الله وفي نور الثقلين ٢: ١١١ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام ان الله أدب رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين» قال: خذ منهم ما ظهر وما تيسر والعفو الوسط.

الأمر عرفاً دون نكر، عرفاً في مادة الأمر وكيفيته، وعرفاً من الآمر أن يكون هو نفسه مؤتمراً به ثم ليكن أمراً بالعرف، فالباء في الأولى للمصاحبة وفي الثانية للتعدية وهما معاً معنيّان.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ إعراضاً عن ملاحقتهم لجهلهم القاحل، وإعراضاً عن مصاحبتهم للجهل المتجاهل العارف، وإعراضاً عن إتباعهم مسايرة جهلهم، فالجهل في مثلث التعامل تتركز عليه نقطة الإعراض، إبرازاً للمفاصلة بين غير الجاهلين والجاهلين، ونهياً جاهراً عن منكر الجهل الجهالة.

وهنا الأخذ بالعفو الإغماض هو كأصل ما لم يعارض ملابسات تفرض عدم العفو، كأن يعفى عن الظالم الذي يزداده العفو عتوا على المظلوم ونفورا عن العدل، سواء كان المظلوم هو العافي فهو ظالم مرتين، أم المطّلع على ظلم أخيه فهو ظالم مرة.

كما وأن الإعراض عن الجاهلين لا تعنى - فيما تعنيه - الإعراض عن تعليم وتأديب الجهال الذين هم في تحرّي العلم والمعرفة، أم هم غافلون عن جهلهم أو واجب تعلمهم، فعلى العالم أن يظهر علمه اللّهم إلّا فيما يهدر أو يهدّر فإنه - إذاً - ظلم بالعلم ورعيله.

ومن الترتيب التربوي بين هذه الثلاثة أن الأصل الأوّل هو الأخذ بالعفو مالاً وحالاً وأعمالاً في نفسك وذويك وسائر الناس، ومن العفو في الدعوة هو الوسط بين الإفراط والتفريط، فإذا تخلف متخلف بعد بلوغ الحجة فـ ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ ثم إذا جهل جاهل إصراراً على جهله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وهكذا يصدق المروي عن الإمام الصادق عليه السلام انه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية(١).

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٥٤ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي عليه السلام قال قال رسول =

فهنا في ختام السورة يؤمر صاحب الدعوة بمن معه - وهم بعد في مكة - أن يواجهوا تلك الجاهلية العريقة الحميقة بكل سماحة ويسر، أخذاً بالعفو الميسّر ورفضا لكل معسّر إلّا إذا لزم الأمر كما في حقل النهي والأمر، تغاضيا عما يقبل في عشرة الناس، دونما تنازل عما قرره الله من شرعته حيث لا تقبل التنازل كما ليس فيها تعاضل.

فالأعضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه، والسماح معه، كل ذلك واجب الداعية، فالتعامل مع مختلف النفوس البشرية بغية هداها يقتضي رحابة صدر وسماحة طبع، في غير تهاون ولا تفريط في شرعة الله.

ثم الأمر بالعرف هو عرف ذلك الأمر في شرعة الله، والعرف المأمور به هو المعروف لدى الفطرة والعقلية الإنسانية والشرعة الربانية، معروفاً لا ينكر ولا يتنكر، وهذه هي الخطوة الأولى في حقل الأمر، ومن ثم خطوات أخرى إلى أعراف أخرى تلحقها.

ثم الإعراض عن الجاهلين في حقلي الأخذ بالعفو والأمر بالعرف، ومن الإعراض عنهم هو الإعراض عن عفوهم إلى مجازاتهم، والإعراض عن أمرهم إلى إلزامهم.

ذلك، وتعريفاً بالجاهلية عن لسان النبي ﷺ: «الناس معادن، خيارهم

= الله ﷺ: ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟ قلت يا رسول الله ﷺ نعم قال: تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك، أقول وقد تظافرت الروايات عنه ﷺ أنه قال مقالته تلك بعد نزول هذه الآية وبمناسبتها.

وفي نور الثقلين ٢: ١١١ في عيون الأخبار بإسناده إلى الحارث بن الولهاث مولى الرضا عليه السلام قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال سنة من ربه وسنة من نبيه وسنة من وليه - إلى قوله: وأما السنة من نبيه فمداراة الناس فإن الله أمر نبيه بمداراة الناس فقال: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين.

في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[(١)] و«كل دم ومال كان في الجاهلية تحت قدمي هاتين»[(٢)] و«كل رباً في الجاهلية موضوع»[(٣)] و«كل دين في الجاهلية موضوع»[(٤)] و«دعوى الجاهلية حرام»[(٥)].

وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحياناً وتستقيم أحياناً وفي ذلك تكبر فإذا صدها صاحبها حمد أمره كما حمد صاحب السنبلة بره ثم قرء هذه الآية[(٦)].

فاحذروا أيها الناس من الذنوب والمعاصي ما قد نهاكم الله عنها وحذركموها في كتابه الصادق بالبيان الناطق فلا تأمنوا مكر الله وتحذيره عند ما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات واللذات في هذه الدنيا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ فأشعروا قلوبكم خوف الله وتذكروا ما قد وعدكم الله في مرجعكم إليه من حسن ثوابه كما قد خوفكم من شديد العقاب[(٧)]

---

(١) مفتاح كنوز السنة عن بخ - ك ٦١ ب ١، مس - ك ٤٣ ح ١٦٨، ك ٤٤ ح ١٤٩ مى - المقدمة ب ٢٣، حم - ثان ص ٦٥٧ و٢٦٠ و٣٩١ و٤٣١ و٤٣٨ و٣ ٤٨٥ و٤٩٨ و٥٢٤ و٥٣٩، ثالث ص ٣٦٧ و٣٨٣، رابع ص ١٠١ ط - ح ٢٤٧٦ قا، قد - ص ٤٢٤.

(٢) المصدر عن بد - ك ٣٨ ب ١٧ و٢٤، تر - ك ٤٤ سورة ٩ ح ٢، مج - ك ٢١ ب ٥ حم - ثان ص ١١ و١٠٣ و١٨٧ و١٨٧ و٢٠٧، رابع ص ٣٢، خامس ص ٧٢ و٤١١، ط - خ ٢٢٧ هش - ص ٦٩٨، قد - ص ٣٣٨.

(٣) المصدر عن بد - ك ٢٢ ب ٥، مى - ك ١٨ ب ٣.

(٤) المصدر عن حم - ثان ص ١٠٣.

(٥) المصدر عن بخ - ك ٢٣ ب ٣٦ و٣٩ و٤٠، ك ٦١ ب ٨، ك ٦٥ سورة ٦٣ ب ٥، حم - ثالث ص ٣٣٨ و٣٨٥ و٣٩٢، رابع ص ١٣٠ و٢٠٢، خامس ص ٣٤٤، ط - ح ١١٦٢.

(٦) الدر المنثور ٣: ١٥٤ - أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزلت ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [الأعرَاف: ١٩٩] قال رسول الله ﷺ: وفيه عن ابن مسعود عنه ﷺ أنه كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفثه ونفخه.

(٧) نور الثقلين ٢: ١١٢ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليه السلام في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه: وفيه عن الخصال عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: ثلاثة من أشد ما=

ذلك! ومن الجاهلين الماحلين الذين يحسبونهم عارفين فالحين من يصفهم الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في عظة له: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجئ التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم ما يكره الموت له، إن سقم ظل نادماً، وإن صح امن لاهيا، يعجب بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا أبتلي، إن أصابه بلاء دعى مضطراً، وان ناله رجاء أعرض مغترّاً، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله، إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط ووهن، يقصّر إذا عمل، ويبالغ إذا سأل، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية، وسوّف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة، يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ، فهو بالقول مدلّ، ومن العمل مقلّ، ينافس فيما يفنى، ويسامح فيما يبقى، يرى الغنم مغرماً والغرم مغنماً، يخشى الموت ولا يبادر الفوت، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، ولنفسه مداهن، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقهاء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره، ويرشد غيره ويغوي نفسه،

= عمل: إنصاف المؤمن نفسه ومواساة المؤاخاة وذكر الله على كلّ حال وهو أن يذكر الله عند المعصية وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٢٠١]: وفيه عن الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠١] قال: هو العبد يهم بالذنب ثم يتذكر فيمسك فلذلك قوله: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فهو يطاع ويعصي، ويستوفي ولا يوفي، ويخشى الخلق في غير ربه، ولا يخشى ربه في خلقه[١].

وهنا يقول رسول الهدى ﷺ: «كيف يا رب والغضب»؟ غضبي عليهم لعنادهم وغضبهم علي حيث أدعوهم وآمرهم وأنهاهم خلاف أهواءهم، فيجاب:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾:

النزغ هو دخول في أمر لإفساده، وهكذا يتدخل الشيطان في صالح أمورنا لإفسادها، ومنه تدخّله في هذه المكارم الأخلاقية والعلاج بعد كلّ القدرات المقاومة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾ ليعيذك من نزغ الشيطان، ولا بد فيها من قال مع حال وأعمال لمكان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو ﴿سَمِيعٌ﴾ لقالات المستعيذين، ﴿عَلِيمٌ﴾ حالاتهم وفعالاتهم المستعيذة، كما هو ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قالات وفعالات المتخلفين عن شرعة الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾:

مسّ طائف من الشيطان يعمي على الممسوس طريقه، فإذا تذكروا فإذا هم مبصرون والمس هنا مس للصدر فالقلب وما قبلهما من الفطرة والعقلية وما بعدهما من اللب والفؤاد حيث الشياطين يطوفون على كل مواضع اليقظة تعمية لها، إلّا ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢] استعاذة وسواها[٣].

---

(١) (الحكمة ١٤٣).

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٩.

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٦: ٩٦ وقال جعفر الصادق ؏: ...

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

إنه لا يقتصر ﴿طَآئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ على مسهم المسيس، بل ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ المس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أولاء وهؤلاء في مسهم اللعين المتقين، فاليقظة اليقظة للذين اتقوا تذكرا باستعاذة باستنجازة حتى يبصروا مسيرهم إلى مصيرهم ولا يصطادوا إلى فخ الشيطان.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ يقترحونها أو يرتقبونها كما أوتي رسل الله، ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ كأنه هو المجتبي لآيات الله كما يحب ويرضى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ دون ما أهواه أم تهوونه أنتم، إنما أتبعه لا سواه، سواء في وحي الرسالة أم آيتها الخالدة، فلا أنتظر من ربي آية سواها، ولن أقترح عليه آية سواها، بل والاقتراح على ربي في حقل رسالتي تجاوز عن أدب الرسالة إلى حدب الربوبية، ثم ليست الآيات الربانية إلّا بصائر من ربكم و﴿هَٰذَا﴾ القرآن العظيم ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فقد جمع آية القرآن بوحدتها كلّ البصائر الربانية، حيث تبصّر ما يبصر ببصيرة أم بصر ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(١) - ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

أجل إنه ﴿بَصَآئِرُ﴾ تبصر وتبصّر ﴿وَهُدًى﴾ تهدي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تحمل كل الرحمات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فـ ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تحلّق بصائره على كافة المكلفين، ولكن البصيرة ليست إلّا الطريقة المثلى، فليست - إذاً - ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ إلّا ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالبصائر، دون هؤلاء الحماقى الذين ﴿وَجَحَدُواْ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٦.

بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(١)]: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[(٢)] - ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(٣)] - ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[(٤)].

هنا ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ تعجيز إلى سخرية، وكأنه مدع إمكانية إتيانه بآيات يجتبيها، و﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ثم الويل كل الويل لهؤلاء الذين يضلون الناس ويعمونهم بتلك البصائر، تذرعاً بالقرآن إلى ضده علمياً أو عملياً، وكما يندّد بهم فيما أوحي إلى رسول الله ﷺ[(٥)].

وهؤلاء هم المعنيون من خطاب علي عليه السلام العتاب:

«أريد اداويكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها، اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي، وكلت النزعة بأشطان الركي»[(٦)].

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٥) الدر المنثور ٣: ١٥٥ - أخرج الحكيم الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: أتاني رسول الله ﷺ وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] من قوله: أتاني جبرئيل آنفاً فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبرئيل؟ فقال: إن أمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كلّ ذلك سيكون، قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلّون وأوّل ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون، وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا تقصرون، قلت: يا جبرئيل! فبم يسلم من سلم منهم؟ قال: بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه.

(٦) (الخطبة ١٢٠).

أجل ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾[(١)] هي القرآن نفسه، دون حاجة له إلى بصائر أخرى تفسره، فـ «فيه الحجة والنور والبرهان، كلام الله غض جديد طري شاهد، وحكم عادل، قائد بحلاله وحرامه، بصير به، قاض به، مضموم فيه، يقوم غداً فيحاج أقواماً فتزل أقدامهم عن الصراط»[(٢)] و«القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده»[(٣)].

وقال ﷺ: ما من مؤمن ذكر أو أنثى، حرّ أو مملوك إلا ولله عليه حق واجب أن يتعلم من القرآن ويتفقه فيه ثم قرأ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[(٤)] [(٥)].

فلا تحصل الربانية العلمية والتربوية إلّا على ضوء دراسة الكتاب وتعليمه وكما قال ﷺ: «إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدي يوم الضلالة فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان»[(٦)].

وقال: «حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبسون نور الله، المعلمون كلام الله، من عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله»[(٧)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

(٢) جامع أحاديث الشيعة للمغفور له أستاذنا الأقدم في الفقه السيد البروجردي، ج ١٥: ٧، السيد علي بن طاووس في الطرف عن كتاب الوصية لأبي ضرير عيسى بن المستفاد من أصحاب الكاظم عليه السلام عنه عن أبيه عليه السلام في حديث أن رسول الله ﷺ قال للأنصار أيام وفاته فيما أوصى به إليهم: كتاب الله وأهل بيتي، فإن الكتاب هو القرآن وفيه الحجة.

(٣) المصدر عن المجمع ١٥ ج ١ - أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: . .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

(٥) المصدر، أبو الفتوح الرازي في تفسير عن عبد الله بن عباس عنه ﷺ وعن معاذ بن جبل عنه ﷺ.

(٦) المصدر.

(٧) المصدر ٢٥ عن تفسير أبي الفتوح الرازي.

ذلك وهؤلاء ممن يكون «القرآن حديثه»[١] و«شعاره»[٢] و«لا يعذب الله قلباً وعى القرآن»[٣] وقد كان كلام الامام الرضا عليه السلام كله وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن[٤].

فـ «. . . أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك، أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن ترزقني حفظ القرآن وأصناف العلم، وأن تثبتها في قلبي وسمعي وبصري، وأن تخالط بها لحمي ودمي وعظامي ومخي، وتستعمل بها ليلي ونهاري برحمتك وقدرتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا حي يا قيوم»[٥].

«اللهم ارحمني بترك معاصيك أبداً ما أبقيتني، وارحمني من تكلف ما لا يعنيني، وارزقني حسن المنظر فيما يرضيك عني، وألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم نور

---

(١) المصدر ٣٠ في رواية جامع الأخبار:

(٢) المصدر ٢٩ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أولئك قوم اتخذوا مساجد الله بساطاً والقرآن شعاراً».

(٣) المصدر ٣٥ - أمالي ابن الشيخ بسند متصل عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وفيه عن جامع الأخبار للصدوق عنه صلى الله عليه وآله وسلم: اقرأوا القرآن واستظهروه فإن الله تعالى لا يعذب قلباً وعى القرآن.

(٤) المصدر ٦٧ عن العيون ٢: ١٨٠ عن إبراهيم بن العباس يقول: ما رأيت الرضا عليه السلام يسأل عن شيء قط إلا علم، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان الأول إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كلّ شيء فيجيب فيه، وكان كلامه كله.

(٥) المصدر ٣٨ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تقول: اللهم إني أسألك ولم يسأل العباد مثلك، أسألك بحق محمد نبيك ورسولك وإبراهيم خليلك وصفيك وموسى كليمك ونجيّك وعيسى كلمتك وروحك، وأسألك بصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى وقرآن محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبكل وحي أوحيته وقضاء أمضيته وحق قضيته وغني أغنيته وضال هديته، وأسألك باسمك الذي وضعته على الليل فأظلم، وباسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، وباسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت ودعمت به السماوات فاستقلت، ووضعته على الجبال فرست، وباسمك الذي بثت به الأرزاق، وأسألك باسمك الذي تحيي به الموتى، وأسألك.

بكتابك بصري، واشرح به صدري، فرح به قلبي، وأطلق به لساني، واستعمل به بدني، وقوني على ذلك، وأعني عليه إنه لا معين عليه إلا أنت»[(١)].

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾:

هنا ﴿قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ موضوع لواجب الاستماع له والإنصات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والنتيجة الصريحة لسلبية الاستماع والإنصات له هي زوال الرحمة - وطبعاً - إلى خلاف الرحمة وهو العذاب الزحمة، فإن الله لا يخلي عباده من رحمة أو زحمة جزاءً وفاقاً بأسبابهما، وهنا السبب لزوال الرحمة إلى الزحمة هو ترك الاستماع والإنصات للقرآن حين يقرء.

أترى بعد أن ﴿قُرِئَ﴾ تختص بقراءة حية للحمد والسورة ومن قارئ مسلم يكلف، أم وأنت في صلاة جماعة مؤتماً به كما قد يروى؟ وقد روي إطلاق فرض الاستماع والإنصات للقرآن أيضاً[(٢)]، و﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ ليس ليعني

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نور الثقلين ٢: ١١٣ في التهذيب عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن الرجل يؤم القوم وأنت لا ترضى به في صلاة يجهر فيها بالقراءة؟ فقال: إذا سمعت كتاب الله يتلى فأنصت له فقلت: إنه يشهد علي بالشرك! قال: إن عصى الله فأطع الله فرددت عليه فأبى أن يرخص لي قال: فقلت له: أصلي إذا في بيتي ثم أخرج إليه؟ فقال: أنت وذاك وقال: إن علياً عليه السلام كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا وهو خلفه ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥] فأنصت علي تعظيماً للقرآن حتى فرغ من الآية ثم عاد في قراءته ثم عاد ابن الكوا فأنصت علي عليه السلام أيضاً ثم قرأ فأعاد ابن الكوا وأنصت علي عليه السلام ثم قال له: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: ٦٠] ثم أتم السورة ثم ركع ورواه العياشي عن أبي كهمش عن أبي عبد الله عليه السلام من قوله: «قرأ ابن الكوا»، أقول، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي كهمش عنه عليه السلام والقمي ٢: ١٦٠ قال: كان علي عليه السلام والجعفريات عنه عليه السلام وابن شهر آشوب في المناقب ٢: ١١٣ مثله.

أقول: علّ قراءته عليه السلام هذه الآية كان بعد الفاتحة في نفس السورة التي فيها الآية، ثم يلمح =

سورة خاصة في صورة خاصة، مهما نزلت هذه الآية فيما كان المسلمون يتكلمون في الصلاة والإمام: النبي ﷺ جاهر بالقراءة! فمهما كان ذلك سبباً لنزولها ولكنه ليس سبباً لاختصاصها بذلك السبب، ولو أن القرآن مات

= له «تم أتم السورة ثم ركع» حيث السورة هنا ليست هي الفاتحة لمكان «ثم ركع» بل هي سورة بعدها.

وفيه عن تفسير العياشي (٢: ٤٤) عن زرارة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: يجب الإنصات للقرآن في الصلاة وغيرها وإذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع، وفيه عن المجمع ٤: ٥١٥ عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: الرجل يقرأ القرآن أيجب علي من سمعه الإنصات له والاستماع؟ قال: «نعم إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع».

(البحار ٩٢: ٢٢٢ جامع البزنطي نقلاً عن خط بعض الأفاضل عن جميل عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يقرأ القرآن (و ذكر نحوه).

وروى الإمام أحمد وأهل السنن وقال الترمذي عنه: هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازي من حديث الزهري عن أبي أكثمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ أحد منكم معي آنفاً به؟ قال رجل: نعم يا رسول الله ﷺ قال: إني أقول: مالي أنازع القرآن، فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

أقول: ليس يعني هذا اختصاص وجوب الاستماع بالصلاة الجهرية للمأمومين وإنما هي الظرف الأهم لواجب الاستماع حيث الإمام يتحمل عن المأموم القراءة إضافة إلى واجب الاستماع إلى القرآن بصورة مطلقة، فلا معارضة بين أدلة وجوب الاستماع في الجهرية والأخرى الطليقة فيه ولا سيما الآية حيث ركز الأمر على «القرآن» وليس من الفصيح بل هو من القبيح.

وفي بحار الأنوار ٨٩: ٢٢٢ عن جامع البزنطي نقلاً عن خط بعض الأفاضل عن جميل عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يقرأ القرآن يجب على من يسمعه الإنصات له والاستماع له؟ قال: نعم، إذا قرئ القرآن عندك فقد وجب عليك الاستماع والإنصات.

وفي جامع أحاديث الشيعة ١٥: ١٦٣ عن كتاب العلا عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: يستحب الإنصات والاستماع في الصلاة وغيرها للقرآن، أقول: لا يعني الاستحباب هنا إلا الوجوب لمكان «في الصلاة» ففي «غيرها» أيضاً لوحدة التعبير، ثم وليس الاستحباب نصاً أو ظاهراً فيما اصطلح عليه، بل هو مشترك في استحباب الواجب والندب اللّهم إلا بقرينة تخص أحدهما.

بموت سبب نزوله لمات القرآن كله، فإنما العبرة بعموم النص لا بخصوص سبب نزوله، ولو كان قرآن خاص موضوعاً للحكم لجيء بخصوصه، ولا سيما في ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أفترى القائل: إذا رأيت مسلماً فسلّم عليه، وهو في مقام البيان، فهل يصلح تقييده بمسلم خاص؟ وبأحرى القرآن لمّا يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ فالموضوع هو مطلق القرآن.

وعناية قرآن الحمد في جهرية الجماعة، جناية في التعبير، لا تقبلها كلام اللطيف الخبير، أن تعنى الحمد من ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي يحوى زهاء ألف ضعف من آياتها السبع! إنما ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ هو القرآن كله ما صدق عليه، كلمة أو جملة أو آية أو سورة، ومجهولية ﴿قُرِئَ﴾ تجهّل تخصيص القارئ بما قد يخصّص به من كونه مسلماً بالغاً حالة القراءة الجهرية للصلاة، أو كونها قراءة حية، فلا يجب الاستماع والإنصات للقراءة المسجلة(١).

ذلك، وقد هدد التارك للسجود حين يقرء القرآن بعدم الإيمان حيث يعني السجود غاية الخضوع، لا فقط سجود التلاوة لمكان ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ دون خصوص آيات التلاوة منه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾(٢) ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾(٣) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(٤).

ذلك، وحتى لو لم يكن في القرآن نصوص كهذه التي تدل على فرض

---

(١) راجع الفرقان ٣٠: ٢٤٩ - ٢٥٣ تجد تفصيلاً لبحث حول حكم استماع القرآن على ضوء هذه الآية.

(٢) سورة الإنشقاق، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥٨.

الاستماع لكان ذلك فرضاً أدبياً وفطرياً وعقلياً، فحين يكلمك عظيم من العظماء لصالحه هو دونك فهل يجدر بك أن تلهو عنه إلى غيره؟

فمالك حين يقرء القرآن لا تستمع له ولا تنصت ملتهيا إلى سواه؟ وهو لصالحك فقط دون صالح الله! صحيح أنك حين تشتغل بواجب يشغلك عما سواه لا يفرض عليك استماع القرآن حيث يزول وجوبه إما حرجاً أم تقديماً لواجب أهم منه عليه كأن تصلي قارئاً لواجباتها، اللّهم إلّا إذا أمكن الجمع كما فعله علي عليه السلام حيث سكت في صلاته مرات ثلاث احتراماً للقرآن إذ كان يقرأه ابن الكوا وهو يندد به في آية الإشراك! فمثل استماع القرآن كمثل سائر الواجبات التي تختلف حالاتها في دوران الأمر بينها وبين الأهم منها، أم في حالة الحرج وما أشبه.

ذلك، فالقرآن ككلّ أياً كان ومن أيّ كان يجب الاستماع له، لا فقط سمعه، وإنما ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ تقصّداً بسمع الأذن سمع القلب حتى يحلّق صوته ثم صيته على كيانك كله، ثم ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ فالاستماع دون إنصات كما الإنصات دونما استماع ليس هو كامل الفرض، فإنه الجمع بينهما حيث القصد توحيد الاتجاه إلى القرآن لمّا يقرء، كما توحد الله في الربوبية.

فهنا توحيد في الاستماع والإنصات للقرآن هو المأمور به، وهناك إلحاد ألا يستمع له ولا ينصت، وبينهما اشتراك أن يستمع له وينصت مع استماع لغيره وإنصات، أو استماع دون إنصات أم إنصات دون استمتاع.

ثم ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ دون «إليه» أو «استمعوه» مما يدلنا على مغزى الاستماع، فقد يستمع إليه ولا يستمع له كأن يسمع الصوت دون تأمل في معناه، حيث القصد من الاستماع إليه هو الاستماع له، فقد يستمع إلى كتاب الله هزء وتحريفاً وتجديفاً أم لا له ولا عليه، و﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ تعني استماعاً يليق بالقرآن ولصالحه إيماناً وتصديقاً وتدبراً وتذكراً وتطبيقاً، أن يصبح

المستمع له استماعاً له بكل آذانه، وإنصاتاً بكل كيانه، والإنصات ذريعة صالحة لصالح الاستماع له، فإن «له» تعني اختصاص ذلك الاستماع بالقرآن، دون إشراك له بسواه، بل هو توحيد الاستماع بعد توحيده الإنصات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قدر الاستماع والإنصات له ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

لا كمن ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[2] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[3] و﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[4] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[5] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[6].

فإنما القصد من ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ هو افتعال سمع الأذن لصالح التصديق والتطبيق، فمن سمع الأذن إلى سمع الصدر والقلب واللب والفؤاد، وإلى سمع الأقوال والأحوال والأفعال كلها، حتى تصبح بكيانك ككلّ القرآن كلّه، وكما أمر الرسول ﷺ أن يسمعهم هكذا: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[7].

وهذا هو المعني من السجود للقرآن حيث يندد بتركه المشركون ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾[8] فإنه عناية الخضوع استماعاً وقراءة وفي كافة الحقول الأنفسية والآفاقية.

وفي رجعة أخرى إلى الآية نجد المناسبة التامة بين طامة الاستماع

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢١.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.
(٦) سورة محمد، الآية: ١٦.
(٧) سورة النساء، الآية: ٦٣.
(٨) سورة الإنشقاق، الآيتان: ٢٠، ٢١.

والإنصات الواجب للقرآن لمكان ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ﴾[1] فكما أن «هذا» يعني القرآن كله، فإنه بصائر كله، فلا بد من انفتاح الأبصار لرؤيته، فالبصر عند قراءته استماعه والإنصات له، ثم سائر الأبصار لسائر الإبصار حتى تحلّق بصائره على كل الأبصار.

وأما أن هناك القرآن البصائر ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو هنا عله رحمة إن استمعوا له وأنصتوا: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حيث الرحمة الأولى هي المبدئية للذين به يؤمنون، ثم الرحمة المترقّبة هي الزائدة قدر المزيد من الاستماع والإنصات له، فالقول إن الآية تخاطب فقط - «الذين كفروا» إنه كفر بها، لا سيما وأنها في عداد الأوامر المتواترة المتتالية للنبي ﷺ والذين معه! والروايات المتظافرة انها نزلت بشأن الاستماع والإنصات في الصلوات الجهرية.

ومن الأحكام الفقهية المستفادة من الآية بعد وجوب الاستماع والإنصات له بصورة عامة، أنه لا تجوز القراءة خلف الإمام الجاهر بها حيث تسمعها، فإن واجب الاستماع والإنصات ليس لمجرد القراءة، حيث الإخفاتية خارجة عن حقل الاستماع، فحين يمكن الاستماع للقرآن في صلاة وسواها وجب الاستماع، وأما الهمهمة غير المسمعة للقرآن فليس استماعها استماعاً للقرآن حتى يجب، اللّهم إلا تفتيشاً عما يسمع منه فيسمع.

ذلك، وإذا دار الأمر بين واجب الاستماع وواجب القراءة كما في الصلاة وما أشبه، فالأهم هو الأهم إن لم يمكن الجمع بينهما، كأن تقرء في صلاتك نفس ما يقرءه غيرك جهاراً، فهناك تقرء مستمعاً لما يقرء.

أم تقرء غير ما يقرأه غيرك مع إمكانية الجمع بين قراءتك واستماعك

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

فكذلك الأمر، هذا، ولكن المفروض - قدر الإمكان - التجنب عن هذه الآمزق، ابتعاداً في قراءتك المفروضة عن مسمع سائر القراءة، أم تأخيراً لصلاتك حين لا تتمكن من الابتعاد.

ذلك، وفي تساوي الفرضين يتساوى الفرضان حيث تتخير بينهما، وإذا تكرر فالتراوح قضية الاحتياط، بل هو المفروض، تقديماً لأحدهما مرة وللآخر أخرى.

وقد يجوز الأمر بإخفات القارئ لتجد أنت مجالاً لتحقيق فرضك، فإن قراءتك مفروضة، وليست قراءته في أصلها - فضلاً عن الجهر بها - مفروضة، وقضية تقديم الأهم على المهم هي الأمر بإخفات تلك القراءة غير المفروضة التي تناحر قراءتك المفروضة.

ذلك، وفي رجعة ثالثة إلى الآية نجد في «له» اختصاصاً في ذلك الاستماع بالقرآن، ألا يشرك في استماعه غيره أياً كان وأيان، اللهم إلا وجاه الأهم أم في ظروف محرجة مخرجة عن إمكانية الاستماع في وسع.

وهكذا الإنصات فإنه أيضاً «له» قضية العطف، فليكن المؤمن بالقرآن، حين يقرء جهراً يسمع، مستمعاً له ومنصتاً له بكل كيانه، والخطوة الأولى هي الاستماع بظاهر الأذن والإنصات بلسانه، ثم استماعاً وإنصاتاً بإذن الفطرة والعقلية السليمة، وإلى اللب والقلب والفؤاد، ولحدّ يصبح بكيانه كله استماعاً له وإنصاتاً له، وهنا تتحقق الرحمة الطليقة قدر الاستماع والإنصات الطليقين، وقد سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1] قال: يعني حركوا به القلوب، ولا تتحرك القلوب بحراك القرآن إلا قضية صالح الاستماع له والإنصات له.

ذلك وإن الناس ليخسرون الخسارة العظمى التي لا يعوضها شيء

(١) سورة المزمل، الآية: ٤.

بالانصراف عن القرآن، فإن العكوف على هذا القرآن في استماع وإنصات فوعي وتدبر، لينشئ في العقل والقلب من الرؤية البصيرة الواضحة، البعيدة المدى، القريبة الهدى، ما لا تدانيه رياضة أخرى في أية روضة من الرياض.

وهنا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تعني رحمة زائدة متزايدة على ضوء الزيادة والتزايد من الاستماع للقرآن والإنصات له.

ذلك و«قراء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده، ورجل قرأ القرآن ووضع دواء القرآن على دائه وأسهر به ليله وأظمأ به نهاره، وأقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله عزّ وجلّ البلاء، وبأولئك يديل الله من الأعداء، وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء، فو الله لهؤلاء في قراء القرآن أعز من الكبريت الأحمر»[1].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾:

هنا ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ ذكر موغل في النفس، محلّق عليها كلّها بحيث تحشر النفس «ذكر ربك» فهذا هو موطن الذكر ومأمنه، ثم ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يحوّله إلى قال وحال أخرى، قال دون الجهر اللّهم إلّا إذا لزم الأمر كجهرية الصلاة، أو رجح كأن تتذكر به أكثر أو تعلّم من سواك،

(١) بحار الأنوار ٨٩: ١٧٨ عن أبي جعفر عليه السلام، وفيه ١٧٩ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: القراء ثلاثة: قارئ قرأ ليستدر به الملوك ويستطيل به على الناس فذاك من أهل النار، وقارئ قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده فذاك من أهل النار، وقارئ قرأ فاستتر به تحت برنسه فهو يعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويقيم فرائضه ويحل حلاله ويحرم حرامه فهذا ممن ينقذه الله من مضلات الفتن وهو من أهل الجنة ويشفّع فيمن شاء.

وكقراءة القرآن حيث يرجح الجهر بها إسماعاً فاستماعاً، فالضابطة الأصيلة فيه هي ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إذ لا تذكر أصم فتسمعه بجهر من القول، وعل «اذكر» هنا هو خاص الذكر لخصوص المكلفين، والقرآن والأذان وما أشبه هي من عامة الذكر الدعائي، فليقرء القرآن جهاراً لا إسراراً كما الأذان فإنه للإعلام، وهكذا المواعظ والمدائح والخطابات المذكرة وأضرابها.

فلئن كان القصد من الجهر بذكر ربك رئاء الناس أم إسماع الله فمحظور محظور، وإن كان إسماع الناس ليتذكروا كما أنت، أم تعليماً لهم أم إعلاماً فمحبور محبور.

والأصل في ذكر ربك - تغاضياً عن ملابسات تفرض أو ترجح الجهرية - هو تحريك اللسان دون الجهر من القول مع حركة القلب، فإذا نبست الشفاة مع الأرواح، فليكن ذلك في صورة وسيرة لا تخدش الخشوع ولا تناقض الضراعة والبخوع، بل هو صوت خفيض حفيظ دون صراخ وضجّة، أو مكاء وتصدية أو غناء وتطرية، وإنما هو ذكر يناسب «عند ربك» وكما يرضاه دون ما ترضاه وتهواه.

و﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ علهما زاويتان أصيلتان للأوقات كلها، فإنهما بداية اليقظة ونهايتها وقد فرضت الصلاة أوّل فرضها فيهما ثم ازدادت في غيرهما، أم هما عبارتان عن كافة الأوقات.

هذا قاله، وأما حاله الأخرى بعد ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ فهي ﴿تَضَرُّعًا﴾ أمام ربك بضراعة وتذلل وتبتّل ﴿وَخِيفَةً﴾ مما قدمت يداك، ومن نفسك غير اللائقة بذلك الذكر، وتلك الدعوة أمام ربك ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ في أي وقت من أوقاتك، فليحشرك ذكر ربك قالاً وحالاً وأعمالاً على أية حال[1] فـ:

(١) الدر المنثور ٣: ١٥٧ - أخرج البزار والطبراني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: ذاكر =

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾:

وهنا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ تعني عندية الزلفى كما تناسب ربوبيته العليا لمكان ﴿رَبِّكَ﴾ فهؤلاء السابقون المقربون هم ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة لا مكاناً أو زماناً، فلا مكانة لهم إلّا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ولا قال لهم ولا حال ولا أعمال إلّا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ فهم ليسوا حضوراً عند شيء أو عند أحد أم وعند أنفسهم إلا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ فقد تخلّوا عما سوى ﴿رَبِّكَ﴾ فتحلّوا بـ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ فهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بذكره في أنفسهم تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال «وليسوا هم من الغافلين».

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ دائبين ﴿وَلَهُ﴾ لا لسواه ﴿يَسْجُدُونَ﴾ منقطعين إليه في غاية التذلل بكل كيانهم.

وهذه هي من آيات السجدة التي لا تحصر فيما حصروه في أربع، بل هي بضع عشرة آية فإحدى عشرة سجدة(١) ولا سيما التي تأمر بالسجدة، وعل الأربع هي مهامها ثم تمامها.

= الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين، وفيه عن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: الغفلة في ثلاث عن ذكر الله ومن حين يصلّى الصبح إلى طلوع الشمس وان يغفل الرجل عن نفسه في الدين حتى يركبه.

(١) المصدر أخرج ابن ماجة والبيهقي في سننه عن أبي الدرداء قال: سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف والنحل وبني إسرائيل ومريم والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة وص وسجدة الحواميم.

فهرس الجزء الحادي عشر

الموضوع	الصفحة

تتمة سورة الأعراف

سورة الأعراف، الآيات: ٣٤ - ٤٥ .... ٧
سورة الأعراف، الآيات: ٤٦ - ٥٣ .... ٣٩
سورة الأعراف، الآيات: ٥٤ - ٥٨ .... ٦٨
حول العرش ٧٧
سورة الأعراف، الآيات: ٥٩ - ٦٤ .... ٩٠
سورة الأعراف، الآيات: ٦٥ - ٧٢ .... ٩٧
سورة الأعراف، الآيات: ٧٣ - ٧٩ .... ١٠٣
سورة الأعراف، الآيات: ٨٠ - ٨٤ .... ١٠٩
سورة الأعراف، الآيات: ٨٥ - ١٠٢ .... ١١٣

سورة الأعراف، الآيات: ١٠٣ - ١٤٣ .... ١٤٥

سورة الأعراف، الآيات: ١٤٤ - ١٥٦ .... ٢٠٧

سورة الأعراف، الآيات: ١٥٧ - ١٦٢ .... ٢٤٥

تتمه فيها إشارات إلى بشارات ٢٥٧

سورة الأعراف، الآيات: ١٦٣ - ١٦٩ .... ٢٧١

كلام حول الحيلة - الشرعية! ٢٨٢

كلام حول حدود الأمر والنهي ٢٨٤

سورة الأعراف، الآيات: ١٧٠ - ١٧٩ .... ٢٩٦

رجعة أخرى إلى الآية في نبرات ٣٢٠

رجعة أخرى إلى آية الذر في ملاحظات ٣٢٢

تلحيقة حول ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ ٣٢٤

كلام حول قصص القرآن ٣٤٧

سورة الأعراف، الآيات: ١٨٠ - ١٨٨ .... ٣٥٣

سورة الأعراف، الآيات: ١٨٩ - ١٩٨ .... ٣٧٦

سورة الأعراف، الآيات: ١٩٩ - ٢٠٦ .... ٣٨٩

الفهرس ٤١١